

يوسف فاضل

طائر أزرق نادر يحلق معي



رواية

دار الآداب

يوسف فاضل

طائر أزرق نادر يحلّق معي

رواية

دار الآداب ـ بيروت

طائر أزرق نادر يحلّق معي

طائر أزرق نادر يحلّق معي

يوسف فاضل / روائي مغربي

الطبعة الأولى عام 2013
ISBN 978-9953-89-249-8

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana.adab@hotmail.com

Website: www.daraladab.com

Facebook: Dar Al Adab

إلى شهداء معتقلات الإبادة في تازمامارت، أكدز،
قلعة مكونة، سكورة، مولاي الشريف، الكوربيس، الكومبليكس،
دار المقري، الأحياء منهم والأموات.

١

روايـة زيـنة

(الإثنين ٢١ أيّار ١٩٩٠. الثامنـة مساء)

I منذ وقف أمام الكونطوار

والرجل الذي لا أعرف كما لو أراد أن يقول لي شيئًا وأنا أجهل هذا الشيء. ما زلت لحدّ الساعة أفضّل أن أجهل الكثير من الأشياء التي تدور في رؤوس الرجال. يهمّ بفتح فمه عندما أقترب ثم يتراجع عن الكلام عندما يرى أنّني ابتعدت. وأنا أتحاشى الاقتراب حتى لا أسمع ما يريد أن يقول. أمشي وأجيء خلف الكونطوار، وكلّما فتحت زجاجة لزبون تساءلت هل اقتربت منه. أو أقول هل أنا بعيدة بالقدر الذي يسمح لي ألّا أسمع. وأنظر إلى الساعة في معصمي حتى يخفّ توتّري. وأرى أنّها الثامنة. وأفتح زجاجة أخرى وأضعها أمام زبون آخر دون أن يطلبها. وبعد؟ هذا لن يحيل الكلام في فم الرجل إلى ماء. ولن يجعل نظراته المتفرّسة أقلّ إلحاحًا أو يجعل حذري ينقص. وأخيرًا وأنا أمرّ يتّكئ الرجل الذي لا أعرف على لوح الكونطوار، ويسألني وهو يداعب كأسه وسط هرج البار والموسيقى الصاخبة وضجيج الفليبير، هل أحبّ الورود؟ فأتحاشى الردّ عليه تجنّبًا للمشاكل. أنا هكذا. عندي ما أفكّر فيه. تعلّمت كيف أخفي أفكاري عن الناس. أفكاري أحتفظ بها لنفسي. وليوم يكون فيه الجوّ صافيًا. ثم إنّني لا أعرف هل أحبّ الورود أم لا أحبّها. وأبتعد من جديد غير مهتمّة به أو بسؤاله. لست من هواة

الخوض في الحديث بلا سبب. الزبائن منشغلون بشرابهم وحديثهم عن الجفاف. سؤاله لا يهمّ أحدًا. لا أحد يهتمّ بالورود في موسم لا ينزل فيه مطر. الرجل يلبس جلبابًا ثقيلاً مخطّطًا باللونين الأسود والكاكي رغم أنّنا في الشهر الخامس. ويبدو كأنّه نبت هنا وسط البار في الوقت الخطأ وفي المكان الخطأ. على عينيه نظّارات سوداء لم تُخْفِ آثار جدري حفرت وجهه. ويستمرّ يتبع بنظراته تحرّكي وينتظر أن أمرّ أمامه ليستأنف الحديث وأنا لا أمرّ أمامه. ولا أقترب. وهو يداعب كأسه بانتظار أن أعبر الكونطوار. وأنا أعدّ الكلمات التي قد يقولها في حالة ما إذا مررت. ثلاث كلمات فقط. كما في المرّة السابقة: هل أحبّ الورود؟ ويبدو أنّه لا ينتظر أن أردّ على سؤاله. إنّه جاء ليتكلّم لا لأن ينصت. هذا ما أقرأ في حركات أصابعه وهو يلعب بكأس الماء. وفي شبح ابتسامة طفت على شفتيه. ثم مررت: هناك في الجنوب موسم للورود في هذا الوقت من كلّ سنة. وتذهب إليه العازبات قصد الزواج. استغرق مروري مدّة أطول هذه المرّة. ما دمت سمعت كلّ هذا العدد من الكلمات. وكما لو أنّ اللعبة بدأت تستهويني. هل أمرّ ثالثة ورابعة وخامسة لأستمع إلى المزيد من هراء الرجل؟ أنا لست عازبة ولا يهمّني أن أعرف أنّ هناك موعدًا سنويًّا لزواج العازبات. مهتمّة بكلام الرجل كثرثرة يطلقها السكارى كلّ ليلة وفي كلّ البارات. هناك حفّار قبور لا يحلو له الحديث إلّا عن عدد الموتى الذين دفن هذا النهار. وهناك النجّار الذي يحلم كلّ ليلة بدولاب يهرب به في الغابات التي جاء منها الخشب الذي يستعمل. . . عندما تقفين وراء كونطوار بار اللقلاق فإنّك مستعدّة لكلّ الثرثرات التي تطرق باب رأسك. كما تفعل أختي ختيمة في الجهة الأخرى من الكونطوار أمام آلة النقود. تتكلّم وترفع يديها مقهقهة ولا يهمّها ما قد يقوله هذا الزبون أو ذاك. (إنّها لا تضع وردة حمراء في

شعرها كما كانت تفعل مدام جانو صاحبة البار السابقة ولكنّها تعطي للروّاد بين الحين والحين كأسًا أو كأسين مجّانًا. ربّما كانت مدام جانو تجلب ورودها من الموسم الذي تكلّم عنه الرجل والذي لا أعرف أين يقع). أنا لست مثلها. أتوجّس من كلّ واحد يهتمّ بي كثيرًا أو قليلاً. أقترب هذه المرّة عندما أرى أنّه أخرج من جيبه ورقة ووضعها على الكونطوار. أنظر إلى الورقة وأرى أنّها لا تدلّ على شيء. وأصبح الرجل هذه المرّة يلتفت حواليه كأنّما سيقول كلامًا غير مباح. وجه الرجل كأنّه لم يعرف الضحك. وتعابيره لا تمزح. أضع أمامه الزجاجة فيقول هل أشربها على حسابك أم تشربينها على حسابي؟ ويلتفت حواليه مجدّدًا. أنا لا أفضّل لا هذه ولا تلك. الرجال يحبّون الشرّيبات وأنا لا أشرب. أختي ختيمة هي الأخرى لا تشرب. وأرى الآن أنّه يضحك. كأنّما يقرأ ما يدور في رأسي. وأكتشف أنّ في فمّه أسنانًا من ذهب تلمع وهذا يزيد من غرابة وجوده في هذا المكان. أرى أنّ الورقة لا تزال في مكانها. أفتح الزجاجة إذن وقبل أن أنصرف عنه أسمعه يقول في رأس الجبل المطلّ على القرية التي تستقبل حفل الزواج الصاخب هناك قصبة تذهب إليها حتى الأرامل والمتزوّجات اللواتي فقدن أزواجهنّ في الانقلابات. تذكّرت حلمًا قديمًا. وهذه الذكرى كأنّما أنارت عقلي. وفهمتُ. قبل أن يهمس في أذني فهمتُ. وإذا بي أضطرب. وإذا بي آخذ الرسالة. وإذا بي ألتفت إلى أختي ختيمة في الجهة الأخرى من الكونطوار. وإذا بالرجل يهمس في أذني من جديد أمامي فقط ما يكفي من الوقت لأستقلّ حافلة التاسعة التي تأتي من فاس. رجل في حوالى الخمسين من العمر لم يظهر في البار قبل هذه الليلة. ولم يقف أمام الكونطوار أكثر مِن الوقت الذي استغرقته جمله المرصوصة قصد إثارة الفتنة من جديد في رأسي. وربّما أكثر قليلاً. إنّه استمرّ واقفًا ينظر إليّ.

كأنّما ينتظر منّي أن أقفز من فوق الكونطوار وألتحق بحافلة التاسعة. اختفيت في المطبخ وفتحت الرسالة. وعرفت خطّ عزيز. وماذا أفعل برسالته؟ أرميها في فمي كما لو كانت حبّة هراء وأشرب عليها الماء؟ ونظرت إلى الساعة في معصمي.

كنت أعتقد أنّني نسيتُ. انكسرتُ. وعقلتُ. وهدأتُ. ونسيتُ. وأنّ فكرة البحث عنه من جديد خمدتْ وتوارتْ وانطفأتْ. (مضت أربع سنوات لم أغادر فيها بار اللقلاق والبيت الذي فوقه. منذ أن ماتت مدام جانو وتركت البار في اسم أختي ختيمة. اعتنت بها أختي أكثر من عائلتها التي كانت تأتي كلّ ستّة أشهر من فرنسا لترى هل نفقت العجوز أم لا. والعجوز بدل أن تترك لهم البار والبيت الذي فوقه كتبت كلّ ما تملك باسم ختيمة التي اعتنت بها ودفنتها في القبر الذي اشترياه معًا في أيّامها الأخيرة. وانهمكنا في العمل الشاقّ الذي يتطلّبه تسيير بار. ومشاكله اليوميّة مع السكارى والبوليس والمخابرات والعسكر. من السابعة صباحًا حتى منتصف الليل). ياه، مضى الوقت! كلّ هذه السنوات؟ لا، لم تغادر رأسي فكرة العثور عليه ولو يومًا واحدًا. ما زالت الفكرة كما هي بالطراوة والإلحاح نفسهما اللذين عرفتُهما وأنا في السادسة عشرة عندما بدأت مسيرة بحثي الطويلة عن عزيز. كانت فكرتي دائمًا هي أنّه لم يمت ولم تبتلعه الأرض وأنّني سأعثر عليه ذات يوم. فكرتي هي أنّني لن أخسر شيئًا هذه المرّة أيضًا. بدأت بحثي عنه في السادسة عشرة. أنا الآن في الرابعة والثلاثين وسأستمرّ إلى الستّين أو السبعين وما فوق... فكرتي أنّني سأعثر عليه في النهاية. أحبّ أن أرى نفسي من هذه الزاوية. أحبّ أن أرى نفسي منتصرة في يوم من الأيّام. يملؤني هذا الشعور فرحًا كبيرًا. مرّة ذهبت حتى غابة المعمورة بعد مكالمة هاتفيّة يقول فيها الرجل إنّه يعرف مكان وجود عزيز. لم أجن غير

ابتزاز أضفته إلى ابتزازات سابقة. لم أضعف ولم أيأس. الخبر الكاذب يعطي الوقت معناه. به تستمرّ الشعلة متّقدة. الخبر الكاذب يبقي على شعلة التذكّر ملتهبة كالمشعل تحملها وتتقدّم. لم أتردّد لحظة واحدة أمام خبر المعمورة كما لن أتردّد الآن. أمامي فقط ما يكفي من الوقت لأستقلّ حافلة التاسعة التي تأتي من فاس كما قال الرجل. عدت إلى الكونطوار دون أن أقرّر هل أخبر أختي ختيمة أم لا. ليس لديّ سبب وجيه كي أخبرها أو لا أخبرها. لم أخبرها في المرّات السابقة. وكان الرجل في هذه الأثناء قد غادر البار دون أن يشرب زجاجته.

II في المحطة

لم تكن حافلة التاسعة القادمة من فاس قد وصلت. والمسافرون قليلون. ولا يظهر عليهم أنّهم قاصدون موسم ورود أو موسم زواج. ثلاثة رجال يدخّنون وأربع نسوة مدّثرات في ثياب كثيرة الزخارف يجلسن فوق رزمهنّ وبضع عربات عليها خيشات ضخمة وتحتها كلاب تنام. وشبّاك التذاكر مغلق. قال أحد الرجال الثلاثة إنّه مغلق منذ سنوات ثم أشار إلى رجل واقف تحت عمود الكهرباء. في اللحظة التي أبصرته فيها رمى الرجل على رأسه قبّ جلّابيّته واستدار موليًا ظهره جهتي. وقلت إنّه الرجل نفسه ولو يكون بائع تذاكر. بالنظارات السوداء والوجه المجدور والجلابيّة المخططة بالأبيض والأسود نفسها. أقترب منه وإذا به يخرج تذكرة ويمدّها لي. كأيّ بائع تذاكر لم يمرّ ببار اللقلاق قبل لحظات. أحقّق فيه النظر كي يتعرّف عليّ. ويبدو مستغربًا عندما أقول إنّني رأيته منذ قليل في بار اللقلاق. كلامي ضايقه. نعم إنّه كان يسكر، قال، ولكن في بار آخر ويرجوني ألّا أخبر رئيسه بذلك حتى لا يطرده من العمل. ليس في كلامه أدنى نبرة مزاح رغم أنّ الموقف أقرب إلى المزحة. والاستمرار في الحديث حول الموضوع لن يفضي إلى أيّ معنى. فأسأله عن الحافلة متى ستأتي. يستعيد ثقته وحماسه ويقول

ستأتي في التاسعة. نظرت إلى الساعة في معصمي: التاسعة والربع.

الحافلة القادمة من فاس تدخل المحطّة في التاسعة، قال.

نعم، كثيرًا ما تدخل المحطّة في التاسعة، ولكن الآن متى ستدخل، الآن؟

مع التسعودْ كيف العادة.

ولكنّها متأخّرة.

علاش متأخّرة؟ كتْجي ديما في الموعد.

ولكنّ الموعد فات.

آش من موعد؟ الموعد لا يفوت أبدًا. لا سبيل إلى التفاهم مع بائع التذاكر. لا يوجد مسافرون كثيرون في المحطّة كما قلت. أسأل أحدهم هل مرّت حافلة التاسعة، كي أتأكّد. وأطمئنّ. وأجلس على جانب الطوار وأغمض عينيّ لأرتّب أموري وأرى بوضوح أكبر... هل أسعدني الخبر؟ في المرّات السابقة كان قلبي يهتزّ بعنف وتختلّ أعصابي كلّما سمعت خبرًا عن عزيز. مجرّد تصوّري أنّني أتلقّى خبر وجوده في مكان ما، ولو في مكان غير موجود أصلاً (كما حدث في مرّات عديدة.) مجرّد الفكرة كان يجعلني غير مرتاحة لا واقفة ولا جالسة. دمي يتدفّق في عروقي في كلّ اتّجاه. كما لو يكون فقد صوابه. عندي انطباع الآن أنّ انفعالي فتر. وأنّ حماسي السابق بدأ يتخلّى عنّي. وكما لو كنت متأسّفة، من أجل عزيز بالأساس. كنت أتوقّع في نفسي فورة أكبر. لِم لم أستقبل الخبر كما ظللت أتوقّع ويمرّ عليّ هكذا، عابرًا كما الرجل، بلا أثر، بلا ظلّ. ربّما إنّها السنوات الأربع الأخيرة التي قضيت غارقة في العمل، محبوسة في بار اللقلاق، أربع سنوات لم أتلقّ فيها خبرًا كاذبًا واحدًا.

٢

روايـة عزيـز

(العاشرة ليلاً)

I مضى وقت كنت أتسلّى فيه

كثيرًا وأنا أراقب الحياة في الممرّ. عندما كنت في حالة صحّيّة جيّدة وأستطيع التحرّك حتى الباب. حياة تمور على بعد خطوات منّي. صراصير تلعب. تسير وراء بعضها كقطار سكران. زعانفها الطويلة تتحرّك في كلّ اتّجاه كرادارات دقيقة الصنع. وعلى مقربة منها عقارب ناصبة شوكاتها وتتربّص بها. الصراصير ترقص حولها غير عابئة بالسلاح المهدّد، لاهية حتى تدهمها الفئران فتلوذ بالفرار. بعضها ينجو في شقّ وبعضها يفرد جناحيه ليحطّ على أعلى نقطة في الجدار. الفئران التي تعتقد أنّها كانت تلعب هي الأخرى تهاجم بعضها، تنقضّ على فصيلتها، تعضّ، تنشب أسنانها في لحم بعضها محدثة أصواتًا مقزّزة، وفي أحيان كثيرة تأكل بعضها. ثم تظهر الثعابين فتضطر الفئران الناجية من المجزرة للهرب بدورها. ولا تعرف بعد مدّة من يركض خلف من. من يصطاد من ومن يأكل من. حياة كاملة على مقربة من شقوق الباب. لا أهتمّ بالثعابين الآن. زادها موفور في الممرّ. ويفوق حاجتها. شغلني أمر العقارب. شغلني سمّها بالأساس. وهي مخلوقات مسالمة. (لعبت بالعقارب في ضيعة عمّي. لم تلدغني. بسطت لها راحتي وتركتها تتجوّل فيها على هواها. وقد رأيت عمّي حين تلسعه عقرب، يجرح مكان

اللدغة ويترك الدم يسيل). العقارب تلسع مضطرة. لهذا السبب لم يدرك العقرب نواياي. خطّتي واضحة بالنسبة لي. ولكنّها ليست كذلك بالنسبة للعقرب. فكرتي أن أسلّم للسعته إصبعًا حتى أفلت من لسعاته المقبلة ومن لسعات كلّ سلالته. يكفي أن يلسعك العقرب مرّة لتتحصّن ضدّ سمّه. وهذه نيّتي. لن أبدّد دمي كما كان يفعل عمّي. ليس فيّ دم أسفحه. ثمان وأربعون ساعة من الهذيان. ثم أسبوع في الفراش. وعندما أنهض يكون الجسد قد تحصّن ضدّ سموم كلّ العقارب. وسموم الأفاعي. ضدّ كلّ السموم بشكل عام. خطّتي واضحة بالنسبة لي. ولكن فكرة العقرب لا تطابق فكرتي. أسفل الباب فجوة. ما بين الباب والأرض، منها يدخل ماعون الأكل وإبريق الماء. ومنها يطلّ العقرب الآن، رافعًا شوكته وينتظر لست أدري ماذا. ثم يتحرّك متمسّحًا بالجدار كالهارب من مصيدة ويتوقّف. ينظر إليّ وأنظر إليه. لا يقوم بأيّة حركة تنمّ عن ضغينة أو رغبة في الإيذاء. أمدّ له راحتي ليتمدّد عليها كما كنت أفعل في البادية عندما كنت طفلاً. يتحاشى راحتي الممدودة أمامه في سخاء ماكر، يتحاشى جسدي بكامله. لا يعيره أدنى اهتمام. وأنا لا أستطيع أن أقول له تعال أيّها العقرب اغرز شوكتك في لحمي حتى أنجو من سمومك المقبلة. عليه أن يدرك ذلك من تلقاء نفسه دون حاجة إلى أن أشرح له. وماذا سأشرح؟ إنّه لم يفعل ذلك من قبل، عندما كنّا صغارا، لماذا سيغيّر من سلوكه الآن؟ معه حقّ. أحنى أخيرًا شوكته وبدأ يتسلّق الجدار.

أنظر الآن إلى العقرب على الجدار. نهايته المضحكة أعرفها. سيصعد حتى يعتقد أنّه أدرك السقف ثم يسقط. لأنّه ليس صرصارًا ولا خفّاشًا. ولأنّ عناده الساذج لا مبرّر له. ما علاقة العقارب بالسقوف؟ أتمتّع للحظات بدويّ سقوطه. باف. ثم أراه يتجمّد في مكانه وينظر

جهتي كأنّما من خجل. وهذه متعة أخرى: يلملم أطرافه وهو يحاول أن يخمّن ما يدور في رأسي. أقول ربّما أدرك فكرتي أخيرًا وسيتقدّم نحو راحتي. العقرب مستمرّ يراقبني. وبدل أن يتقدّم يعاود الصعود. وعندما أسمع دويّ سقوطه مرّة ثانية أرفع قهقهتي عاليًا حتى يسمعها جيّدًا. حتى يدرك أنّني لست بحاجة إلى سمومه. أتمنّى في خاطري أن ينكسر ظهره أو تتكسّر شوكته. أتمنّى له من قلبي أن يصيبه ما يصيب العقارب من مكروه. تكفيني سمومي. (صحّتي على قدّ الحال، رأسي لم يعد ينبت فيه شعر. سطحه محفور كميدان عبثت فيه خنازير جائعة).

II لم تغنم راحتي بلسعة العقرب كما تمنّت

وأنا عدت من انتظاراتي اليائسة بعضّة فأر في إصبع قدمي اليسرى. في السابق، قبل عضّة الفأر، كنت أجزي الوقت وأعدّه وأحصي تقدّمه بطرق عديدة ومتنوّعة. وهذه بعض من المراحل التي مررت منها.

المرحلة الأولى والتي أتصوّر أنّها قد تكون استمرّت ثماني سنوات: عندما تعذّر عليّ تذكّر عدد السنين التي قضيت في هذا المطبخ، عندما لم أستطع أن أقيس عددها، وجدتني في أحيان كثيرة أضع خارطة معيّنة لتعقّب انفلات الزمن. فاتّضح لي بما لا يدع مجالاً لذرّة شكّ أنّ الزمن امتداد واحد بلا ليل ولا نهار. منذ تلك اللحظة تغيّرت فكرتي عن طلوع شمس أو بداية نهار أو نزول ليل. كلّ هذا لا يوجد سوى في دماغ البشر. هل تعلم متى يبدأ أمر وينتهي أمر؟ هل تستطيع أن تحدّد أنّ شيئًا انتهى وأن آخر حلّ محلّه؟ وفهمت أنّ فكرة ابن آدم عن الموجودات خاطئة. هل تختفي لمجرّد أنّك أدرت لها ظهرك؟ لا شيء يبدأ ولا شيء ينتهي. النهار لا يعقب الليل. والليل لا يعقب النهار. موجودان في الوقت نفسه وأنت تتعاقب عليهما. التفتْ خلفك وإذا هناك ليل. ثم ارفع عينيك قليلاً، ارفع عينيك بالقدر الكافي الذي تستطيع به أن تحدّد غربك لترى شعاع النهار يتسلّل من بين شقوق

الجدار. ليس نهارًا كاملاً. علامة تدلّ على أنّ النهار موجود في مكان ما. وأنّ الذاكرة هي التي تراه قبل أن يكون. الأمر أبسط في هذا المطبخ. عتمة كثيفة ومتعدّدة المستويات وتمتدّ من الظلمة حتى الظلمة المقبلة. لا يوجد فجر حتى أقول إنّه الفجر ولا ظهر وضحى. خطّ طويل من ليل متفاوت الحلكة. عندما فكّرت في الأمر على هذا النحو، وضعت لي فجرًا وغسقًا بحيث بعد مدّة استطعت أن أقول هذه آخر نقطة من ضوء النهار. نهاري. وهذه بداية ضوء الليل، ليلي. ومع أنّني اكتشفت أنّ نهاراتي ولياليّ على هذا النحو أضحت عامرة بشتّى المغامرات المسلّية فقد بدت لي طريقتي الجديدة في الإمساك بالوقت معقّدة ومكلفة.

المرحلة الثانية تنوّعت فيها مناهجي وقد تكون استمرّت العدد نفسه من السنوات: قضيت جزءًا من هذه الفترة أزجي وقتي في تفسير أحلامي. أرى نفسي في المنام وفمي مليء بالشعر وأقضي وقتًا طويلاً في محاولة تفكيك هذا اللغز كما لو كنت أفكّك كبّة الشعر المشبّك. وهناك طريقة أخرى لتزجية الوقت: عدّ قطرات المطر التي تنزل من السقف والتي لا تنقطع. (إنّها تستمرّ في رأسي حتى بعد أن يكون المطر قد كفّ). هناك أيّام أصل فيها إلى أرقام مدوّخة، مئات الآلاف. إلى درجة اعتقدت معها أنّني وصلت حالة من الهذيان. ثم عوّضت عدّ القطرات بالحساب. الحساب من أجل الحساب دون حاجة إلى قطرات المطر. يلزم نصف ساعة تقريبًا للعدّ من الصفر حتى الألف. أخطئ عمدًا كي أعيد العدّ من البداية. وهذه المرّة أرسم العدد على راحة يدي كأنّما لأتذكّره. وهذا قيد آخر أكبّل به الوقت حتى لا ينفلت. ثم الصلاة. ليس بسبب الإيمان. وأنا في هذه الحفرة أعتقد أنّني لست مدينًا لله بشيء. لماذا أصلّي؟ هل أشكره؟ عَلامَ؟ هل

يشكر الأعمى من فقأ عينيه؟ وحتى إذا كان يفعل فأنا لا قوّة لي على سبر معاني هذا النوع من السلوك. أصلّي كنوع من الرياضة في هذا المطبخ الضيّق.

أمّا عضّة الفأر فالجوع هو السبب. كنت قد انصرفت عن التفكير في الأكل منذ مدّة. كما انصرفت الفئران والحيوانات المؤذية الأخرى عن الأمل في العثور على قطعة خبز يابس بين ركامات نجاساتي المتراكمة. حتى اللحظة التي أحسست فيها بعضّة الفأر وهو يقضم إصبعي. هكذا بدأ الأمر. في البداية. بفكرة ما عن قطعة خبز في رأس الفأر. ثم تحوّلت الفكرة إلى عضّة فأر حقيقيّة. في السابق، قبل عضّة الفأر، كنت أزجي الوقت بالعديد من الطرق الماكرة كما قلت. أمّا الآن فإنّني أمضي الوقت في تعداد نبضات قدمي وهي تنتفخ. تاك تك. تاك تك. تاك تك. تاك. مضى من الليل ثلاث نبضات ونصف النبضة. وفي درجات عفونة الرائحة التي تصعد مع كلّ انتفاخ. لم تنتشر الرائحة دفعة واحدة. شيئًا فشيئًا. أعقبتها هزّات عنيفة في القدم. لسعات حادّة. ألم غير متّصل ولكنّه بدون الرائحة ثم شيئًا فشيئًا بالرائحة، عندما بدأ يصعد من الإصبع ما يشبه القذى. ما هذه الرائحة التي تأتيني قال الطبّاخ من وراء الباب. لم أردّ. لم أقل له إنّها رائحتي. رائحة إصبعي الكبير الذي عضّه الفأر بسبب خبز يابس اعتقد الفأر أنّني أخفيه عنه. ثم إنّني لا أشمّ أيّة رائحة. ولا أرى الإصبع لأنّ القدم احتلّت الرؤية وقد انتفخت بدورها. انتفخت تمامًا وازرورقت. وظهر على أديمها ما يشبه بقعًا برّاقة. ملمسها ساخن. كأنّما شيء ما ينضج بداخلها.

ومنذ بدأت الرائحة تنتشر بهذا الشكل الفاضح لا يمرّ يوم لا أفكّر فيه في الموت لأنّه لا يوجد موضوع آخر أفكّر فيه. استنفذتُ جميع المواضيع. وهي طريقة فريدة. أزجي الوقت بالتفكير في الموت. موتي

الخاصّ. ثم الموت بشكل عامّ. وفي تحلّل الجسد وتعفّنه ومجموع الروائح التي يختزن طول حياته ولا تظهر حتى لا تزعج أحدًا. ثم تنفجر دفعة واحدة جارّة خلفها زلزالاً. لا أرى وجه الطبّاخ. أسمع همهمته وتبرّمه. وأحيانًا هذيانه. هل هو الطباخ نفسه؟ أحيانًا يتظاهر بأنّه متعدّد. وأحيانًا بأنّه الطبّاخ الوحيد. ولا سبيل إلى تجلية حقيقة الأمر. وهناك فكرة أخرى: هل يبقى من الجسد شيء بعد الموت غير الرائحة... إلخ إلخ...

تاك تك. تاك تك. تاك تك. تاك تك. تاك تك. تك. مضى من الليل خمس نبضات وربعًا.

هل أنا بخير؟ الآن وعندي هذه الطريقة في تصريف الوقت أتساءل هل أنا بخير. أعدّ رائحة إصبعي المنتفخ، رائحة آلامي نبضة نبضة. انعدام الأوكسيجين بدأ يؤثّر على خلاياي العصبيّة. ألامس الموت. أسير بمحاذاته. جوع وبرد قاس وجراثيم وحيوانات سامّة من أنواع مختلفة. والمرض في الساق. متصاعد. الموت ينضج. الألم ينبض حياة. والجسد يقاوم. كأنّما يعيش بالمقلوب. أعبر الخطّ الوحيد الممكن. من الباب حتى الركن الأيمن وأنا أعرج. خطّ الحياة. رجلي تؤلمني. أو ساقي. أيّ رجل وأيّ ساق؟ أجلس. أرفع ساقًا في الهواء ليمسك الألم توازنه. ثم أرفعها عاليًا ليتواضع الألم وينزل قليلاً. تستهويني أطرافي فأرفع يديّ. أتمدّد وأرفع ساقيّ معًا حتى أرى الفرق. أكرّر الحركة سبع مرّات وأقول إنّها ثلاث مرّات فقط. ألعب بيدي قليلاً. أرفع ركبتي وأشدّ على كعبي. أعرف أنّها ركبتي وأقول إنّها كعبي ألعب به في الهواء. وغير هذا لا أعرفه. مطبخي لا يدخله ضوء النهار. لأنّه لا نهار بالقربِ منه. أنصت إلى جسدي. أستمع إلى نبضاته الخفيّة. أضبط أدنى ذبذبة فيه. أراقب تغيّره المستمرّ. لا أشمّ الرائحة. اختلطت

بالروائح الأخرى. روائح عشرات السنين. الطبّاخ يشمّها لأنّه من الجهة الأخرى من الحياة.

الطبّاخ هو الذي نبّهني إلى هذياني عندما سأل من خلف الباب مع من أتحدّث. قلت له ربّما أكون أتكلّم في نومي. لا، شخصان يتكلّمان ويحدثان جلبة وهما يتحرّكان. ربّما أكون أهذي أيّها الطبّاخ. لا، صوتان مختلفان. صوتان لشخصين مختلفين. وخطوات لحذاءين مختلفين. وعمّ نتحدّث أنا والشخص الذي تعتقد أنّه يزورني أيّها الطبّاخ؟ لم يجل ردّه غموضًا. مصرّ فقط على أنّ شخصًا آخر يزورني ليلاً ليقاسمني المطبخ. ثم أسمع ما يشبه الحشرجة. حشرجة غضب؟ أم أنّ الطبّاخ يبكي؟ اقتربت من شقوق الباب وأنا أعرج ومددت عنقي. لم أستطع أن أرى وجهه. نزلت دمعة على الأرض. نعم. إنّه يبكي. وهذا أمر عجيب. لم يحدث هذا من قبل طوال السنوات التي قضيت هنا، وهي طويلة.

٣

رواية بـابـا علـي

(العاشرة والربـع ليلاً)

I نلعب الداما

أنا وبنغازي وبالي مشغول وأذني على الخارج. نلعب في البيت. غرفتان في الطرف الآخر من القصبة. قصبة قديمة لأحد الباشوات. الباشا لكلاوي أو باشا آخر. بعدّة أجنحة. كمدينة صغيرة. كلّ جناح بساحته وغرفه ومطابخه. الكومندار يسكن في الجناح الذي كان يقيم فيه الباشا. وهو عسكري ولا يحبّ أن يظهر بغير اللباس العسكري. أنا وبنغازي نحتلّ جناح العبيد. به غرف كثيرة مخرّبة ومكدّسة بعضها فوق بعض. إذا أطللت عليه من فوق فسيبدو لك كالبئر. غرفتانا في قاعه. غرفتان قديمتان وخربتان فيهما نأكل. وفيهما ننام. وفيهما نلعب الضامة أنا والسارجان بنغازي. لسنا صديقين. رغم أنّه يقول لي «أنت صاحبي وخويا كما يسمّونه». ويقول أحيانًا كلامًا غير مفهوم كأنّه لم يتعلّم الكلام أبدًا. جمله غير كاملة وحتى إذا اكتملت فتظلّ بلا معنى. وهو يقول إنّه يتكلّم بهذه الطريقة لأنّه لم يدخل إلى المدرسة. وأنا أقول ليس هذا سببًا. أنا أيضًا لم أتعلّم ولكن كلامي واضح ومفهوم. لهذا السبب لا أثق فيه. ولأسباب أخرى. سينتهي نهاية سيّئة على كلّ حال. إنّه قمار كبير. يستدين من الجميع ليراهن على الخيل والكلاب ويلعب اللوطو. ويستدين ليردّ دينًا ولا يردّه. سينتهي نهاية سيّئة. الدائنون يطرقون بابه

وامرأته تتكفّل بأن تقول لهم إنّه مسافر. ثم إنّه بيّاع. يحكي للكومندار كلّ ما يقع في القصبة مع أن لا شيء يقع. لا يكاد يخرج من مكتبه. يحكي له ما لا يقع حتى يبقى معه في مكتبه. والكومندار يعطيه أذنه لأنّهما من الدوار نفسه.

نلعب الضامة وبالي مشغول بالصوت الذي يأتي من الخارج. بين المرّة والمرّة يأتي إلى أذني ما يشبه البكاء.

أتلفّت إلى بنغازي: ما كتسمع والو أبنغازي؟

بنغازي غائب. مشغول هو الآخر. في يده بيدق بالأبيض والأسود وبدل أن يلعب به يرميه في الهواء ويتلقّفه ثم يقول إذا ظهر الوجه الأبيض فسيكون ولدًا. وإن ظهر الأسود فسيكون بنتًا. كلبة الكومندار هِندة كانت بالخارج ودخلت. (بنغازي يسمّي الكومندار خالي حتى يكبر في عينه. بنغازي يحبّ المسكنة والمذلّة.) دخلت هندة وبقي البكاء في الخارج. سألت بنغازي هل يسمع الصوت: ما كتسمع والو أبنغازي؟ كأنّما هناك شخص يبكي. وأرخيت أذني من جديد. ولكنّ البكاء كان قد انقطع. بنغازي كأنّما لم يسمع ما قلت. مشغول بالبيدق الذي يعتقد أنّه سيدلّه على جنس المولود. وبدل أن يضعه على الرقعة لنستأنف اللعب يرميه في الهواء. ضوء القنديل حول المائدة يتراقص. ملامح وجه بنغازي تتراقص هي الأخرى. مشغول بامرأته التي تتوجّع الآن في البيت. وضع يده على ظهر الكلبة. كأنّما تذكّر امرأته. وولده الذي لم يأت بعد. الكلبة ابتعدت. هربت من اليد التي كانت توشك أن توضع على ظهرها. وخرجت مهرولة. وهذه المرّة نظر بنغازي إلى البيدق، يتأمّل في لونيه مستقبله القريب. ووضعه على الرقعة. ما كتسمعش أبنغازي بحال شي واحد كيبكي؟

فين؟

في الساحة.

هداك الريفي كما يسمّونه الذي...

لبكا جاي من الساحة. والريفي مات السيمانة الفايتة.

ولّا عزيز. حتى هو باقية ليه جوج شهقات...

لبكا جاي من الساحة أ بنغازي.

ولا البومة كيف ما كيْسمّيوها.

ماذا يقول الرجل؟ البومة لا تبكي.

الصوت ديالها بحال لبكا...

شي واحد كيبكي أ بنغازي. ولكن ماشي البومة.

لعبنا بعض الوقت. ضوء القنديل بيننا يرقص. وجه الشارجان بنغازي يرقص. أنتظر أن يعود الصوت. ملامحه ترقص. أرى بعضها. أنتظر أن يعود الصوت لأتأكّد ما إذا كان صوت بوم كما قال بنغازي. أو صوتًا آخر. ويبدأ الشارجان يضحك. بشكل مفاجئ. ثم، فيما بعد، استمرّ نصف وجهه المضاء يضحك. أنا أقول له العب وهو يضحك. كأنّما أتحدّث إلى نصفه المعتم. أمّا النصف الآخر الذي أرى فمستمرّ في قهقهته. الكلبة دخلت وأقعت تنظر إليه. بنغازي يضحك كي يشوّش على اللعب. أعرفه وأعرف شراكه. مستمرّ في ضحكه كي يدوّخني. وفي النهاية يقول غلبتك. قلت لبنغازي هذه المرّة، غلبتني أم لم تغلبني، هذه المرّة انت اللي غادي تمشي تطلّ على المسجون ماشي أنا. لم يسمعني. لعبنا لدقائق. كثيرة أم قليلة. لعبنا لدقائق أخرى:

في راسك مرتي قربات كيف ما كيقولو...

العب.

هاد الليلة. . . قال لي عقلي. . .

ماذا يقول الرجل؟

مرتي غادي تولد. ولا غدا كيفما كيقولو. . .

العب أ بنغازي. ما غاديش تدوّخني.

لعبنا لبعض الوقت. وقلت له إنّه لن يدوّخني بالحديث عن امرأته وعاد يضحك: مالك أ بنغازي؟

غلبتك.

خرجت من الغرفة. من أين يأتي الصوت؟ من المطابخ؟ من الساحة؟ من خلف نخيل الساحة؟ من البئر جنوب القصبة؟ جنوب القصبة يمتدّ جناح كبير. مطابخ الباشا. خرجت تتبعني الكلبة. هي الأخرى لا تحبّ الشارجان بنغازي. لم يأتني صوت من جهة المطابخ. ولا من أيّة جهة أخرى. قلت باسم الله الرحمٰن الرحيم وخلّفت. لا أحبّ أن أعبر الساحة ليلاً. عامرة بالموتى. لا أحبّ الليل هنا. وأحب النهار. بالنهار أرى السماء. والنخل. وأطمئنّ. ولكن بالليل؟ لا يعرف الواحد حتى أين يضع قدمه. لا توجد رقعة تستطيع أن تضع عليها قدمًا دون أن يكون تحتها ميت. أو موتى. منذ عشرين عامًا ونحن ندفنهم. بعضهم فوق بعض. موتى فوق موتى. منذ عشرين عامًا وأكثر. لا أحد يعرف عددهم. لأنّنا لا ندفنهم كما يدفن الموتى في المقابر. نرميهم بعضهم فوق بعض. موتى من هذا النوع لا تستطيع أن تقول إنّهم موتى. لا تستطيع أن تطمئنّ إليهم. يستطيعون أن يغادروا حفرهم في أيّ وقت. تفو. الله ينعلها ليلة. وهذه الكلبة التي تتعقّبني. تندسّ بين ساقي حتى تكاد ترميني أرضًا. خائفة هي الأخرى. هي الأخرى تعرف أنّ الموتى يغادرون حفرهم في الليل. يخرجون من كلّ مكان لأنّهم موجودون في

كلّ مكان. تحت كلّ نخلة. في كلّ حفرة وفي كلّ شقّ. وبدون قبور كما في بلدان الدنيا.

في وسط الساحة وقفت. كما لو أنّ شخصًا حطّ يده على كتفي فوقفت. وسرى في جسدي ما يشبه تيّارًا عالي الضغط. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وقفت. والكلبة المسخوطة تتقافز وتدور من حولي ولا أدري هل تحسّ بما أحسّ. هل وصلها بعض من التيّار الذي ألهب دمي وجعل شعر رأسي ينتصب؟ أحاول الإمساك بها وتهرب. مبتعدة بالقدر الكافي. لو أمسك بها كنت أشعر ببعض الأمان. أنا والكلبة سنكون اثنين. ولكنّها تطير. ركلتها كي أتشجّع. لم أضرب غير الريح. تركت الشارجان يدخّن السبسي وينفث الدخان على أحلامه. وأنا هنا في الساحة أركل الظلام. حتى الكلبة اختفت. تلفّتُّ حوالي وقلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وخطوت جهة المطابخ. وهذه المرّة كأنّما مرّ أمامي الشبح. خيال الشبح مرّ قدّامي. وقفت مرّة أخرى. وفعل مثلي. وقف حتى هو. ما أرى لا أراه. أعني لا أستطيع الإمساك بتفاصيله. كأنّما ليس هو ما أرى وإنّما ظلّه. ظلّ الشيء. ظلّ لجسم ليس من هذا العالم. ظلّ شخص مات ولم يمت تمامًا. بقي منه الأساسي. المهمّ. شعر رأسي وقف. والماء جمد في ركبتي. واختفت من رأسي كلّ فكرة. هل أجري نحو المطابخ أم أرجع إلى الغرفة؟ المطابخ آمَنُ وأقرب. خذلتني رجلاي لحظتها. أقسمتا ألّا تتزعزعا عن مكانهما. هل أطلب المغفرة من الميت؟ حتى وأنا لا أعرف إن كنت أنا الذي دفنته. هل أطلب المغفرة منهم جميعًا؟ الذين قد أكون رميت والآخرين؟ منذ عشرين عامًا. أنا وبنغازي. بنغازي في الغرفة يشعل السبسي وراء السبسي. بنغازي لا يخيفه الموتى. ليس بحاجة إلى مغفرة من أحد. والصوت الذي يشبه البكاء؟ هل هو بكاء الظلّ؟ هل للظلّ بكاء؟ كأنّما

سأبكي. الدموع تصعد حتى حافتي عينيّ. بدل البكاء ناديت الكلبة:
هندة؟ هندة؟

لساني ثقيل. ولا أعرف كيف خرج الصوت. هل فعلاً ناديت كما يُنادى على الكلاب؟ لا أظنّ. لم أسمع صوتي بالشكل الواضح حتى أقول إنّ النداء كان مقنعًا. والدليل أنّ الكلبة لم تظهر: هندة؟ هندة؟ ولم أكن آمل في ظهورها. كنت أفكّر في الظلّ. قد يخيفه صوتي ويختفي. استمرّ صياحي يتعقّبني وأنا أجري نحو البناية. هندة؟ هندة؟ وأنا أعدو...

ما زال عزيز فوق الدكّة، كما تركته. (مصطبة إسمنتيّة كانت فيما مضى حوض غسل أواني المطبخ قبل أن يتحوّل إلى زنزانة. وتتحوّل مطابخ القصبة إلى زنزانات أخرى). باب المطبخ ضيّق. به كثير من الشقوق. ومنها أطلّ على السجين. بدا هزيلاً أكثر ممّا كان ولكنّه لم يكن يبكي. كأنّما تقلّص بعض الشيء. أقلّ ممّا كان عليه بالأمس. طفل دون العاشرة. بالأمس كان حجمه أكبر. وكان يتحرّك. ممدّد فوق الدكّة ولكن لجسمه حركة. اليوم زاد تقلّصًا. واختفت حركاته. اختفى القليل من الحماس وحسن النيّة التي كان جسده قد أبدى بالأمس. العينان مفتوحتان. ولكنّهما جامدتان. كعيني الميت. هل أدخل وألمس يده لأرى ما إذا كان نبضه مستمرًّا تحت جلده؟ منذ عشرين عامًا نكتفي بالنظر إليه من الشقوق. وإلى الآخرين عندما كانوا أحياء. العينان مفتوحتان ولكن هل العِرق نابض ويخفق ويجري فيه دم؟ إنّه السجين الأخير. الفرج قريب. سنرتاح جميعًا بعد دفنه.

بحثت عن المفتاح كما لو كنت أنوي الدخول. لم أعثر على المفتاح ولم أدخل.

٤

رواية بنغازي

(العاشرة والنصف ليلاً)

I نحن حرّاس القصبة

ليس عندنا ما نحسد عليه كما يقولون. . . نحن لا نشبه عباد الله كما يسمّونهم. وهذا ضروري. . . وظيفتنا تجعلنا كما يقولون نحظى بالتقدير والاحترام. . . بغض النظر. . . كما يقول بابا علي نأكل القوت وننتظر الموت. ولن يقول أحد إنّني لم أقم بواجبي كاملاً سواء في العمل أو في البيت. الأكل والشراب واللباس والأشياء الأخرى. ولكن عندما يكون عندك سبع بنات، كبراهنّ مختفية في بيت من بيوت تيغسالين أو الحاجب أو أيّ مدينة أخرى، تعمل تلك الأشياء الفاحشة مع الرجال. . . تقول في النهاية ما عندك ما تعمل يا أخي أمام المكتوب. البنات خرجن من ضلعة عوجا من أوّل يوم. الولد في أسوإ الأحوال سيبقى عاطلاً عن العمل. أمّا البنت فأحسن ما يمكن أن تنتظر منها هي أن تأتيك ببطن منتفخ. هذا إذا لم تهرب مع أوّل زنديق يتكلّم معها عن الزواج والعرس والخاتم ثم يتركها على قارعة أوّل طريق. . . بعد أن. . . الأشياء أقولها كما هي. والله سيجازي كلّ واحد على فعله. . . أسمع أنّها مستقرّة في تيغسالين وأرسل من يأتي بها وإذا بها اختفت. ثم أسمع عنها في طنجة أو مراكش. . . وحده سبحانه وتعالى يعرف العمل الذي قمت لإعادتها إلى البيت تجنّبًا للقيل والقال. والله إذا

أراد أن يعاقب مخلوقًا ويُذهب النوم عن عينيه يسلّط عليه سلسلة من البنات... الواحدة وراء الأخرى... مع ذلك لن يقول أحد إنّني لم أقم بواجبي كاملاً نحوهنّ...

ذهب بابا علي يطلّ على المسجون لأنّني انتصرت عليه. أنتصر عليه دائمًا. في الداما وفي غيرها كما يقولون. وعندما سمعت خالي ينادي من مكتبه قلت سأنتصر عليه حتى هو في أشياء أخرى. وخالي هو الكومندار كما يسمّونه. وهو في مكتبه يعضّ الغليون ولا يدخّنه. بلباسه الكاكي الخفيف كالرياضي بلا رياضة... والنظّارات السوداء التي تلعب بين أصابعه ولا يضعها على عينيه لأنّنا في الليل... والبنت تضحك مع كأس شرابها... وكما يقولون على المائدة شراب كثير وشمعتان والأكل وكلّ شيء... والبنت أفرغت كأسها وأطلقت ضحكة عالية...

أعرف دائمًا ما يدور في رأس خالي... من هذه الناحية يفكّر في امرأتي التي تتوجّع. ويتمنّى أن يكون المولود ذكرًا كما يقولون... حتى لا نقع في مطبّة البنات... خالي لا أولاد له... هذا هو السبب... لم يرزقه الله ذرّيّة تذكره بعد موته لأنّها لن تجد ما تذكره بها... وعندما اقترب من الفتاة قلت إنّه يفكّر فيها ولا يفكّر في المولود الذي سيأتي بذكورته وخصيتيه الصغيرتين اللتين سيضاهي بهما خصيات الرجال. وكلّ العجب الذكوري الذي يأتي مع الرجل كما يسمّونه... وكلّما اعتقدت أنّه يفكّر في الفتاة اكتشفت أنّه لا يفكّر فيها... ثم ها هو يضع النظارات على عينيه ويخطو نحوي ويقول شحال باقي؟ وعدت أفكّر في امرأتي التي تتوجّع. ستضع مولودها الثامن... اليوم... بعد سبع بنات... أو غدًا إن لم تكن وضعته أمس... أتمنّى أن يكون ذكرًا. بعد سلسلة من البنات... ثم إنّه في النهاية لا يفكّر في امرأتي عندما أسمعه يعيد السؤال: كم بقي من المساجين. وأنا الذي أعتقد أنّه يفكّر

في وجع امرأتي أعود أكتشف أنّه لا يفكّر فيها. . .

أسمّيه خالي. . . وهو في الحقيقة ليس خالي. وأنا أقول له خالي حتى أظهر له كواحد يحبّه. . . وفي الحقيقة كما يقولون أنا لا أحبّه. وأتظاهر بأنّني أحترمه. وهل تحترم رجلاً في السبعين يسكر ولا يصلّي؟ ولا حول ولا قوّة إلّا بالله كما يقولون. . . ولا يزور المساجين. . . ويسأل فقط كم بقي منهم؟ ونحن أنا وبابا علي نردّ عليه مائتان. فيعد على أطراف أصابعه ولا يسعفه العدّ فيسأل من جديد: وهي شحال؟ وفي مخّه يدور المبلغ الذي سيجني إذا زاد عدد الموتى. ثم إذا تقلّص عدد الموتى. ولا يعرف أيّهما أفضل. . . أن يموتوا حتى يزداد دخله أم يظلّوا على قيد الحياة حتى تستمرّ وظيفته. . . ولا حول ولا قوّة إلّا بالله كما يقولون. . . خالي لا يعرف الحساب لأنّه كان في العسكر. لا يعرف الفرق بين ستّين ومائة وستّين. لأنّه لم يذهب إلى المدرسة. وأصبح كوموندار كما يصبح الواحد زعيم نقابة أو وزيرًا. أو كما أصبحت أنا دليلاً لا يدلّ أحدًا وكما أصبح بابا علي طبّاخًا لا يطبخ شيئًا. . . بالعلاقات. أحيانًا نقول له مائة وسبعة وستّون حتى نضحك في خاطرنا من ارتباكه. . . وحتى يستمرّوا أحياء في خياله. طالما بقوا أحياء فإنّه مرتاح. ونحن مرتاحون. لا يأكلون ولا يلبسون ولا يستحمّون. ويعتقد خالي أنّهم سيظلّون أحياء بقدرة السميع العليم. ولا يخطر بباله أنّهم لكي يبقوا أحياء ولو قليلاً محتاجون إلى القليل القليل من المأكل والنظافة كما يسمّونها. أنا أيضًا لا أريد أن يموتوا عن آخرهم حتى يبقى لنا على الأقلّ واحد نشدّ به عملنا.

وماذا في وسع ابن آدم أن يفعل إذا كان الله قد قدّر عليهم أن يموتوا بطريقة أو بأخرى؟ الله هو الذي يحيي ويميت. ما نفع السؤال؟ ماذا بوسعي أن أقول أنا أو بابا علي أو غيرنا؟ نحن مجرّد دليل وطبّاخ

وخالي قال لنا تعاليا لتكونا دليلاً وطبّاخًا في قصبة الكلاوي. وهذا ما فعلنا. هل نحاسب من أجل هذا؟ كلّنا سنموت على كلّ حال. وأمام الله سبحانه وتعالى سنتحاسب غدًا يوم القيامة... وقلت لخالي ما زال العدد هو هو. شحال؟ مائة وخمسة وسبعون... وقلت ها هو سيحني رأسه كأنّما سقط فوقه حجر كبير... فأراه يهزّ رأسه، وهو الشيء نفسه.

II خالي لم يتعلّم في مدرسة

ولكن عنده تجربة. كلّ شيء تعلّمه في العسكر. وأصبح بفضل عقله كوموندار. تعلّم بفضل عقله أنّ المخزن هو أهمّ شيء في الدنيا. وأنا أسمّيه خالي لأنّه الشاف. والشاف نحتاجه دائمًا. نعم، خالي رجل محظوظ، وعنده عقل يفكّر به. حتى بدون المدرسة. لأنّه بدون العقل الذي وهبنا الله سبحانه وتعالى، العقل الذي يفكّر به ابن آدم كما يسمّونه، لا يوجد حظّ. هذا ما أقول دائمًا. خالي دماغه عامر بالحيل. والنساء. والمال. هل يوجد أهم من هذا في الدنيا؟ ثروته بدأت في الوقت الذي ناداه حظّه. لا قبل ولا بعد. في الوقت الذي أراد الله أن ينعم عليه بالثراء أصبح كوموندار. كوموندار ومقاول دفعة واحدة. لا يوجد كوموندار بدون مقاولة... ولا توجد مقاولة بدون كوموندار... ها هو خالي الآن. مشرف على السبعين، يبني في ضواحي مكناس بيوته بالميزانيّة التي كانت مخصّصة للمساجين... وأنا أقول هذا هو الرجل وإلّا فلا... ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

مكتب خالي بارد بسبب المكيّف. فسيح وبارد. والستائر مسدلة بالنهار والليل. نسيم المكيّف الكهربائي يداعب حاشية الستائر. حتى لتعتقد أنّ النسيم حقيقي. لولا صوت المكيّف كما يسمّونه. الليل دائم في بيت خالي. خالي يعشق الليل. يفضّل ألّا ينتهي. في النهار، عندما

يطلّ على الخارج يغطّي عينيه بنظّارتيه السوداوين السميكتين. وعندما يعود إلى المكتب يسدل الستائر. حتى يتسنّى له ألّا يغادر الليل فكره. هذه هي الحياة التي تعجبه. يفضّل لو كانت كلّ الدنيا ليلاً. خالي يحبّ الليل. خالي ينتعش في الليل. كالوطواط كما يقول. بؤبؤا عينيه لونهما في الليل أصفر، كعيون القطط. صفرة أسنانه غريبة وهي تعضّ على الغليون المنطفئ. الكأس في يده وينظر إلى جهة لا توجد بها الفتاة. الفتاة جميلة. عيناها واسعتان وفمها ملحّم كما تشتهيه أنت وأنا وأيّ رجل. ولكنّه يراها دميمة. خالي يطلب البنات الجميلات ويجدهنّ دائمًا دميمات. أقطع سبعين كيلومترًا لأجلب له أجمل فتاة في المنطقة. ولكنّه يراها دميمة دائمًا. بدل أن يتفحّصها يتفحّص الجدار وبدل أن يشمّها يشمّ الجدار. . . ولا حول ولا قوّة إلّا بالله. وامرأتي تتوجّع ولا أدري عمّ سيسفر وجعها. أتمنّى أن يكون الآتي ذكرًا. بعد سبع بنات إحداهنّ. . . إن شاء الله تعالى. قبل أن أغادر المكتب أسمعه يقول لي أن أعيد البنت في الغد من حيث أتيتُ بها. ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

ثم لمّا رجعت وجدت بابا علي قد عاد. سألته هل مات. قال إنّه مات. ثم سألته هل ما زال يتنفّس كما يسمّونه فقال إنّه لا يزال يتنفّس.

ثم قلت ودابا اجلس والعب.

ما لاعبش.

غادي نْخليك تربح المرّة الجاية.

المرّة الجاية نهبطو بجوج.

العب دابا.

وما تحكيش ليا على خالك.

العب.

ولا على مرْتك اللّي غادي تولدْ.

٥

رواية زيــنة

(الحـادية عشرة ليلاً)

I وها أنا من جديد في الطريق

على متن حافلة التاسعة التي تأتي من فاس والتي وصلت بعد العاشرة. أراجع في خاطري كلّ المرّات التي ذهبت فيها للبحث عن عزيز. هل سيكون هذا السفر سفري الأخير؟ وفي نهايته، في نهاية هذا الليل سأراه؟ الظلام خارج الحافلة وداخلها. أرى بعض الظلال تتحرّك في الممرّ بين صفّي المقاعد وبين الفينة والأخرى أسمع همهمة مسافر يحلم. الركاب نائمون، مطمئنون إلى أنّ سفرهم لا يهم أن يكون الأوّل أو الأخير، مرتاحون إلى أنّهم آتون من مكان ويقصدون مكانًا آخر ولا يهمّ أن يعودوا إلى المكان نفسه أو لا يعودون. لا يأبهون للحرارة داخل الحافلة ولا بالجوّ خارجها. يبدون مرتاحين. أغلبهم سيكون مسافرًا من أجل ورقة إداريّة أو لزيارة عائليّة أو لقضاء عطلة. على وجوهم علامات المستقبل الهادئ الذي ينتظرهم. ليسوا متعجّلين ولا قلقين. مهما حاولت فلن أستطيع أن أكون مثلهم. ولكنّهم لا يعرفون. وهذا أحسن.

بم يحلم المسافر؟ وهل سأحلم إن أنا نمت؟ أتساءل إلى أين هم ذاهبون؟ لا شيء يدلّ على أنّهم يقصدون موسم الزواج. لا غناء ولا رائحة حنّاء ولا فتاة تضحك ولا امرأة تبكي. وهل هم مهتمّون إلى هذه الدرجة بقصّة الزواج حتى يركبوا حافلة الليل المتأخّرة عن موعدها؟

وماذا تفعل أختي ختيمة في هذه الأثناء؟ حان وقت الإغلاق. ولا بدّ أنّ هناك واحدًا أو اثنين يطلبون زجاجتهم الأخيرة. يصيرون كالأطفال هؤلاء السكارى في آخر الليل. ثم أتساءل هل يوجد شخص في هذه الحافلة، رجل أو امرأة يقصد المكان نفسه الذي أقصد؟ شخص يبحث مثلي عن زوج أو أب أو ولد اختفى مدّة عشرين عامًا. الرجل الذي جاء إلى البار قد يكون طرق أبوابًا أخرى. طرق بابين آخرين أو بابًا واحدًا على الأقلّ. إذا كان قد تكلّف كلّ هذه المشاقّ والمخاطر فمن أجل كلّ المخطوفين. أو بعضهم. ما رأيك؟ أنا متأكّدة أنّ هذا الشخص موجود في الحافلة. ربّما إنّه نائم الآن في واحد من هذه المقاعد. وبم يحلم؟ ربّما إنّه لا يحلم لأنّه جزء من حلمه. أمدّ عنقي لأتعرّف على هذا الشخص الذي سيقودني إلى القصبة ولا أرى أحدًا. ثم أتلفت قليلاً لأرى السائق ولا أراه. أتفرّج على الليل من زجاج النافذة. هدير المحرّك دليلي على أنّنا نسير. أرى العجلات في خيالي وهي تدور وتبتلع الطريق والليل، تبتلع كلّ شيء أمامها. نطوي الوقت دقيقة دقيقة. أسترخي على هدهدته. قمر صغير معلّق في الفراغ يسابق الحافلة. أنا والقمر الصغير نسير في الاتّجاه نفسه. أحيانًا تقف بيننا سحابة ولا تحجبه. والقمر يسابقنا وأحيانًا نسابقه. مشغول هو الآخر بالطريق وبالساعات التي لا تمرّ. يتساءل هو الآخر كم بقي منها ليطلع النهار وينام. وأتصوّر روائح لا أشمّها. روائح التراب والنبات والحيوانات المختلفة التي تستهويها حياة الليل. أشعر بتحسّن كبير بعد توتّر الساعات الفائتة. لا أعرف السبب ولكنّني مرتاحة داخل جلدي بشكل غريب. ثم كما في الحلم ظهر أمامي عزيز، في كسوة الطيّار التي ظللت لا أراه بدونها. شابًّا كما كان. أو كهلاً كما صار. ودائمًا بكسوة الطيّار الجديدة ذات الأزرار المذهّبة.

قد أكون غفوت لأنّني وأنا ألتفت جنبي أجد أنّ المقعد أصبح مشغولاً. لم أجرؤ على الالتفات أكثر لأرى من يشغله. أستطيع أن أرى بطرف عيني أنّه رجل. وأنّ على ركبته كيس بلاستيك. وأنّ ركبته لا تهدأ عن الحركة. وأنّ كيس البلاستيك يحدث خشخشة مزعجة بفعل اهتزاز الركبة. أضع جبهتي على زجاج النافذة أتأمّل الليل يجري في الخارج لأنساه. وأنسى ركبته وخشخشة الكيس ولكنّه يهتزّ دون توقّف. كما لو كان به يضبط إيقاع سفره. زجاج النافذة بارد. من خلاله أراقب الظلام في الخارج وأقول ياه ها أنا مسافرة مرّة أخرى. إذا استمرّت الحافلة على الوتيرة نفسها فسأصل عند الفجر. لو تصوّرتني قبل شهر، مستقلّة الحافلة، أضرب الطريق وحدي، مرّة أخرى، مسافرة هكذا ليلاً في حافلة لا أعرف فيها أحدًا، إلى مكان لا أعرف فيه أحدًا لما كنت صدّقت. نسيت هذه العادة. منذ أربع سنوات على الأقلّ لم أغادر آزرو. أفكّر في كلّ هذا كي أنسى الرجل وكيسه البلاستيكي. ولا أنساهما. وأقول في خاطري إنّ رجلاً مثله لا يمكن أن يقصد موسم الزواج. رجل مضطرب الحال ولا يحمل غير كيس من البلاستيك لأنّ الخبر دهمه كما دهمني. وتلقّف أوّل شيء عثرت عليه يداه حتى لا تفوته الحافلة. ربّما إنّه الشخص الذي أبحث عنه. وقد يكون الرجل نفسه الذي جاء إلى البار إنّما بدون نظّارات ولا جلباب ولا جذري. أو أحدًا مثله. وأتصوّره ظلّ يجري وراء ولده المفقود. وأتصوّر الأبواب التي طرق والغابات التي عبر. والأيادي التي باس. أسمعه يطلق تنهيدة عميقة فأتلفّت جهته. كما لو كنت لا أنتظر غير تنهيدته كي أتلفّت. انتبه الرجل إلى أنّ عيني على ركبته التي ازدادت وتيرة اهتزازها فقال إنّها ستهدأ بعد قليل. إنّه فقط نسي أن يأخذ الدواء في وقته. أمسك بركبته وضغط عليها بقوّة فهدأت. هدأت تمامًا. وكأنّما شعر بالراحة نفسها هو الآخر فتنهّد

تنهيدة أخرى طويلة. ثم سمعته يقول إنّه تنقّل من حافلة إلى حافلة منذ الصباح لأنّه قادم من سلا. سكت عن الكلام لحظة ثم سألني لماذا لا أسأله ماذا كان يفعل في سلا. وردّ على سؤاله إنّه آت من مستشفى الرازي، مستشفى الأمراض العقليّة. جذب من تحت مقعده زجاجة ماء وأفرغ نصفها في جوفه. وبينما هو يفعل كنت أنظر إليه ولكنّني لا أرى غير ظلال ملامحه. لا شيء يدلّ على من يكون وإلى أين هو ذاهب. هذا الصباح كان هناك، في المستشفى. التفت جهتي هذه المرّة ولا أعرف هل كان ينظر إليّ أم إلى الخارج: أنت لا ترين وجهي في الظلام ولكنّني رجل هرم، كبير جدًّا في السنّ، تجاوزت الثمانين. لا أرى وجهه فعلاً. عيناه تبرقان في الظلام. الجيران الذين اعتنوا به في السنوات الماضية تعبوا منه. وعنده ثلاثة عشر ولدًا لم يقبل أيّ منهم أن يؤويه في بيته. الأولاد! نسوه. تجاهلوه. هل أعرف لماذا؟ لأنّ الأولاد يتبعون دائمًا أمّهم. المظاهر خدّاعة. لا يوجد آباء. لا يوجد غير الأمّهات. الواقع هو هذا والسلام. العائلة، كذبة من أوّلها إلى آخرها يقول وهو يتنهّد. لا توجد لا عائلة ولا هم يحزنون. العائلة هم الآخرون الذين ظللتَ تمرّ بهم في الشارع ولا تسلّم عليهم. تلتقيهم على السلّم ولا تسلّم عليهم. الآخرون الذين لم ترهم في حياتك أو رأيتهم مرّة أو مرّتين. الآخرون جميعًا ما عدا الأولاد.

ولماذا ذهب إلى المستشفى؟

هكذا مجرّد فكرة. كي يحصل على الأكل والمبيت. أو كي يجد عائلة. ولكنّهم منعوه من الدخول.

هل يعني أنّه لا يقصد أيّ مكان؟ هل يعني أنّه لم يفقد أحدًا في حياته؟ عدا أولاده الذين طردوه. قد يكون ذاهبًا وراء أخ أو قريب. كما لو كنت لا أزال أراود بعض الأمل سألته عن وجهته. في هذه الأثناء

بدأت بعض الأضواء تنفذ من النوافذ. فبدأ الركّاب يتحرّكون محدثين جلبة كبيرة من حولي. وعلا صياح رضيع. واشتعل الضوء داخل الحافلة. وكثر الهرج وبدأوا يتسابقون في الممرّ قاصدين الباب. كلّ هذا حدث دفعة واحدة وبشكل مفاجئ. وكنت أقول إن أنا تطلّعت إلى وجوههم فإنّني سأمسك بآثار أحلام لا تزال تسبح على أديمها. لا، وجوههم لا تعبّر عن شيء محدّد، ربّما التعب أو الجوع أو قضاء حاجة ملحّة. حتى الراكب القادم من مستشفى الرازي بدا متعجّلاً. غادر مقعده دون أن يردّ. لاحظت أنّه يلبس معطفًا ثقيلاً باليًا وأنّ قبّعة من الصوف تحجب رأسه. عند ذاك فقط قال السائق نصف ساعة استراحة. المطعم والساحة أمامه مضاءان بأضواء ملوّنة وكثيرة. حول الحافلة ظهرت فتيات صغيرات لا أدري من أين خرجن. فتيات ضامرات وعاريات ويشحدن ماء من النازلين من الحافلة: لْما. لْما. يلوّحن بأيديهنّ وبها زجاجات بلاستيك فارغة. من الجهة الأخرى على ناصية الطريق فتيات أخريات يلاحقن السيّارات والحافلات العابرة وهنّ يصحن كالطيور الجائعة. ثم بدورهنّ يهرولن نحونا وهنّ يتصايحن: ماء. ماء. لْما. لْما... وبالشلحة: أمان. أمان... أو بلغات أخرى: أو... ووترْ. معتقدات أنّنا سيّاح أجانب.

لم أغادر مكاني. على ظهر الكرسي الذي أمامي علامات وأسماء وتواريخ. كلّ هموم المسافرين مجتمعة. خربشات أو حفر عميقة. وعلامات وحروف غريبة. من خطّها؟ رجل أم امرأة؟ أم هما معًا؟ ولأيّ غرض؟ أم هو طفل يتهجّى عالمه الجديد. أم رجل عجوز أنكره أولاده وقبل أن يغادر الحافلة ليموت على قارعة الطريق، خطّ وصيّته بهذه الحروف المستغلقة حتى لا يدخل سرّها أحد.

الركّاب أطلّوا على المطعم وعادوا إلى الحافلة خائبين. الذين

يعرفون المكان كانوا يحتجّون لأنّ السائق يقف بهم دائمًا في هذا المطعم الذي يقدّم وجبات رديئة وغالية فقط لأنّ علاقات تربطه بصاحبه. وقال آخرون تجمعهما علاقات مشبوهة... وجلسوا صامتين، عابسين. كالتلاميذ في حجرة الدرس ينتظرون السائق الذي عاد بعد ربع ساعة يتهادى في مشيته وجلس خلف مقوده في هدوء وشغّل المحرّك بيد وباليد الأخرى عضّ على الكاصكروط الذي كان يحمل...

٦

روايـة عزيــز

(الحادية عشرة والنصف ليلاً)

I بدأت تحرِّياتي باكرًا هذا الصباح

بحثا عن قطعة ورق أو كرتون أو خشب، عن أيّ شيء صلب أستطيع أن أكتب عليه أنّني لست على ما يرام. حزمة كبيرة من الأعوام مضت لم يهدأ فيها خيالي لحظة واحدة عن ترديد هذا: لست بخير. لست على ما يرام. بدأت هذا الصباح في البحث عن هذه القطعة الصلبة بمجرّد ما غرّد الطائر تغريدتين. نهضتُ بمجرّد ما أطلق صيحاته الأولى متمنيًا لي صباحًا سعيدًا دون أن أردّ. لا أردّ على تحيّات الصباح أجبته. أنا لا أكلّم أحدًا في الصباح، ولو عندليبًا. فقدت الثقة منذ وقت طويل. ثم إنّني لا أتمنّى صباحًا سعيدًا لأيّ مخلوق.

على غير عادتي استيقظت وبي استعداد غريب للعمل. عندما توقّفت عند هذه النقطة وفكّرت في المسألة بجدّ، ناسيًا العصفور وتغريداته الصباحيّة، بدا لي الأمر واضحًا: اليوم سأعثر على شيء ثمين. أثمن من قطعة ورق أنشر عليها تظلّماتي. لا أدري ما هو هذا الشيء. ما نوعه وما طبيعته وما قيمته. سأتعرّف عليه عندما أراه. أنا متأكّد من أمري. وبالأساس سأعرف أنّ هذا هو هدفي عندما تقع عيناي عليه. أو يداي. لا قبل ولا بعد. متأكّد من هذا مائتين في المائة.

ليست هي المرّة الأولى التي أجد فيها نفسي أمام هذا النوع من

المغامرات الفريدة. في استطلاعاتي السابقة عثرت على مسمار يشبه الإبرة. وقبله عثرت على فراشة نادرة. كنت آنذاك في بداية عهدي بهذا المطبخ وأجهل كلّ شيء عنه. في ذلك الصباح البعيد لم يكن في نيّتي البحث عن أيّ شيء أصلاً. لم تصر بعد إحدى هواياتي. لم أكن أعرف أنّ كنوزًا ثمينة قابعة هنا تنتظر من يقطفها. كنت جالسًا إذن، في ذلك الصباح البعيد، حديث العهد كنت بالمكان وبلياليه الطويلة والتي لا يفصل بينها ضوء نهار، أتأمّل العالم الغريب الذي من حولي، طين الجدران المسود ودعائم السقف الخشبيّة السوداء وروائح البشر والبهائم الذين مرّوا من هنا، روائح معاناة لن تنتهي. مصغ إليها. وإذا بي أرى على الجدار شيئًا يتحرّك. اقتربت. وقلت هذه فراشة. محاولاً تذكّر أشكال الفراشات التي رأيت من قبل. محاولاً تذكّر كلّ الفراشات التي عرفت في حياتي السابقة. واقتربت أكثر. ليست فراشة ما أرى. نقطتا دم اسودّتا على الجدار. دم قديم. ليس له شكل الفراشة ولا هشاشتها. ليس له رائحة الفراشة. وضعت أنفي على الجدار واستنشقت عميقًا. لا، ليست لها رائحة فراشة لا قديمة ولا حديثة. عدت إلى جلستي محبطًا، يائسًا تقريبًا، عزائي الفراشاتُ اليتيمة التي جدّدت خيالي، وإذا بالجناحين يرفّان من جديد. يرفّان رفّات خفيفة، كأنّما أدركا ما أنا فيه من يأس وحيرة. وكلّما أمعنت النظر فيهما فاضت الحياة منهما وهمّا بالتحليق. توقّعت أن تنبض الحياة على الجدار. قلت كما يقول الشماليّون مْزيوْنة هاد الحياة التي سأرى على الجدار. وفي مطبخ يشبه قطعة أثريّة منسيّة. حياة صغيرة. ولكنّها حياة على كلّ حال وتستأهل الوقوف عندها. اقتربت هذه المرّة وأنا متيقّن أنّني أستطيع أن أقرأ أفكارها. لا أحبّ الكلام في الصباح كما قلت وأكثر منه لا أحسن المجادلة مع البشر. ولكنّني أقرأ أفكار كلّ كائن يطير. كما أحسن

الإنصات إليه. كلّ حيوان يطيرون. فراشات وصراصير وخفافيش. ما عدا البشر. لأنّ البشر لا يطيرون. لا أعرف كيف أباشر الحديث مع ابن آدم ولا أعرف كيف أردّ على استفساراته وهو هكذا، عار، بلا جناحين. ولكنّه أمر آخر مع الفراشة أو العصفور الذي يحييني في الصباح وأتعمّد دائمًا إهمال تحيّاته. أو غيرهما من الحيوانات المحلّقة... لي بها علاقة خاصّة. وأفهم لغتها غير الملتبسة. اقتربت من جديد إذن. نقطتا دم. ليس هناك أدنى شكّ الآن وقد اقتربت واقتربت. لو كانت فراشة، فيها ذرّة من فراشة لسلّمت عليّ كما يفعل العصفور كلّ صباح. ولكنّها لم تكن كذلك. لهذا عندما التحقت بمكاني من جديد أدركتِ النقطتان أنّهما ليستا سوى نقطتي دم قديم وكفّتا عن التلاعب بخيالي. لم يعد لرفّاتهما وجود في عقلي. ولكنّني فيما بعد فطنت إلى شيء أساسي. وهو أنّ المكان الذي أنا فيه يختزن كنوزًا غالية، منها هذا الذي سأعثر عليه هذا اليوم وإن كنت لا أعرف بعد ما نوعه. ما عليّ سوى أن أستمرّ. أنسى قطعة الورق وأستمرّ. أنسى أنّني لست بخير وأستمرّ. منطلقًا من ذكرى النقطتين اللتين لم تكونا فراشة. ولكنّها بداية لشيء ما سأدركه في حينه.

II كما قلت هناك أشياء أخرى

عثرت عليها بعد ذلك، بعد الفراشة التي لم تكن كذلك. ذات مرّة، بعد انتظار، وكنّا في عزّ شتاء لم نر بمثل فظاعته. فصل الأمطار حلّ منذ مدّة محوّلاً المطبخ إلى بحيرة من وحل جليدي. البرد يحرق المفاصل. يقرص الأذنين أكثر من السنوات التي مضت. تحسّ به يصفّر في داخل النخاع. ربّما لغاية ما. كما يحدث دائمًا. مع مضيّ الوقت وهبوط درجة البرودة بدا لي أنّ ما أبحث عنه له علاقة بالبرد، بفصل الشتاء بشكل عامّ. وبهذا الفصل الاستثنائي البرودة بشكل خاصّ. وهذا أمر في غاية الأهمّيّة. إذا ما عثرت على هذا الشيء الذي لا أعرف شكله ولا نوعه والذي ليس حلزونًا ولا عظاية ولا فراشة على أيّة حال، وله علاقة بالمطر أو بالبرد فسأجتاز هذا الفصل مهما بلغت قساوته، بأقلّ خسارة من الفصول السابقة التي اجتزت. ثم استوقفني هذا السؤال المرعب والذي تحاشيته حتى الآن: وإذا لم أعثر على هذا الشيء فكيف سأقضي الشتاء؟ لقد سبق لي أن ربطت فكّي بحبل حتى لا تتصدّع أسناني من شدّة الاصطكاك. أكثر من هذا لقد سبق لعينيّ أن بكتا من شدّة البرد. وما أصرّح به الآن أمر مخجل لم أكن لأقوله في السابق. لم يكن ليدور ببالي أنّ ابن آدم يمكن أن يبكي من البرد. برد يخزّ الجلد

كإبر حادّة ويدقّ العظام. برد كخناجر حامية. لم أبك من ألم أو جور أو خيبة. بكيت من البرد. نعم، هذا ممكن. لا أرغب أن أحشر نفسي مجدّدًا في هذا الموقف المعيب. لهذا أمعنت في البحث. وبعد جهد وقعت يداي على جسم صلب. وحادّ. وبارد. جذبته وعدت أتمدّد على حوض الغسل لأستريح قليلاً. مسمار غريب الشكل. لست أدري من وضع هذا المسمار في ثقب الجدار ولا متى. مسمار يشبه الإبرة لم أكن أعلم بوجوده قبل أن أضع عليه يدي. لم تكن اليد على علم. ولا الأصابع ولا الذراع. لم تكن اليد على علم، لم ترق بعد إلى اللحظة المثيرة، عندما ترتعش الأصابع رعشة خفيّة وهي تدرك أنّها على أبواب إحساس جديد. كأنّما أياد خفيّة بردته وشحذته وجعلت في طرفه الثقب المناسب. ووضعته في طريقي عندما أكون في أشدّ الحاجة إليه. عدت إلى الحوض إذن وأنا أتأمّل قطعة الحديد النادرة ولم أنتبه ويداي تجذبان خيطًا بارزًا من الغطاء وتضعان طرفه في سمّ الإبرة وتنسجان نسيجًا لا أدري ما هو. ولا تعلم اليدان ما هو. لا أنا ولا فكري، لا يداي ولا عقلهما يدركان ما يحيكه الخيط. بدون دهشة استوت بين يدي قبّعة. حينها أدركت حاجتي إليها. إلى هذا النوع من القبّعات التي كانت مرسومةٍ في خيال يدي قبل أن تتعرّف عليها ذاكرتها. لن تصطكّ أسناني هذا الشتاء. لن أبكي هذا الشتاء. لن أحتاج إلى حبل لربط فكّي حتى لا ترتطم الأسنان بعضها ببعض محدثة كارثة أنا في غنى عنها الآن. أدركت مرّة أخرى أنّ المكان يزخر بأشياء قيمتها أكبر من بقع دم الأشخاص الذين ماتوا قبلي في هذا المطبخ. ومن الفراشة. قيمتها لا تقدّر.

III جلست أعدّ نبضات إصبعي

كما كنت في السابق أعدّ قطرات الماء التي تسقط من السقف. تاك تك. تاك تك. تاك تك. تاك تك. تاك. مضى من الليل إحدى عشرة نبضة ونصف. الألم ينسج شبكته. تاك تك. تاك تك. تاك تك. تاك تك. تاك تك. تاك. مضى من الليل إحدى عشرة نبضة ونصف. كم بقي من نبضة حتى يتمّ فصل الآلام دورته؟ ولكنّه ألم لا يخرج عن دائرة الاعتياد. واستمررت أتعجّب وأتساءل كيف يحدث كلّ هذا العجب في مطبخ من ستّة أمتار مربّعة؟ هل هو مطبخ فعلاً؟ دعائم السقف الخشبيّة سوداء. رائحة الاحتراق لم تغادره. وطينه يوحي بأنّه جزء من جناح قصبة قديمة. مهجورة. الأرضيّة محفورة وبها أخاديد، تنبعث منها رائحة روث البشر. بعد سلسلة نبضات لم أحصها كاملة انتبهت إلى أنّني لم أتجاوز عتبة الرغبة في الحصول على قطعة ورق شغلتني منذ الصباح. باشْ غادي نبْدا؟ قلت، عندما فكّرت في استئناف البحث. من الجهة الشرقيّة حيث الباب؟ أم الجهات الأخرى حيث الجدران وجغرافيّتها الغريبة وتاريخها الشاذّ؟ وهذه تجربة تكون دائمًا جديدة بالنسبة لي. بنوع من التوجّس أوّلاً بدأت. كما في الغابة. بنوع من الريبة. سيبقى هناك دائمًا مكان لن تصله يداي. كما في أيّة غابة.

سيبقى دائمًا هناك مكان غائب لن تراه عيناك ما دمتَ لن تسير في كلّ الاتّجاهات في الآن نفسه. محكوم بالخطّ الواحد. بالطريق الواحد. وعليك أن تختار. أن تقامر. إمّا هذه الجهة أو تلك. قد تربح أشياء وقد تخسر أخرى. قد تخسر كلّ شيء. تبدّد طاقتك وتعود خاويًا. لستَ حرباء حتى ترى كلّ الزوايا في الآن نفسه. لست أفعى الأساطير حتى تمدّ رؤوسك السبعة لتفيض على كلّ الجهات. والعتمة شديدة حولي فوق كلّ هذا. معزّز فقط بتجاربي السابقة: الفراشة. ثم المسمار. ثم القبّعة. تجاربي التي كلّلت كلّها بنجاح غير متوقّع. بدأت من أقرب مكان أعرف. الجدار الملاصق لحوض الغسل حيث أرقد. لا يحتاج الجدار الملاصق للحوض إلى مجهود كبير. أستطيع أن أعبر تعاريجه حتى وأنا جالس على ركبتيّ. ولن أحتاج إلى أكثر من نصف ساعة لتجد أصابعي نفسها على أطرافه. لم أعثر على شيء في هذه الجهة. الأمل يبدأ دائمًا هكذا، بخيبة أمل صغيرة تمدّك بالتفاؤل الضروري لتذهب أبعد.

أمّا الجهات الأخرى فلا تزال عذراء. لم يتقلّص جهلي بها منذ عثوري على الفراشة والمسمار والقبّعة قبل سنوات. ما زلت أجهل عنها الكثير. مرارًا وقعت في هذا الفخّ. فخّ الابتعاد عن الحوض. كلّما ابتعدت عنه وتوغّلت عميقًا في تضاريس المطبخ إلّا وشعرت بإحباط شديد. ولكنّني هادئ الليلة. ومتفائل. على بعد خطوة من نهاية ما. المكان عامر بالنهايات. على بعد خطوة عثرت على صدفة من نحاس مندسّة بين ثنايا الطين. لم أهتمّ بها. لم أتساءل ساعتها ماذا تفعل قطعة نحاس في الطين؟ ولكنّها بداية حسنة. مشجّعة. تقدّمت أكثر. وقعت يدي على شيء صغير مدوّر ناعم الملمس. إنّه حلزون. نعم، نحن في شهر ساخن، ربّما في أحلك لحظة فيه، والحلزون حيوان شتوي. هل

وجوده في هذا الوقت له معنى ما؟ لم أقف عند السؤال إلّا بالقدر الكافي لإدراك شيء آخر. بعد ساعتين من البحث تساءلت: هل ما أبحث عنه يستدعي كلّ هذا العناء؟ هل أتراجع ما لم أزج بكلّ قواي في عمليّة البحث المضنية وأعود قرب حوض الغسل؟ وماذا لو كان ما أبحث عنه له علاقة بعضّة الفأر والخراب الذي أحدثته في قدمي؟ وهذا السؤال شجّعني أكثر على متابعة بحثي. ثم توقّفت من جديد بعد المجهود الذي قمت به للعثور على السؤال المناسب. ذلك أنّني سمعت العصفور من جديد. ثلاث تغريدات. وهذا يعني في لغة الطائر أنّ الطبّاخ قادم. فعلاً. هذا صوت حذائه. توقّفت عن البحث عند هذا الحدّ. كأنّما منحت نفسي مهلة إضافيّة للتفكير. بانتظار أن يمرّ. لا أعرف وجهه ولكنّني أعرف عينه التي بها يطلّ من شقّ الباب. كلّ العيون لا تتشابه. وإن كنت لا أستطيع أن أعرف هل هي عينه اليمنى أم اليسرى. كما لا أعرف هل هو أبيض أم أسود. هل هو عسكري أم طبّاخ في القصبة أم حارس ليلي بلا رتبة. هذه إطلالته الثانية هذا اليوم. بعد إطلالته الثالثة سأقول إنّنا تجاوزنا منتصف الليل. أعدّ الآن وقوفه خلف الباب. عشر نبضات. عينه لا ترفّ. أعدّ كم سيستغرقه صمودها وهي خلف الباب تنظر إلى داخل المطبخ دون أن ترفّ. استمرّت العين تحدّق في العتمة التي أسبح فيها. ظهور الرجل في هذا الوقت واستمرار عينه في تحرّيها المجّاني يتيح لي فرصة أن أراجع مشاقّ البحث الذي بدأت باكرًا. وأن أفكّر في احتمال التراجع. لم يفت الوقت بعد. أسمع عينه تتنفّس خلف الباب ويزداد تردّدي: نُكمّلْ ولا نوقف؟ بالخطوات الثقيلة نفسها كما في الوحل غادرت عين الرجل ثقب الباب دون أن ترفّ.

وعدت إلى بحثي. كنت قد ابتعدت كثيرًا عن الحوض ولا مكان

للتراجع. بدا لي هدفي واضحًا بعد زيارة الطبّاخ. وبشكل غريب. لأوّل مرّة منذ استيقظت. فجأة بدأت أرى. كأنّ مصباحًا أضاء. لا أستطيع تفسير ما حدث. لا يتعلّق الأمر بضوء مصباح. وإنّما بإنارة ثانية. باطنيّة إذا شئتُ التعبير بطريقة مخالفة. كما يحدث عندما تغمض عينيك وترى حياة كاملة تنبض تحت جفنيك ولا تدري أين هي بالضبط. ولكنّها قناديل وهّاجة تضجّ بما يشبه نورًا أسود. أرى الآن نتوءات الجدران. والحفر. وخيط الماء الذي لا يتوقّف. وبقع الرطوبة الأبديّة. خضراء كما في الربيع. كنّا في بداية حرّ أعلن قساوته قبل الوقت. أو نهاية شتاء. رائحة طين الجدران قويّة. رائحة طين وتبن وعرق وبول وبراز. لمست جسمًا طويلاً يبدو من الملمس أنّه عظم ساق. ليست المرّة الأولى التي أعثر فيها على عظام أشخاص دفنوا في الجدار. لهذا لمست أصابعي العظم دون استثارة زائدة عن الحدّ وتحرّكت أبعد. وديان صغيرة وجبال وأنهار. تعرّى الطين في هذه الجهة. وظهرت عظام أخرى للذي دفن في الجدار. لم أخطئ الطريق. الطريق نحو ماذا. لا أدري بعد. رغم العظام التي عرّتها المياه النازلة من السقف. كثيرون مرّوا من هنا. كوّنوا جزءًا من طين البنيان. أدركت أنّني على مقربة من الهدف عندما بدأ العرق يتصبّب من كلّ جسدي. لم أشعر بمضي الوقت. حتى بدأت أسمع لهاثي. وصوت غريب يصدر عنّي كالصفير، كما لو كنت تسلّقت جبلاً عاليًا. والقلب يهتزّ. والإصبع يطنّ تك تك تك. اتّجهت سبّابتي نحو ثقب آخر. قطعة ثوب. ثياب الرجل المدفون اهترأت. صارت في لون الطين. بحيطة كبيرة جذبت طرفه. حتى لا يندثر. فكّرت في كلّ الرجال المدفونين جنبي. في الجدران. في الطين. كم مضى عليهم من الوقت؟ هل كانوا يعدّون وقتهم بالقطرات؟ أو بنبضات الألم؟ هل كانوا يضعون قبّعات مثل التي أضع عندما كان ينخر عظامهم برد

الليالي الجنوبيّة؟ سأفكّر فيهم في حينه. أمّا الآن فأتساءل هل أتوقّف عند هذا الحدّ أم أستمرّ؟ هل ما عثرت عليه يكفي لهذا النهار؟ يدي لا تهتمّ بأسئلتي. الكلام ليس من عاداتها. لا يعنيها. عبثت يدي ومعها أصابعي في قطعة الثوب. لم أرغب في التدخّل فيما تفعل. كما لو كنت أطلقت كلب صيد في الغابة. لن يذهب أبعد من الفريسة. ودون أن يفاجئني الأمر عادت وبها خاتم من ذهب. لم أدرك أنّ بحوزتي ذهبا إلّا بعد فترة. لم أدرك أنّني على باب ثراء غير مسبوق. اقتربت من شقوق الباب لأتفحّص قطعة الذهب وأفكّر في الأمر على ضوء هذه الملاحظة الأخيرة.

أفكّر في زوجتي زينة. مضى وقت لم يكن خيالي يهدأ لحظة واحدة عن ترديد ما لم أستطع قوله لها في حياتنا المشتركة القصيرة. بدأت هذا الصباح في البحث عن قطعة ورق لأكتب لها أنّني منذ فترة لم أعد على ما يرام. وإذا بي أعثر على خاتم بدل الورق. وإذا بي أرى صورتها. غير واضحة بفعل كلّ الوقت الذي مرّ. ولكنّها صورتها. كما عرفتها في زمن توارى بعيدًا. وعاد تفاؤلي الذي تلاشى. هل كان للرجل المدفون في الجدار زوجة وهذا خاتمها؟ هل كان اسمها زينة هي الأخرى؟ وهل كان يضع الخاتم على قلبه حتى لا ينسى كما نسيت؟ نسيت عادة التفكير في الأمور المعقّدة. ولكنّني أدركت. بدت لي بوضوح غامض كلّ المزايا التي سأجنيها بعد الحادثة وأدركت لأوّل مرّة أنّني على أبواب الفرج. ولأوّل مرّة أيضًا، وأنا أقلب الخاتم بين يدي، أدركت أنّني، بعد الأعوام الكثيرة التي قضيت، عامًا عامًا، نبضة نبضة، أنّني سأغادر هذا المكان حيًّا. لا أعرف متى ولا كيف. سأتعرّف على هذا أيضًا في حينه. كما تعرّفت على المسمار وعلى القبّعة. وكما تعرّفت من قبل على الفراشة التي لم تكن كذلك.

أجد صعوبة في تذكّر عنوان زينة. أكثر من هذا أجد صعوبة في إدراك أهمِّيّته. بضعة حروف وأرقام. لماذا هي مهمّة إلى هذه الدرجة؟ لم أهتمّ من قبل به ولم أر له ضرورة. كأنّما أبحث عن الطريق إلى بيتنا ولا أتعرّف عليه ولا على الحيّ ولا على المدينة. بقدر ما أحاول التملّص من التفكير فيه بقدر ما أجدني مشغولاً به. منجذبًا إليه. وبقدر ما أنشغل به أراه ينأى. كأنّما يتسلّى. وهل هذا وقت تسلية؟ وكأنّما كلّ شيء أصبح يتوقّف على العثور عليه: رقمان وبضعة حروف. مسألة حياة أو موت. لم أعرف أنّ تذكّر بضعة أرقام وحروف سيكون شاقًّا إلى هذا الحدّ. عرق بارد يبلّل جبيني. لا أدري لماذا أترك نفسي تنجرّ وراء بحث عبثي ومضن إضافي. نوباتي التي أصبحت متواترة تبدأ عادة بعرق بارد يغمر وجهي وباقي أطرافي. شيئًا فشيئًا. لن أجني من وراء بحثي شيئًا. من قال إنّني لن أجني شيئًا؟ كيف تريدني أن أغادر هذا المكان دون عنوان؟

إحساس يشبه النعاس. ثقل في الجفنين وارتخاء على صفحة الجبين كفعل المخدّر. وضعت قطعة الثوب على ركبتي. لن أرتاح ما لم أر فيه عنوان بيتنا. لن أعود إليه ما لم أجده. كلّ المجهود الذي بذلت منذ الصباح يتوقّف على هذا. كأنّما أنا أمام حاجز أخير وعليّ أن أجتازه بنجاح. أحاول أن أعثر على حرف أو رقم أو صورة للبيت الذي جمعنا بين رماد ذكريات اندثرت. إذا أنا عثرت على الحرف الأوّل. وسط شبكة عنكبوتيّة من الكوابيس التي تقدّم نفسها على أنّها ذكريات. ها هو العنوان ينسج نفسه. ولكنّه الآن عبارة عن خيط رقيق لا يكاد يظهر وسط الشبكة. أكاد أحيانًا أن أمسك بطرفه الأوّل. حرف أم رقم؟ أراه يكبر. يكبر. وأنا أجذب. أجرّ الخيط فلا يتحرّك قيد شعرة. ثم يتحرّك بسرعة مدوّخة وإذا بي أمام حرف لا يظهر غير طرفه. أو رقم

مبعوج لا يدلّ على بداية عنوان معقول. أو حرف يأخذ شكل رقم أو رقم يظهر على أنّه حرف. تجمّعت الحروف أخيرًا. ولكنّها تعدّت الحدّ المقبول. كما لو كانت تلعب. تكاثرت وصارت تتدحرج كالكرات الواحدة تلو الأخرى. أرقام وحروف مختلطة بعضها ببعض بشكل مضحك تسقط فوق رأسي. ثم تتدحرج بسرعة مبالغ فيها على الحوض ثم على الأرضيّة المحفورة. كما لو تكون فتحت فوق رأسي شلّالاً. تعوم في برك الوحل. ثم يصبح للحرف صوت كالهدير تارة وتارة كالنباح وتارة أخرى كمواء قطّة جائعة. كأنّما أنا على باب أزمة جديدة من أزماتي الفتّاكة. هل كلّ هذا يحدث خارج رأسي؟ لا سبيل إلى التأكّد. لا، إنّه يعطي انطباعًا كهذا حتى تكون مداهمة المرض أشدّ فتكًا. لم أتقدّم خطوة واحدة والمرض يهدّد. والساق تزداد انتفاخًا. أصبح تهديد الألم حاضرًا أقوى من السابق. شيئًا فشيئًا تقلّصت السرعة وخفّ الهدير والشلّال أصبح نهرًا يسيل في وداعة وانتشرت على دائرة خاتم المدفون في الجدار حروف وأرقام. تمدّدت على الحوض. لباسي مبلّل كأنّما غطّستها في بركة ماء.

عندما ظهر الطبّاخ خلف شقّ الباب رفعت إصبعي وبه الخاتم وأنا أتصوّر أنّ عينه تتساءل ما هذا الشيء الذي يلمع في طرف يدي. توارت العين عندما التفتُّ. قلت إنّه تراجع ليراقبني بشكل أفضل وليحدّد ما الذي عليه أن يفعله. أسمع تردّده: هل يدخل أم لا يدخل؟ لوّحت بالخاتم في طرف إصبعي فظهرت العين في الشقّ من جديد. ثم أزّ الباب أزيزًا عنيفًا. أعقبه صمت طويل. صوت الطبّاخ رقيق، حادّ. صوت نسوي. هل هو طبّاخ فعلاً؟

آشنو عندك تمة؟

خاتم ديال الذهب.

صمت أطول من الأوّل، كأنّما ليفكّر في معنى الكلمة. يردّدها بينه وبين نفسه: خاتم... خاتم ومن ذهب؟ أعتقد أنّه ما زال ينصت إلى رنين الكلمة في داخله، ثم يأتي صوته الحادّ من جديد: منين جاك؟

بْغيتيهْ؟ خودو.

ناخدو؟ علاش؟

ما عندي ما نْديرْ بيهْ.

لماذا نصبت الخاتم أمامه ولماذا قلت له أن يأخذه؟ بدا لي أنّه التصرّف المعقول الذي يمكن أن يقوم به كلّ من عثر على خاتم ليس له. اختفى الخاتم بين يديه مدّة طويلة حتى قلت إنّني أفلحت. وتصوّرته وهو يضع الخاتم في إصبع زوجته في الساعة الأولى من الغد. ثم عاد الخاتم بين يديه كقطعة حديد حارقة. وعاد معه الصوت، مختلفًا، خشنًا، كأنّما امتقع لونه من شدّة الغضب، واصطبغ بخشونة الخوف.

لا، ما ناخدوش.

علاش؟

خالي غادي يقتلني إيلا شافو عندي.

ما غاديش يشوفو.

بغيتي تخرج عليا؟

رمى الخاتم فوق الحوض وتراجع هاربًا عند الباب. لا. لم تفلح توسّلاتي الصامتة في إقناعه. ربّما اعتقد أنّه سيكون مضطرًّا إلى أن يقدّم لي خدمة مقابل الذهب. دفع الباب بعنف وعبرت خطواته الممرّ ثقيلة، منفعلة، محبطة، يائسة هي الأخرى.

٧

رواية ختيـمة

(الحادية عشرة والنصف ليلاً)

I جالسة خلف الكونطوار،

في الوضعيّة التي تركتني عليها زينة قبل أن تغادر البار. أنظر إلى عبد السلام ينقّل الكراسي إلى الزاوية ويضعها بعضها فوق بعض أو فوق الموائد. شاخ عبد السلام وضعف سمعه وأصبح يكشط الأرضيّة وهو يجرّ نعليه فوق الزليج. لا أذكر متى اكتسب هذه العادة. البار فارغ الآن. أنتظر عودة الرجل. زينة تجهل أنّ صاحب الجلّابيّة تكلّم معي قبل أن يقصدها. قلت له لست مغفّلة حتى أعطيه ألفي درهم مقابل خبر ظللنا نجرّبه طيلة ثماني عشرة سنة. قال ليس في نيّته أن يأخذ مالاً. شكله لا يدفع إلى الثقة أو الاطمئنان. قلت له ولماذا يخاطر بحياته من أجل أشخاص لا يعرفهم. فتحت له زجاجة ووضعتها أمامه. وهمست له اذهب إليها وأخبرها، أمّا أنا فلا أستطيع أن أترك البار فارغًا وأذهب بحثًا عن شخص اختفى منذ ثمانية عشر عامًا وزيادة. ترك الزجاجة مفتوحة وقصد زينة في الجهة الأخرى من الكونطوار.

ليس لديّ ما أقوله أكثر من هذا. شارفت على الأربعين وأقول الحمد لله اجتزت إلى الضفّة الأخرى بأقلّ خسارة. كلّ واحد يأتيه رزقه حتى باب أنفه فإمّا أن يقبض عليه أو يتركه يذهب إلى غيره. وأستطيع أن أقول أيضًا دون خجل إنّ عبد السلام هو الذي فتح فكري. قال لي هذه

فرصتك. مدام جانو شاخت وهي بحاجة لامرأة تعتني بها. وهي تكره أولادها وأحفادها لأنّهم يزورونها كلّ ستّة أشهر ليروا هل ماتت أم لا. ينزلون ببيتها ليتشاجروا حول الإرث. وعندما تحتجّ يسبّونها ويتركونها تعوم في نجاستها. وهكذا اعتنيت بها طوال الخمس سنوات الأخيرة من عمرها. وأتساءل يوميًّا هل تدرك العجوز لماذا أزيد هذا الهمّ على همومي. أهيّئ طعامها وأخرجها في نزهات قصيرة في الغابة عندما كانت تقوى على المشي. ثم عندما عجزت تمامًا عن النهوض صرت أغسل نجاستها ثم أفرك جسدها كطفلة صغيرة مدلّلة وأنا أقول متى ستّتخذ قرارها. أسدّ أنفي وأحاول ألّا أبدي اشمئزازي وأقسم بالله أنّني كنت سأتقيّأ عليها ذات مرّة من قوّة الرائحة العفنة التي تطلع منها. ولكنّها فرصتي كما قال عبد السلام. وهي لا تأتي كلّ يوم. أحاول أمامها أن أبدو منشرحة كما لو كنت أخيط جوربًا أو أسلق بيضة. وأنا في خاطري أقول متى سينتهي هذا العذاب. والوقت يمرّ. والعائلة الفرنسيّة اختفت بالمرّة. إنّها في فرنسا ومن هناك تراقب وترقّب. لا نسمع إلّا صوت واحد من أفرادها في الهاتف كلّ أربعة أو خمسة أشهر. هل ماتت العجوز؟ لا لم تمت بعد. أنا أيضًا أترقّب وأنتظر. أين هي مدام جانو الجميلة التي كانت تستقبل زبائنها بالضحكة في عينيها ووردة حمراء في شعرها. كمشة من العظام صارت. سقط شعرها وسكن العمش عينيها الحالمتين وتكمّشت جلودها وتدلّت من كلّ جهة فيها. لم تصل إلى نهاية الرحلة بعد. ولكنّها تقترب. ولا شيء يدلّ على أنّ مصيري سيتغيّر. واستمررت في عملي لأنّها فرصتي ويجب ألّا أندم على يوم واحد أهملتها فيه. وهكذا ذات صباح طلبتْ منّي مدام جانو أن ألبسها ثيابها الجميلة التي كانت ترتدي في أيّام شبابها الغابر. كسوة بيضاء طويلة بالدانتيلّا وشال أزرق ومروحة. سرّحتْ شعرها بنفسها ووضعت على

شفتيها أحمر شفاه قانيًا. وجلست تنصت إلى أغاني جورج بْراسانسْ. كأنّما استعادت عافيتها. وفي العاشرة حضر الموثق الفرنسي وكتب وصيّتها الأخيرة. قبل أن تموت بأسبوع واحد. وأنا أقول إنّها كانت فرصتي طرقت بابي في الوقت المناسب. لا قبل ولا بعد. هذا ما أقول دائمًا. كلّ امرئ يولد بفرصته. إنّما يحدث في أحيان كثيرة ألّا يتعرّف عليها أو ألّا تتعرّف عليه. هذا كلّ ما في الأمر. هل كنت سأتعرّف عليها لو لم يكن عبد السلام حاضرًا يجرّ رجليه في البار ويستلذّ بصريره المزعج طيلة أربعين عامًا؟ كأنّما دوره الوحيد في الحياة هو أن يفتح فكري. وغير هذا ما هو دوره في النهاية؟

نعم، ختيمة هي أنا. لا يمرّ يوم لا أفكّر فيه في الطريق التي عبرنا أنا وأختي زينة حتى وصلنا إلى هنا. وحدنا دون مساعدة من أحد. شغلي الوحيد الآن هو البار. حياتي كلّها مركّزة عليه. كيف أسيّره. وكيف أتجنّب مشاكل السكارى والعسكر. وكيف أحدّ من جموح الكوميسيرات الذين يريدون أن يستولوا عليه بهذه الحجّة أو تلك. عبرت كثيرًا من الشراك ومستعدّة لخوض الحروب التي أقدر على خوضها من أجل الحفاظ عليه.

انتهى عبد السلام من رصّ الكراسي والموائد. يجلس على كرسي بالقرب من الباب ويخرج علبة النشوق. يمدّ سطرًا من الطابا على ظهر يده. يستنشقه في دفعتين. يمسح منخاريه في خرقة متّسخة. معًا ننظر إلى الليل بالخارج. انقطعت حركة المارّة. يظهر صاحب الجلباب المخطّط في إطار الباب وأتذكّر زينة. يتقدّم إلى الكونطوار. يغادر عبد السلام كرسيّه. أرسل عبد السلام إلى المطبخ. يقول الرجل، كأنّما يتابع حوارًا كنّا بدأناه، إنّه التقى بعزيز قبل ثلاث سنوات عندما كانا معًا في القصبة نفسها. وقد أعطاه عزيز رسالة وهو يراه يجمع أشياءه، معتقدًا أنّه

سيغادر السجن. إنّهم فقط نقلوه هو وجماعته إلى سجن آخر في سكورة. وبقيت الرسالة معه. ثم يخرج من تحت جلبابه طردًا متوسّط الحجم ويقول إنّه هرب هو وسجينان آخران من السجن هذه الليلة ومعه رسائل بعض زملائه وطلب منّي أن أنقلها إلى ذويهم. سألته إن كان بحاجة إلى أكل. لا ليس بحاجة إلى أكل. سألته إن كان بحاجة إلى المال. قال إنّه فعلاً بحاجة إليه. ناولته ما استطعت أن أجمع من مداخل النهار وانصرف. خرجت خلفه ولكنّ الليل كان قد ابتلعه. وجلست أمام البار أنظر إلى الظلام الممتدّ بعيدًا ثم إلى ظلّي الذي يعكسه الضوء المنبعث من الداخل. أسمع باب المطبخ وهو يفتح خلفي. ثم نعلي عبد السلام. ثم أسمع ضربات المكنسة وهي تمرّ على أرضيّة البار لتجمع ما تركه السكارى من أعقاب وفضلات أكل ومخاط وبصاق وكلام بذيء. بعد قليل سيجرف عبد السلام كلّ هذا إلى الخارج. نعم، قطعنا شوطًا طويلاً أنا وأختي زينة منذ اليوم الأوّل الذي وصلنا فيه إلى آزرو. قبل أكثر من عشرين عامًا.

II حيّ العقبة، الأربعاء، ٣ أبريل ١٩٧٢

ليل آزرو لا يشبهه ليل، روائح شجر الأرز ونبتة الشيح والنعناع البرّي تدخل حتى قاع البيوت. آتية من الجبال المحيطة. من إيفران ومن راسْ لْما. تكاد تراها وهي داخلة ثم وهي تلعب في صحون المنازل. بالأخصّ في هذا الوقت من السنة. بار اللقلاق اسم المكان الذي أجلس فيه. بار معروف. البار الوحيد في كلّ آزرو. ومنه أطلّ على الليل. متّكئة على الكونطوار وعيني خارج البار. عيناي تتعّقبان خفايا ليل نزل منذ مدّة. لا تريان الصخرة الكبيرة الواقفة عند مدخل المدينة. كأنّما وضعت هناك لتستقبل الداخل إليها وتودّع الخارج منها. عيناي تتصوّران الصخرة وطريق مكناس في الجهة الأخرى، صاعدة جهة الغابة، وبين الصخرة والطريق حيّ العقبة حيث نسكن أنا وأختي زينة. هو ليس حيًّا، زنقة طالعة، طالعة بشكل مفرط، طالعة نحو السماء، كأنّما ستنكبّ عليك وأنت تتسلّقينها، ولكنّها أشهر زنقة في آزرو. لا أحبّ الصيف وأحبّ الربيع في آزرو. والربيع استوى منذ أسابيع. الليل ينزل من الغابة بكلّ روائحه الربيعيّة. لا تزال هناك أضواء مشتعلة. متفرّقة. في نوافذ معدودة وخلف بعض الأبواب. أغنية تصدح خلف فَدْريش نافذة. ثلاث نساء جالسات على عتبة بيتهنّ يدخّن كازا سْبورْ ويحكين ما جرى لهنّ مع زبائن النهار. ثلاثة جنود سكارى يصعدون حتى رأس العقبة ويعودون. يتشمّمون رائحة آخر

امرأة. آخر فريسة. الطرائد عادت إلى جحورها. والحياة في العقبة هدأت من فترة. فتاة هناك عند باب بيتها تمضغ العلكة وتتوقّع وتنتظر وتأمل في آخر زبون. الجنود الثلاثة يمرّون ولا يرونها لأنّها اختفت خلف الباب عندما سمعت وقع أحذية عدوانيّة. رواج المساء اختفى منذ مدّة. وركنت نساء العقبة إلى أحلامهنّ المضطربة. أفكّر في كلّ هذا وأنا متّكئة على لوح الكونطوار، في بار اللقلاق، وأنتظر أن ينتهي جوجو من مفاوضاته مع واحد من روّاد المقهى. زبون أخير. وهو أستاذ. ويظهر في البار على رأس كلّ شهر. عندما يتسلّم راتبه يأتي إلى البار ليشرب بيرتين. بيرتان دائمًا. ولكنّها المرّة الأولى التي يطمع فيها في أكثر من بيرتين. لأنّه يتكلّم مع جوجو وينظر جهتي. مدام جانو صاحبة البار جالسة خلف آلة النقود تعدّ مداخيل النهار. رجلها مات قبل سنتين تقريبًا. كان يهوى صيد الخنازير في غابات إيفران. ودهمه أحدها ذات رحلة صيد وقتله وصورته المعلّقة حول عنقها هي كلّ ما تبقّى منه. عبد السلام أنهى عمله منذ ربع ساعة في الصالة وهو يجلس الآن أمام الباب ليأخذ حصّته الأخيرة من النشوق. والبار فرغ من زبائنه، تقريبًا. سكّيران أخيران يلحسان قاع كأسيهما حتى لا يغادرا. جنديّان هما أيضًا. ما زالا طامعين في كأس أخيرة. الجنديّان جالسان على يمين البار، وفي الجهة الأخرى جوجو الذي يتناقش مع الأستاذ وهو يمرّر يده على شعره. جوجو يمرّر يده على شعره كلّما كان يتفاوض مع أحد الزبائن. كي يحترموه، يقول. يده تمتدّ إلى شعره تلقائيًّا لأنّها تأكله عندما يتفاوض، هذا ما أقول أنا. شعره ممشوط إلى الخلف دائمًا. ولا بدّ لليد أن تعمل عملها كي يبقى شعره ممشوطًا إلى الخلف. حتى يشبه القوّاد الذي هو في الأصل. هذا كلّ شيء. أنا لم أُنْه عمل النهار. لست كعبد السلام. عبد السلام كنس البار وغسل الكؤوس وأخرج علبة نشوقه وجلس عند الباب ينتظر أن تفرغ مدام جانو من عدّ نقودها. ما زال الليل ينتظرني. بكلّ طوله. والله يعلم كيف

سأبلغ آخره. لا، لست على ما يرام. انتهيت قبل الوقت. لم أتجاوز العشرين وانتهيت. هناك حياة أخرى بعد العشرين ولكنّني لن أبلغها لأنّني لا أراها. كما لا أرى الصخرة. بسبب الليل. أو أراها ناقصة. كما لو أصبحت أراها بعين واحدة. جوجو يتناقش مع الأستاذ. هل ستعرف مسبقًا كيف ستنهي ليلتك معه؟ أو مع غيره؟ لا سبيل إلى معرفة ذلك. أو ستعرف عندما يكون الأوان قد فات. أنظر إليه وأقول إنّه لا يلبس الكسوة العسكريّة ولا يحمل أيّة إشارة تدلّ على أنّه عسكري متخفّ في لباس أستاذ لا يبرز قبّعته العسكريّة وأنيابه حتى يتأكّد أنّه في قاع الدار. هذا ما أقول لأطمئن. هذا ما لا أريد أن أقول حتى أبقى هادئة. أنتظر أن ينتهي جوجو من مفاوضاته. منذ نصف ساعة وهو يتفاوض. جوجو لا يعجبه أن تمرّ الليلة دون عمل. ولو تعلّق الأمر بزبون متردّد، كشّاش، لا يعرف ما يريد كهذا الأستاذ.

جوجو يقول إنّ المال الحلو يأتي مع الليل بالأخصّ حين يكون الزبون مدنيًّا.

نزلت مدام جانو من فوق كرسيّها العالي. حرّكت ساقيها كي يجري فيهما الدم. وجهها فقد طراوة الصباح ولكنّ الوردة في شعرها لم تذبل. تمنّت لنا أنا وعبد السلام ليلة سعيدة وانصرفت إلى بيتها فوق البار. نهض عبد السلام وأنزل الريدو الأوّل: يالاه أسيادي طلّقونا، سالينا. واتّجه نحو زرّ الكهرباء.

أعطينا بيرة أخرى قال أحد العسكريّين.

عارف القاعدة أخويا العربي.

الآخرة أ عبد السلام.

عبد السلام لم يهتمّ برده. أطفأ الضوء وبدأ بإنزال الريدو الثاني. لم يترك غير فتحة من نصف متر.

III نعم، ختيمة هي أنا

وأحبّ أن أضحك حين تضيق بي الحال. وعمري تسع عشرة سنة. نسكن أنا وأختي زينة عند جوجو منذ عامين إلى أن يفتح الله علينا. زينة بلغت الخامسة عشرة. لا تعجبني الحياة هنا في بيت جوجو القوّاد. ولا أعرف كيف ستكون الحياة في مكان آخر. ليست لديّ أدنى فكرة. قد تكون أحسن في مكان آخر. أقول هذا دائمًا: الحياة ستكون أحسن في مكان آخر. في الدار البيضاء مثلاً. الدار البيضاء هي المدينة الوحيدة التي أعرف. لم أذهب إليها أبدًا. ولكن عندما تزورنا خالتي تاجة تحكي لنا عن الدار البيضاء. ونتصوّرها أنا وأختي زينة. ونكاد نراها. وتعجبني. وأتصوّر أنّها ستعجب زينة أيضًا. خالتي تاجة تقول لنا: مْدينة باقية فيها الغفلة. ونحن نتصوّر أشياء كثيرة. لم أجرّب الحياة فيها كي أحكم. المهمّ الحياة هْنا كيفْ جهنّم والحمد لله. منذ مدّة وأنا أضع بعضًا من مالي جانبًا كي أرسل أختي زينة إلى الدار البيضاء. يجب أن تتدبّر أمرها بعيدًا عن آزرو. لا أريدها أن تبقى هنا. في جهنّم. تفلت بجلدها أقول. أختي زينة هي كلّ ما أملك في هذه الدنيا. الوالد طلّقناه. هجرناه. لا نحبّ والدنا. هذا هو السبب. والدتنا عندما انتبهت إلى أنّها بدأت تكبر اقترحت عليه أن يتزوّج. وهي التي خطبت له. وهي

التي زوّجته. حتى لا يتركها. ويوم زواجه تركها. يوم زواجه دخلت إلى المطبخ. وبقيت فيه. دخلت المطبخ ولم تغادره حتى ماتت. خشيت أن يهجرها. والنتيجة؟ من يفهم هذا الجنس؟ ولكنّني لم أغادر البيت بسبب زواج الوالد. لا. يتْزوجْ حتى عشرين. خرجت من البيت من أجل زينة. أختي زينة أعزّ مخلوق في حياتي. أعزّ عندي من أبي ومن أمّي التي ولدتني. ولا أريدها أن تتبع طريقي. سأنتظر سنة أخرى. سأنتظر حتى تكمل سنتها السادسة عشرة وأرسلها إلى الدار البيضاء عند خالتي تاجة. هذا أفضل لها. ربّما ذهبنا معًا. سيكون هذا أفضل لنا. لا أعرف ما قد تفعله في الدار البيضاء. تتعلّم صنعة. أو تلتقي بولد الحلال. المهمّ هو ألّا تتبع الطريق الذي تبعتُ. وتسقط في الفخّ الذي سقطتُ فيه. كنت في الرابعة عشرة عندما هربنا أنا وزينة. وماذا تستطيع أن تفعل بنت في الرابعة عشرة لم تغادر قريتها أبدًا؟ وفوق هذا تجرّ خلفها طفلة في العاشرة؟ أموت من الضحك عندما أراجع القصّة وأتصوّر المشهد. طفلة في العاشرة تقفز قدّامي وتغنّي كما لو كانت ذاهبة إلى عرس إحدى الجارات. لم تكن المرّة الأولى التي أفكّر فيها في الهروب. ولكن لم أفكّر أبدًا أنّني قد آخذ معي أختي. إلى أين سآخذها؟ كيفما كانت الحياة في قريتنا ستكون أحسن من تيه المدينة. أنا نفسي لم أكن أعرف لي وجهة بعينها.

والدنا هو السبب. لم أر في حياتي مخلوقًا يشبهه. لطيف مع الناس، مع كلّ الناس. إلّا معنا نحن. أنا وأختي زينة وأخي محمّد الذي يبقى في الجبل مع عنزاته الثلاث من الفجر حتى المغيب. وأمّي عندما كانت حيّة. لا يرضى عن أيّ عمل نقوم به. نحطب ونعجن ونسقي ونعدّ الأكل ولا يعجبه شيء. لا يقنعه شيء. عندما نكون أنهينا كلّ أشغال البيت والتي تستمرّ حتى وقت متقدّم من الظهيرة يرسلنا

لنحطّب للجيران. نعم للجيران. ويقول إنّه بهذا يعمل عمل الخير. ليس هو من يشقى. ويدمي يديه وقدميه. والجيران يدعون له في صلواتهم. يقولون السي صالح رجل صالح. لا يوجد له مثيل في عمل الخير. الله يعمّرها دار، يقولون. نعود أنا وزينة من الغابة وثيابنا ممزّقة وأذرعنا مدمّاة والشوك تسلّل ما بين الثوب والجلد ويخزّنا كالمهاميز الحادّة عند كلّ خطوة. ويقولون السي صالح رجل صالح. ولا يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ. في الليل، في الثالثة صباحًا نسمعه يصيح من قاع الغرفة الأخرى، من قاع ظلام غرفته: ختيمة، سَدّيتي الباب؟ إيه أ الوليد، سَدّيتو. ثم بعد ربع ساعة أخرى: ختيمة، اعْطيتي للحمارة تشرب؟ إيه أ الوليد، اعْطيتها تشرب. وهكذا حتى الفجر. تقول إنّه لا ينام. أو كما لو أنّه يتعمّد ألّا ينام كي ينغّص علينا القليل من الوقت الذي نستطيع أن نستريح فيه قبل أن نبدأ مشاق نهار آخر. ويقولون مع ذلك السي صالح رجل صالح. لا يوجد له مثيل عندما يتعلّق الأمر بعمل الخير.

ذات ليلة جمعنا القليل من المتاع الذي نملك وخرجنا.

IV أمّا في تلك الليلة

عندما دخلنا إلى الغرفة وبدأ الأستاذ في نزع ثيابه، سألته عن العازل الطبّي. قلت له عندك الكابوط أ ولد الناس؟

قال ما عنديش.

قلت له ما غاديش تنعسْ مْعايا بْلا كابوطْ. ومددت له العازل.

قال إنّه لا يستعمل العازل ورماه دون أن ينظر إليه.

سألته لماذا لا يستعمله. بحال بحال.

ماشي بحال بحال. فايت جرّبتها. ما كنحس بوالو.

باش باغي تحسّ؟ أنا مرتكْ ولا صاحبتك؟ أنا غير قحبة. نعم، ولكن ماشي طايحة على راسي باش انعسْ مْعاكْ بلا كابّوطْ. قلت ليه إيلا ما استعملتيشْ الجلدة ما غاديش تنعس معايا أولد الناس واخا اتحط ليا المانْضة ديالك كلّها.

علاش؟

هاكاك. أنا ماشي قطّة. ما كنعسش بلا كابوط. عندما انتبهت إلى أنّه مصرّ كذبت عليه. قلت له إنّني حائض. التقطت العازل ورميته على السرير وقلت من الأحْسن لك أن تستعمل هذا الشيء.

الكذب هو مفتاح الدخول إلى عقل هذا النوع من البشر. وأنا كذبت عليه لعلّ وعسى يهديه الله ويأخذ العازل. ولكنّه ظلّ صامتًا. ومتمسّك بفكرته العوجاء. قلتها له بأدب. لم أقلها لراعي غنم أو بائع نقانق. قلتها لأستاذ في اللغة الإنكليزيّة. ويفهم في مثل هذه الأمور. عندما رأيت أنّه عاد يرتدي قميصه سألته ماذا يفعل. قلت له إنّني فقط أضحك معه. ليس بي حيض ولا هم يحزنون. كنت أفكّر في جوجو. ماذا سيقول وهو يراه خارجًا بعد دخوله الغرفة بدقائق. إنّه جالس في البهو، يسكر، ويلعب الورق مع زينة ويعدّ النقود التي سيربح هذه الليلة بعد مغادرة الأستاذ. وأنا أقول مع نفسي جوجو غادي يهرّسْ ليا وجهي. ما كان عليّ أن أمزح مع الأستاذ.

آشْ كتْديرْ يا أستاذ؟

كنلبس. غادي نمشي في حالي.

وجوجو؟ ماذا سأقول لجوجو يا أستاذ؟ جوجو ينتظر حصّته من راتبك. كأنّما لم يسمع ما قلت. فتح الباب وانصرف.

جوجو لم يقل شيئًا عندما عدت إلى البهو. ما زال يلعب الورق مع زينة. كان سكران. فتح فمه وأغلقه في الحين. تذكّر طاقم فمه وهو يرفع بصره نحوي. كأنّما هناك علاقة بين خيبة ليلتي وبين فمه الذي كان قد وضعه في إناء ماء. جوجو لا يحبّ أن يتكلّم وهو بلا طاقم فمه. حتى وهو سكران. جوجو لم يقل شيئًا ساعتها. استمرّ يلعب.

V استيقظت هذا الصباح ليس على ما يرام

وبي دوخة. وركبتاي خاويتان. وجسدي يرتعش قليلاً. أعددت له فطوره مع ذلك وجلست قبالته. جوجو يلبس سروال دجين وقميصًا أحمر وشعره يلمع كأنّما بدأ عمله. جوجو يحبّ اللون الأحمر. ربّما إنّه لون القوّادين. ويحبّ أن يمشّط شعره إلى الخلف. يحبّ أن يدهنه بالبريانطين. اسمه الجيلالي ولكن في الزنقة، في البار، في المارشي، الجميع يناديه جوجو. كان دائمًا قوّادًا. من يوم رأيته في بيت لالة زهرة. أوّل بيت آوانا أنا وأختي زينة. امرأة طيّبة. غليظة، شيبانيّة، وطيّبة، شعرها شاب واحمرّ من كثرة الحنّاء التي تضع عليه. عندها ثؤلول فوق الأنف، في حجم الحمّصة. وبشعة الخلقة. وتحبّ الويسكي. وتحبّ جوجو. كنت قضيت في بيتها ثلاث سنوات تقريبًا، قبل أن ألتقيه. ذات ليلة عادا إلى البيت وهما سكرانان. سكرانان ومتعانقان ويغنّيان. جوجو كما الآن، يرتدي السروال الدجين نفسه والقميص الأحمر نفسه. وهو الذي كان يسندها حتى لا تسقط. ابتعد عنها فسقطت وسط الدار كبالة من التبن. جوجو دخل السجن مرّتين بسبب الحشيش. نحيف وأنفه طويل وندب غائر يقسم خدّه شطرين. شرّير وسيّئ النيّة. ويتحاشى الجميع شرّه. حتى البوليس. قالت لالة

زهرة مزهوّة: واحد المرّة جابو فاركونيط عامرة بالبوليس وما قدروش يشدّوه. ماشي حينت صحيح.. ولكن حينتْ كيْطيرْ بحال الزواق. لا يُمسك به. ربّما لهذا السبب أغرمت به الشيبانيّة. ولأسباب إضافيّة ومعقولة: يدفّئ فراشها بالليل ويحميها بالنهار. واشترت له سلسلة من الذهب وخاتمًا من الذهب وزجاجة بريانطين. تقول له عندما تسكر أن يعتني بالزجاجة لأنّها ثمينة. ولكن جوجو يفرغها في أسبوع واحد. ذات ليلة اشترت ديكين بلديين. طبخت أحدهما وقالت له: أجي تاكل أحبّي. اقترب جوجو من الصحن وركله حتى التصق صدر الديك بالسقف. وأشبعها سبًّا. تقيّأ عليها كلّ ما جمع في قلبه من غلّ وكراهية طيلة معاشرته لها. والشيبانيّة انطلقت تضحك. جوجو يسبّها وهي تضحك. عيناها مسدودتان ونابا الذهب في فمها يلمعان. خلقتها صارت أكثر تشوّهًا. رفعت يديها نحوه وبخلقتها المشوّهة الضاحكة قالت له: أجي عندي أحبّي عنّقني.

نعم، مرّات رأيته يضربها. ورأيت وجهها المدمّى. واللعاب أحمر يسيل من فمها وهي تضحك وتقول له: أجي عندي أحبّي اضْربني، اقتلني، ومن بعد عنّقني. ثم تلتفت إليّ وهي تمسح الدم وتقول جوجو كيبْغيني.

ذات يوم قال لي جوجو ماذا تفعلين مع لالة زهرة؟ إنّها تستغلّك. كنّا قد قضينا أنا وأختي زينة في بيت لالة زهرة ما يكفي من الوقت لأعرف أنّه حان الوقت لأجرّب عتبة أخرى. كنت أفكّر جدِّيًا في الانتقال من بيتها إلى بيت أرملة مات زوجها في حرب الهند الصينيّة. منذ البداية أدركت نيّاته. القوّاد يبقى قوّادًا دائمًا. قلت: أن يستغلّني جوجو أحسن من أن تستغلّني لالة زهرة بدعوى أنّها فتحت لي باب بيتها يوم جئت إلى آزرو لا أعرف أحدًا. ثم إنّ جوجو رجل كيفما كان

الحال. وسيعطيني رزقي. ما غاديش ياكلني. ما غاديش يخلّيني بلا فرنك بلا جوج كما تفعل القوّادة. ولكن بشرط قلت له: أختي تبقى مْعايا. ولكنّ المزاح معاها ممنوع. فهمتي؟ في الفترة نفسها التحقت زينة بمدرسة خصوصيّة تتعلّم الداكتيلو. ولكن في المدرسة بدل الداكتيلو يعلّمون البنات كيف يقحّبون. قلت من الأفضل أن تبقى في البيت حتى أرسلها فيما بعد عند خالتي تاجة. أو نذهب معًا. كان يوم جمعة ذلك اليوم الذي غادرنا فيه بيت لالة زهرة. جمعنا في الليل أمتعتنا وانتظرنا طلوع النهار. الشيبانيّة كما لو حدست أنّ أمرًا ما يتمّ في الخفاء. باتت الليل كلّه وهي تشرب الويسكي. الشيبانيّة تحبّ الويسكي بْلاكْ أندْ وايتْ. على الزجاجة صورة لكلبين. ظلّت تعتقد دائمًا أنّهما قطّان. كلّما أطلّ عليها أحد زبائنها بادرته بالسؤال نفسه: جبتي معاك الويسكي مولْ القطيطات؟ عندما هممنا بالخروج وقفتْ أمام الباب. جثّتها الضخمة سدّته تمامًا. جثّتها في حجم الباب. جوجو لم يفه بكلمة. تقدّم منها وأرسل إلى وجهها لكمة قويّة حتى سمعتُ أسنانها وهي تتكسّر. خرجنا وتركناها تبحث عن أسنانها. تجاوزنا باب بيتها وسمعناها تقول له إنّها تنتظره وقت العشاء لأنّها ستذبح الديك الثاني. وتضحك إنّما بلا أسنان هذه المرّة.

VI أعددت له فطوره إذن

وجلست قبالته. وهو صامت. ربّما كان ينتظر أن أرتمي على يده وأبوسها. ربّما كان يعتقد أنّني سأجلس أبكي بين ركبتيه. ينظر إليّ بين توقّع وتوقّع. سوء نيّته يحدّق فيّ. وأنا لا أتوقّع خيرًا. أعاد مشط شعره ودهنه ثانية ووضع طاقم أسنانه في فمه الخاوي وجلس يفطر. وينتظر أن أقول كلامًا يعجبه. ماذا سأقول؟ ما عندي ما يقال. في تلك اللحظة، في الحالة التي كنت عليها لم يكن ليسعفني كلام حتى لو أردت. الدوخة في رأسي لم تخفّ. والرعشة سرت في مناطق أخرى من جسدي. وأنا أنظر إليه وأقول ماذا أفعل صحبة هذا القوّاد؟ بدون الندب في وجهه يبدو جوجو لطيف الطبع. الندب بدا غائرًا أكثر من الأمس وهذا زاد من نقمتي عليه. من نقمتي على كلّ القوّادين. كأنّما بات شيطان يحفره بالفأس. لم يفتح فمه بكلمة. سواء طيّبة أو قبيحة. أشعل سيجارة وراح يلعب بعلبة الكبريت بين أصابعه. لم يمدّ يده إلى كأس القهوة الذي أعددت له. لم أشعر بالغبن الذي شعرت به في تلك اللحظة. ماذا أفعل مع هذا القوّاد؟ ها أنا في بيته منذ عامين دون نتيجة. وأيّ نتيجة يمكن أن أتوقّع؟ وربّما كان البقاء في بيت لالة زهرة أفضل بكثير. وهو، كواحد يخطّط لشرّ ويخفيه باللعب بعلبة الكبريت. البشر كلّه واحد. هو

هو أينما كان. لم يتغيّر شيء منذ ظهر على وجه الأرض. لماذا سيتغيّر؟ لم يتغيّر شيء لا عند الوالد ولا عند لالة زهرة ولا عند جوجو. أنا لا أخاف من جوجو. لماذا سأخاف منه أو من غيره؟ هل أخاف منه لمجرّد أنّ ندبه أصبح أكثر تهديدًا من الأمس؟ أنا مستعدّة لكلّ شيء.

ادّخرت بعض المال. ما يكفيني أنا وأختي زينة ريثما ندبّر أمورنا. في الدار البيضاء أو أيّ مدينة أخرى. لست يائسة. متفائلة دائمًا. أتوقّع الخير لي ولأختي زينة. جمعت ما يكفي لهذه السنة. على الأقلّ. بعدها نذهب معًا إلى الدار البيضاء. يدي في يدها، بدل أن أطلقها وحدها في مدينة كبيرة كتلك. قد تكون هذه هي المناسبة التي أنتظر. ربّما أنّ الوقت قد حان لنغيّر مصيرنا. لنسير في الاتّجاه الذي نريده. أو أيّ اتّجاه يبعدني عن جوجو. وعن لالة زهرة. وعن آزرو. كيفما كان هذا الاتّجاه. المهمّ أن يتغيّر شيء ما في حياتنا. كم من مرّة ضبطت نفسي أقول سأموت صغيرة بسبب كلّ الأمراض التي أجمع من العسكر. كيف خطرت في ذهني فكرة مثل هذه؟ أنا لا أخاف الموت. مرحبًا بها. أفكّر في مصير أختي زينة من بعدي. سأرحّب بالموت عندما أضع زينة في مكان آمن. عند خالتي تاجة مثلاً. لست على ما يرام. منذ استيقظت رأسي مشتعل. والحمى لا تبارحه. ويبدو لي من جهة أخرى أنّ الوقت حان لأتوقّع خيرًا. لا أعرف ما أنتظر ولا ما أتوقّع. زينة في الغرفة نائمة. عندما استيقظتْ خرجت من الغرفة وهي تتمطّى وتتفوّه. خفيفة، مرحة، لامبالية. وعلى بشرتها تتهادى رائحة ليلة هادئة. عبرت البهو بالقميص الشفّاف ودخلت المطبخ. جوجو تعقّبها بعينيه الزائغتين. لم يفه بكلمة. رشف رشفة من كأسه، وضعها على المائدة بعنف وخرج. لحظتها لم أنتبه. لم أدقّق في معنى تلك النظرة.

VII عادة يكون البار فارغًا

في هذا الوقت من الظهيرة، عامر فقط ببعض لاعبي التّيبرسي وعزيز الذي يشتغل في القاعدة الجوّيّة. أوّل ما خطوت داخله رأيت جوجو يلعب الفليبيرْ. وأستاذ الإنكليزيّة جالس في مكان الأمس نفسه. عزيز كان متّكئًا على الكونطوار ويشرب البيرة. جوجو تحاشى النظر إليّ. تظاهر أنّه مشغول بشعره. يمرّر يده عليه ويحدّق في كلّ جهة ولا ينظر إليّ. والأستاذ رفع بصره جهتي ثم خفضه، كأنّما من خجل. سلّمت على عزيز وجذبت طابوري أعرج وجلست جنبه. عزيز يشتغل في القاعدة الجوّيّة. في القنيطرة. يقود الطائرة. يحبّ أن يجلس إلى الكونطوار ويتحدّث مع مدام جانو. لا أهتمّ بما يقولان لأنّهما يتكلّمان دائمًا بالفرنسيّة. عزيز لا يتحرّك من على كرسيّه منذ دخوله حتى مغادرته البار. وأثناء هذا يتكلّم مع مدام جانو. رأسي يوجعني. عِرق يخبط في قاع رأسي منذ استيقظت. وزاد ضجيج الفليبير من صداعه. جوجو ينزل بقبضته على سطح الآلة الزجاجيّة كأنّما ينزلها على رأسي المشتّت. كأنّما يعوّض اللكمات التي لم يسدّدها إلى وجهي هذا الصباح. ثم، وهو يمضغ العلك، ينحني على الأستاذ ويهمس في أذنه. ثم يعود ليضرب زجاج الفليبير حتى لتقول إنّه سيطير شظايا. مدام جانو صاحبة

البار لا تقول شيئًا. منشغلة بالإنصات إلى عزيز. وعبد السلام يملأ أوراق سباق الخيل. ماذا يقول القوّاد للأستاذ؟ لا سبيل إلى معرفة ذلك مع أنّ بالي مشغول به. منظر القوّاد لا يروق هذا الصباح.

مالْ هادا؟ قال عبد السلام عندما انتبه أخيرًا إلى أنّ زجاج الفْليبيرْ سيتهشّم إذا لم يتوقّف. مال هادا؟ ثم سألتني مدام جانو بدورها.

قلت لها لا أعرف ما به يا مدامْ.

وقال عبد السلام وهو يغادر كرسيّه: ما عاجبْنيش هاد بْنادم.

حتى أنا، قلت. ما عاجبنيش منذ خبط كأس القهوة على المائدة وخرج مندفعًا. أنظر إليه وأقول هذا القوّاد لا شيء فيه يعجب هذا الصباح. ثم وأنا أراه يبتعد عن الفليبير ويجلس إلى مائدة الأستاذ قلت هذا القوّاد يدبّر أمرًا. حتى عبد السلام لاحظ تبدّل القوّاد. لهذا لم يكفّ عن التساؤل. وكذلك مدام جانو. وأنا أردّ لا أعرف يا مدام، والله لا أعرف عمّا يبحث القوّاد هذا الصباح. أمّا عزيز فقد التفت جهتي وهزّ رأسه متأسّفًا. وهو يبتسم. عندما عاد بصري جهة مائدة الأستاذ كان جوجو قد اختفى. لا أثر له في كلّ البار. لا جهة الكونطوار ولا جهة الفليبير. أشار عزيز جهة الباب وقال قوّادك خرج، ارتاحي مْع راسكْ. ولكنّني لا أرتاح. لن أرتاح لمجرّد أنّ عزيز قال ارتاحي مع رأسك.

عزيز يشتغل في القاعدة العسكريّة كما قلت. ثمان وأربعون ساعة. بعدها يركب سيّارته السيمكا ميلْ ولا يتوقّف حتى بار اللقلاق. ثمان وأربعون ساعة عمل وثمان وأربعون ساعة سكر. هذا هو البرنامج. ولكنّه متكتّم، غامض. صامت طول الوقت. حين لا يتحدّث إلى مدام جانو فهو صامت. كأنّما يتهيّب الاختلاط بالناس. يشبه عبد الحليم

حافظ. على وجهه علامات حزن. العلامات نفسها التي تميّز وجه عبد الحليم. عندما تحدّق فيه طويلاً تتأكّد أنّه لا يوجد في مكانه. وتقول ماذا يفعل هذا الشابّ هنا. ولا تعرفين لماذا تضعين على نفسك هذا السؤال. خصوصًا عندما يدخل ببدلة الطيّار. بدلة زرقاء وأزرار من النحاس تلمع. (لا يحدث هذا كثيرًا. غالبًا ما يدخل ببدلة رياضيّة وحذاء رياضي كما اليوم.) كم يبلغ من العمر؟ إنّه لا يتجاوز الثامنة والعشرين عامًا. أحيانًا أجلس أتأمّله وأقول أيّ حياة يمكن أن تعيشها امرأة إلى جانبه؟ في جميع الحالات فإنّها لن تكون مثل الجحيم الذي نعيشه مع هذا القوّاد.

بعد ربع ساعة عاد جوجو. ومع من؟ مع زينة. عندما رأتني ركضت نحوي. جذبها جوجو بعنف وجرّها جهة المائدة وأجلسها بعنف قبالة أستاذ الإنكليزيّة: ها بْلاصتك. وخطا نحوي وهو يدفع صدره إلى الأمام وقال فيما يشبه غناء المنتصر ذلك مكانها وعاد جهة المائدة وهو يرقص ويمسح شعر رأسه. وجريت نحوه. ماذا تفعل أختي هنا؟ دفعني جهة الكونطوار. بعنف لم أتوقّعه. تملّكني خوف غريب فاجأني. الزبائن يتفرّجون. جامدون في أماكنهم وينظرون إليه. استبدّ بهم الهلع نفسه. والأستاذ؟ بدا كأنّما لا دخل له في الموضوع. مطأطئ يلعب بكأسه وينتظر النهاية. ولا أعرف ماذا كان يدور في رأس صاحبة البار لحظتها. كانت قد أخرجت مرآتها الصغيرة وأحمر الشفاه القاني وبدأت زينتها لنصف النهار المقبل. وزينة بدأت تبكي. لا أحتمل بكاء زينة. لا أطيق أن أرى دموعها. إنّها غلطتي. هذا ما كنت أقول لحظتها. أنا التي دفعت بها إلى هذه الحياة. انهار كلّ شيء. كلّ ما قمت به من أجلها لم يعد يساوي شيئًا. والله وحده يعلم كم كافحت من أجل أن تحيا حياة عاديّة. الله وحده يعلم كم كافحت حتى لا ينقصها شيء. وسجّلتها في

المدرسة حتى تكون لها حرفة. وها هي تبكي. والقوّاد يمسك بيد الأستاذ ويضعها على كتفها ويقول له أن يجرّب طراوتها في عين المكان. لماذا لا تنشقّ الأرض وتبتلعنا جميعًا؟ جوجو مرتاح البال. لا يعنيه ما أفكّر فيه. انحنى على زينة وأمسك بذقنها وبدأ يهزّ رأسها ويقهقه ثم جلس إلى المائدة ووضع يده فوق كتفها الأخرى. والبيرة تتدفّق من الكأس التي في يده. ولا أحد يعرف كيف يتصرّف معه.

ثم نزل عزيز من فوق الطابوري وتحرّك جهة المائدة. جوجو انتبه إليه فوقف. لم يتمّ وقفته لأنّ عزيز ضربه ضربة واحدة رمته أرضًا. لم ير أحد الضربة. جاءت خاطفة. لم نر غير القوّاد وهو يهوي. ثم وهو يتمدّد على ظهره وقد غادرته كلّ شروره. دمه كدم أيّ قوّاد يسيل على أرضيّة البار. ولا تعرف من أين يسيل. خرج عبد السلام من وراء الكونطوار وقال للاعبي التييرسي: خرْجو علينا لخرا من هنا قبل ما يجي البوليس. أستاذ الإنكليزيّة ولاعبو التييرسي كأنّما عادت إليهم الروح أمسكوا بالقوّاد وجرّوه إلى الخارج. وبحماس بالغ. كأنّما كانوا ينتظرون المناسبة لينتقموا منه. عزيز أمسك بيد زينة وأخذها معه إلى الكونطوار. أجلسها على الطابوري. كانت فرحانة. عالية فوق الطابوري. لأوّل مرّة في كامل أنوثتها. زينة فجأة أصبحت امرأة. امرأة شابّة وجميلة وفرحانة. والحياة كلّها أمامها. فرحت أنا أيضًا. فرحت لفرحها. لم أشعر إلّا والدموع تنزل من عينيّ. بعد ربع ساعة أخرى خرج لاعبو التييرسي ليلقوا نظرة على القوّاد. اختفى. وجدوا مكانه بقعة دم سوداء. وإلى الساعة لا أدري متى خطرت الفكرة على بال القوّاد. هل اختمرت في ذهنه شيئًا فشيئًا. أم نزلت عليه دفعة واحدة هذا الصباح وهو يرى زينة تعبر البهو، في القميص الشفّاف، عارية تقريبًا، تتمطّى، ذراعاها البيضاوان عاريتان، عابرة البهو في لا مبالاة طفوليّة؟ زينة

كبرت. كانت دائمًا جميلة. ازدادت جمالاً هذا الصباح. وصدرها امتلأ. أعتقد أنّ عبورها هذا الصباح، وعلى الهيأة التي ذكرت، عارية تقريبًا، في قميصها الشفّاف، ونهداها يهتزّان في خمول، هو الذي أيقظ أفكار جوجو الشيطانيّة. لحظتها لم يقل شيئًا. اكتفى بأن يرشف رشفة من كأسه، ويضعه بعنف ويخرج. ولكنّ الفكرة كانت هناك. لم أنتبه إليها وهي تدقّ في رأسه كالناقوس، ولكنّها هناك. رجعتُ جهة الكونطوار. عزيز تلفّت جهة زينة وقال لها ماذا نفعل الآن؟ قالت له نلعب.

مدّ عزيز لعبد السلام ورقتين من عشرين درهمًا وقال له أن يراهن على الحصان رقم سبعة. لعبتُ التييرسي مرّات عديدة من قبل، ولم يكسب السباقَ أيّ حصان راهنت عليه. من هذه الناحية أيضًا سعْدي أعوج. ولكن من يدري؟ قد يحالفنا الحظّ هذه المرّة. قد يكون الرّقم سبعة رقم حظّنا أنا وأختي زينة.

٨

رواية عزيــز

(بعد منتصف الليل بقليل)

I كناقوس لا يكف عن القرع،

زحف القذى على باقي أطراف الجسد. أتوجّس كارثة هذه الليلة إذا سقطت من على الحوض. وهذا الناقوس بدأ من مدّة يعزف في ذهني نشيده المشؤوم: ستسقط. دن دن دن. لن تسقط... دن دن دن. يبدأ السراط كالعادة بنوبة ألم تغزو جسدي شيئًا فشيئًا، حتى الشلل التامّ. لم أسقط إلى الساعة ولكن جسدي يقول لي الليلة ستسقط. وإذا سقطتُ على الأرض فسأقضي الليلة فوقها كصرصار مقلوب. والأرضيّة مبلّلة وقد علتها قشرة سميكة من الوحل. عندما يدخل خيط ضوء شحيح أرى فقّاعات تبقبق على سطحها. تظهر وتختفي في حركة دؤوبة ولا مرئيّة، كأنّما هي ملايين من الديدان الصغيرة تدور حول نفسها. وربّما كانت كذلك. لأنّ لها صوتًا يشبه دبيبًا تحت أرضي. إن سقط جسدي العاجز فوق أرضيّة كهذه لن يأتي الصباح حتى يكون الموت قد جاء ورحل آخذًا معه ما تبقّى منّي. لهذا تراني أشرع في أخذ بعض الاحتياطات قبل مداهمة المرض: أربط يدي بحبل وأعلّقه بمسمار في الجدار. أربط الطرف الثاني من الحبل إلى إصبع رجلي الذي عضّه الفأر وأتمدّد. أطلّ الآن على الأرض من تحتي. بلل. ماء. موت. في هذه المرحلة لم يعد المرض يتعلّق بهذه الرِجل أو تلك. تعدّاها إلى باقي الجسد. يبدأ

المرض عادة بنوع من الاضطراب البسيط كأيّ اضطراب عرضي. وبسبب العضّة بدأ باكرًا هذه الليلة كما لو أنّ شخصًا يضغط على أصابع يدي واحدًا واحدًا. اليمنى أوّلاً ثم اليسرى. بعدها تتخشّب الأصابع. كما لو كانت عندي بدل الأصابع حزمة من القصب الجافّ. أو كما لو أنّها حُقنت بحصّة وافية من البنج. ومنها يأخذ طريقه إلى الأطراف الأخرى. ما أحسه في هذه المرحلة من تقدّم المرض هو ما يحسّه الحطب والنار تأكله. احتراق حقيقي للشرايين داخل الصدر قبل أن يشمل الحريق باقي الجسد. وهنا يعوض التخشّب شكل آخر من الإحساس بالألم مضاعفًا. يصبح الألم عامًّا، متواترًا. يخفّ ويعلو في تناغم داخلي، سرّي، منسجم مع دوره، وتتألّم لأنّك تنصت إليه بكلّ حواسّك التي تزداد صحوًا وإدراكًا كأنّما الألم ينعشها. وهنا أيضًا تصبح أيّة حركة مؤلمة ويصبح الوعي بها قاسيًا إلى أبعد حدود. في حالتي هذه يجب أن آخذ كلّ الاحتياطات لتجنّب السقوط من فوق الحوض. سقوط الجسد العليل على الأرضيّة المبلّلة بكلّ أنواع العفن في الوقت الذي تتعذّر عليّ فيه كلّ حركة هو الموت. وبالأساس عليّ ألّا أنام. النوم هو السقوط والسقوط هو الموت. يسهل الأمر في أوقات اليقظة بمعنى من المعاني، كما الآن. مدرك تمامًا لما يقع لجسدي، لكلّ عضو فيه، لكلّ خليّة، إنّما عاجز عن الحركة. جسدي كومة من ألم صارخ، ضارّ. وفوق هذا عليّ ألّا أنام. أحسن وضعيّة هي التمدّد على الظهر. النوم على الجنب يغري دائمًا بالانتقال إلى الجنب الآخر. أمّا النوم على الظهر فهو واحد وفريد. ويعطي الانطباع بأنّك تستجير بالأرض. تتشبّث بالبقاء. الموتى فقط يدفنون على جنوبهم. وأنا ما زلت حيًّا وأنوي أن أستمرّ في الحياة. يدي مربوطة إلى الحبل. والحبل معلّق على مسمار عال. والمسمار مربوط بإحكام إلى إصبع رجلي. وعندما سيدهمني النوم

وترتخي يدي وتسقط فإنّها تجذب الخيط الذي بدوره يجرّ إصبع رجلي المعضوضة إلى أعلى مضاعفًا الألم الذي سيجعلني أصرخ وأستيقظ بالرّغم منّي. هكذا في هذا التوازن الغريب أفلت من السقوط.

يتحرّك المرض بالطريقة نفسها التي عوّدني عليها. يتصاعد ويتصاعد حتى يصبح كومة حارقة. كرة ملتهبة. ما عدا الرأس. الرأس غارق في نوع آخر من الألم: الوعي الحادّ بكلّ درجاته المتفاوتة التصاعد، كشلّال مقلوب. تنفّسي لا يعود سوى شريط متقطّع من الصفير. له مقاماته المتصاعدة هي الأخرى حسب تقدّم الليل والتوغّل في أدغال المرض. كلّ الحواسّ مستيقظة، متوثّبة، تتابع أدنى حركة وأدنى صوت. الألم يتصاعد الآن. وأقول في هذا الوقت المتقدّم من الليل قد لا أسقط الليلة. وأنتظر السقوط. ذلك أنّ الناقوس يدقّ من جديد: ستسقط. دن دن دن. لن تسقط... دن دن دن. ما زال الفجر بعيدًا ولكنّنا أنا وجسدي قطعنا جزءًا مهمًّا منه. أحيانًا يخيّل إليّ أنّي أهوي. لأكتشف فقط أنّه خيالي يلعب بي. وأحيانًا أخرى أسرح في إغفاءة قصيرة، لا تتعدّى ثانيتين أو ثلاثًا (نبضتان أو ثلاث) أراني فيها أسقط أو أراني أتساءل هل سقطت. كلّ هذا قبل أن يجذب الخيط إصبع رجلي لأصرخ. وأصرخ دون أن أدري هل هو الحبل الذي جذب إصبعي أم أنّني حلمت بالحبل وهو يجذب إصبعي. أم أن لا شيء من هذا وقع. وأنّني لم أحلم وأنّني لم أصرخ. لم يقع شيء إلى الساعة. كلّ العذاب ما زال أمام. السقوط. ثم الموت. ثم... وما الموت؟ راحة أبديّة. هبوط هادئ إلى المستقرّ الأخير حيث لا شيء. وأنتظر الفجر لأتحقّق من كلّ هذا.

أحسّ أنّني أغفو. أنحدر رويدًا نحو مملكة اللاوعي وأترقب ارتفاع الإصبع لأصرخ ولا يرتفع ولا أصرخ. دن دن دن. لن تسقط... دن دن

دن. . . ستسقط. النوم هو السقوط والسقوط هو الموت. أنظر إلى السقف. هل عاد الطائر؟ هناك عيون تطلّ. عيون كثيرة وأفواه تضحك. وجوه تبدّل أشكالها، لها أصابع طويلة تخترق الثقب وتنزل تنزل. ثم تصعد تصعد. كلّ هذا غير واضح. ممدّد على ظهري. وكما لو كنت مربوطًا إلى حوض الإسمنت (هنا كان الطبّاخون السابقون علينا يغسلون صحون القائد ولم يكن أحد منهم يعرف معنى السقوط. وربّما غسلوا عليه أمواتًا) بحبال غليظة حتى لا أسقط. والوجوه تسخر من خوفي المبالغ فيه. ومن حبالي الوهميّة ومن الخيط الذي يشدّ إصبعي، تسخر من مكيدتي المفضوحة وأنا أهدّدها بأصابعي المربوطة. أنا لا أمزح. إنّها مسألة حياة أو موت. لكنّهم يستمرّون في الضحك والسخرية. أشيح بوجهي. أرى على الأرضيّة المبلّلة صفيحة البلاستيك فيستبدّ بي العطش. تصبح الرغبة في الماء طاغية فأرغب في السقوط للاقتراب من الماء. الماء هناك، تحت، في الصفيحة البلاستيكيّة، لتران على الأقلّ. ياه، مضى النهار حتى آخر قطرة ولم تنفد حصّتي؟ هل أفكّ الحبال وأتحرّك نحو الحافّة؟ هناك فئران ضخمة تحاول أن تقلب الصفيحة لتشرب بدورها. تتظاهر بأنّها تقضم حتى أرى أنيابها. تتدرّب بانتظار سقوطي تنظر إليّ بعيونها الحمراء وتنتظر أن أسقط لتعضّ رجلي الأخرى. ثم مادت الأرض ودارت بي كما تفعل بالسكران وأنا أقول في مجهود واع أخيرًا إنّني أسقط.

II يناير ١٩٧٢. جالس في البرج أراقبه

عند باب المخزن. خوذته تحت إبطه. يستعدّ ليلتحق بالطائرة في كامل عدّته. يبدو فرحان. كأيّ واحد يستعدّ لأن يحلّق في السماء. وأراقب الطائرة أيضًا، جاثمة في الأسفل، على بعد عشرين مترًا. كأنّما تنتظره. وأقول هذه الطائرة تعرفني. سافرنا معًا في الفضاء الكبير. رقصنا فوق القنيطرة وهي نائمة ثم وهي صاحية. طائرة من مقعد واحد. خضراء في لون الزيتون. مقدّمتها كرأس الصقر بمنقارها الدقيق ونافذتيها اللتين تشبهان عينين واسعتين. القبطان حمّودة صديقي وهو الذي يقف عند باب المخزن، يختلس النظر إلى جهة البرج، متردّدًا. هل يتحرّك أم لا يتحرّك جهة الطائرة. ثم يتحرّك أخيرًا. يحوم حولها. يراقبها، يمرّر يده على سطحها، كأنّما أصبح مالكها الجديد. وبين الفينة والأخرى يلقي نظرة جهة برج المراقبة حيث أجلس وأراقبه بدوري. أتردّد أنا الآخر. هل أنزل أم لا أنزل. ثم أنزل أخيرًا. أنزل وأقترب من الطائرة. كان حمّودة قد عاد أدراجه واختفى في المخزن. أتبعه. تدهمني رائحة الكيروزين والكازوال. رائحة الزيت المحترقة. رائحة عالم أعرفه. رائحة تسكن جلدي. تلهب دمي. وكأنّما دخلت لأجدّد علاقتي بها ولأملأ رئتيّ من أريجها. أصابعي تأكلني وعقلي يلتهب وكلّ جزء في

جسدي يريد أن ينقضّ على هذه القطعة أو تلك. القبطان حمّودة في بدلته الخضراء كأنّما يحاول أن يختفي بين ركام الآلات وأجزاء محرّكات في طور الإصلاح ولا يفلح، قامته الطويلة لا تساعده على الاختفاء. أسير خلفه لأفاجئه. يقول مرتبكًا إنّه يبحث عن نظّارتيه. لا يذكر أين وضعهما. يحاول أن يخفي ارتباكه، وربّما يريد أن يعتذر لأنّه سيقود الطائرة التي كنت أقود. ربّما يريد أن يعتذر ولا يسعفه لسانه. أتظاهر أنّني أبحث معه عن نظّارتيه. أسأله ممازحًا ألا يستطيع الطيران بدون نظّارات. لا يردّ. نستمرّ في البحث مدّة. أختفي بدوري خلف الآلات. أغادر المخزن دون أن ينتبه إليّ. وهو لا يلتفت جهتي. يعرف أنّني غادرت ولا يريد أن يلتفت كي لا يعرف. أعود إلى برج المراقبة وروائح الزيوت المحترقة والكازوال تتبعني، تملأ رأسي ورئتيّ، تملأ دمي. أراقب باب المخزن من جديد وأنتظر أن يخرج حمّودة. لا أراه. أتوقّع أن يخرج بين لحظة وأخرى. وأتساءل ماذا يفعل هناك وما الذي يدور في رأسه.

دويّ محرّك الطائرة يملأ رأسي حتى عندما أكون بعيدًا عن القاعدة. لا أكاد أغادر القاعدة الجوّيّة حتى أعود إليها. أحبّ الطائرات وصوت محرّكاتها. ضجيج محرّكاتها يملأ رأسي بالنهار وبالليل. بالنهار أطير وبالليل أحلم أنّني الطيّار والطائرة. ولكن هذا ليس رأي الكولونيل رئيس القاعدة الجوّيّة. أسعد أوقاتي عندما أجدني محلّقًا في السماء. وها هو الكولونيل بالأمس يقول لي عزيز انسَ الطائرة. انسَ السماء. ثم يقول أنت أحسن ليك الأرض. وأحسّ كما لو أنّ غبارًا ينزل على وجهي ويغلّف عقلي. الكولونيل، المسؤول عن القاعدة الجوّيّة، جالس خلف مكتبه وأنا واقف أمامه وأسمعه ولا أسمعه وأقول مع نفسي عدا الطيران لا أحسن أيّ عمل. هذه هي مهنتي. لم أتعلّم غير هذه المهنة.

الطائرة هي حياتي. منذ حللت بالقاعدة الجوّيّة قبل سبعة أشهر وأنا لا أفعل غير هذا: أطير. وعندما لا أطير أقضي الوقت في المخزن، منكبًّا على المحرّك أفحص لوالبه. وصهد صفيح الطائرة يلفح وجهي وأتذكّر أنّنا مكثنا طويلاً في الفضاء أنا والطائرة. أتركها تستريح. أحوم حولها وأنتظر أن يستريح محرّكها ولا أعرف مع مرور الوقت إن كان قد استراح أم لا. ثم أعود بقربها وأرى أنّ صفيحها ما زال ينفث بخاره وأقول لها أن تهدأ. وأقول عليّ أن أغادر ولا أغادر. أصعد فوق الآلة، أنظّفها وأمسحها جزءًا جزءًا كي تنتعش، ويعود إليها هدوؤها وحيويّتها. وعشقها للسماء. وأقول عليّ أن أغادر ولا أغادر. أجلس بجانبها أسألها هل أعجبها كيف قضينا النهار. أصحابي يسخرون منّي في القاعدة الجوِّيّة: كيفاش كتْدير أعزيز؟ تحسن الصعود ولا تحسن الهبوط؟ قبل الغداء، نكون في المقصف نشرب بيرة الظهيرة وإذا بالقبطان حمّودة يطلق قهقهته الغريبة. القبطان حمّودة صديقي ويحلو له الحديث حول الموضوع نفسه: ذات يوم يا عزيز ستطير ولن ترجع. أحيانًا يتدخّل الكولونيل بدوره، مازحًا، أعتقد أنّه يمزح عندما يقول لي أمام الطيّارين الآخرين ألم تتعلّم في المدرسة طريقة الهبوط؟ ولكنّه بالأمس عندما استدعاني إلى مكتبه لم يكن يمزح. مدثّر في جلسته الصارمة ويحرّك أوراقه ولا ينظر إليّ. أتنفّس بصعوبة، كأنّما غبار يسدّ أنفي وفمي. وهو ماذا يفعل؟ يحرّك أوراقه بين أصابعه ويشير جهة برج المراقبة. كما لو كان يقول إنّ ذاك مكاني منذ الغد. والغد جاء على وجه السرعة. يحمل معه خيبة الأمل. والارتباك الذي بدا على القبطان حمّودة وهو يقف أمام باب المخزن حاملاً خوذته يقدّم رِجْلاً ويؤخّر أخرى. القبطان حمّودة لم يكن يضحك وهو يتظاهر أنّه يبحث عن نظّارتيه حتى لا يحرجني. وماذا يفعلون في المقصف الآن، جميعهم،

بما فيهم الكولونيل؟ أجلس في البرج الآن وأراقبها. الطائرة التي قضيت على متنها ستًّا وسبعين ساعة تبدو في الأسفل كاليتيمة بدوني. بلا صديق. بلا ربّان. بلا عزيز. ربّانها الجديد مختفٍ في المخزن يبحث عن نظّارات لا وجود لها. ومن هناك ربّما يراقبني هو أيضًا. كما أراقبه. أتظاهر أنّني لا أراقبه. كما يتظاهر. طائرات غيرها حلّقت منذ وقت وبقيت طائرتي تنتظر الربان الذي سيعيد إليها توهّجها. وبقيت أنا. في البرج. لا أفعل شيئًا. لا ألمس زرًّا. أراقب باب المخزن وأنتظر أن يخرج حمّودة في بدلته الخضراء وتحت إبطه خوذته ليأخذ مكاني. ممنوع من الطيران قال الكولونيل. لأنّك لا تعرف كيف تهبط. هل يوجد في كلّ الدنيا ربّان لا يحسن الهبوط؟ فعلاً، في أحيان كثيرة أنسى نفسي. تدوّخني الأعالي. أضيع في حلم لذيذ. يأتيني صوت الراديو: عزيز انزل. ولا أسمعه. الفضاء الرحب يسكرني. قريب من الشمس بشكل غريب. كما لو تكون الشمس طلعت عليّ وحدي. تارة تحتي الجبال من جهة والغابات من جهة أخرى وتارة المدى الشاسع للمحيط. ولكنّ الذي يأخذني تمامًا هو منظر النهر. عندما أجتاز المدينة وأراه. البادية من كلّ جهة والنهر يسرح فيها كثعبان هائل. أتبع تعرّجاته. ألوي حيث يلوي. أحيانًا يختفي خلف جبل فأتريّث. أعطيه الوقت الكافي ليختفي. لأفاجئه من جديد. كلانا نحبّ هذا اللعب. أنا والنهر. ثم أصعد وأصعد لأكتشفه هذه المرّة صغيرًا كخيط ماء يحتضن خاصرة الجبل.

III أمام مقود الطائرة أسبح في زمن آخر

أسبح في دعة تشبه سكرة الخلود. كلّ هموم النهار، تلك التي تجعل شعر الرأس يبيضّ دون أن تنتبه، والعروق تيبس، كلّها زالت. بسبب أوكسيجين النقاء الذي يملأ الرئتين. الأرض تبقى كبيرة تحت. مهما نأت تبقى كبيرة. ولكنّها لا تملؤني بأيّة بهجة. مكنون الأعالي هو الذي يسكنني، يغذّيني، يرضعني، ليس كما ترضع أمّ صغيرها، أتغذّى من حليبها الخفي وأنا ألعب. ويداي اللتان لا تحسنان أيّ شيء على الأرض تجدان هنا، فوق، حذقهما الكامن فيهما قبل أن توجدا. أنتبه ثم أدرك أنّ ما كان يخيفني لم يعد. زال. جسدي لا تخيفه الأشياء وظلالها. لا وجود للظلال هنا. لا شيء يتعبه. أو يقهره. لأنّه خارج إرادتي. أسمعه يحمحم. أراه ينتفض كالمهر في المزرعة. ولا أستطيع له شيئًا. لا أستطيع التحكّم فيه إذا عنّ له أن يتحامق. بهلوانيّاته لا أتحكّم فيها. لا أستطيع أن أمنعه من التحليق بلا توقّف. هل سيسمعني وأنا أقول له أن يتوقّف عن الطيران لأنّ الكولونيل يطلب منّي ذلك؟ هل يسمع الراديو وهو يقول عزيز انزل. أين هو عزيز؟ لا وجود له على الأرض. الجسد لم يعدْ جسده. يستطيع حتى أن يصبح طائرًا ويبدّل ريشه فيما إذا عنّ له ذلك. وأنا لا أتمنّى غير هذا. وعندما يسألني

جسدي لماذا لا نذهب حتى الدوار الصغير الذي ولدت فيه؟ لماذا لا نلقي إطلالة صغيرة لنرى ما إذا عاد الوالد وهو يدفع كبشه أمامه؟ وأعرف أنّه لن ينتظر ردّي لأنّه يكون قد غيّر الاتّجاه إلى فوق، إلى فوق دائمًا. في اتّجاه الشمس.

الأرض لا هي فوق ولا هي تحت. في هذه الجهة تارة ثم في الجهة الأخرى. حسب نوايا الطائرة. تارة عموديّة كالجدار وتارة مستوية كأنّما عاد إليها رشدها. تارة تصبح السماء أرضًا والأرض تصير سماء. ثم تبدو كأنّما حلّ بها ربيع مفاجئ. ويعقبه صيف أكثر فجاءة. الطائرة شاءت ذلك. رغم الطيّار. يجيء الصيف المفاجئ حتى حافّة النافذة، يطلّ على الطيّار ويهرب. وتبقى رائحته الوقت الكافي ليقول الطيّار إنّ صيفًا لطيفًا مرّ عليّ وحدي. السماء تشتعل شيئًا فشيئًا. تصير ذهبيّة. تشتعل أكثر كأنّ لهيبًا عامًّا يلتهمها. عندما تعود الطائرة يكون صوت الراديو قد اختفى منذ مدّة. أنا لم أعد بعد. المساء هنا وأنا لم أعد بعد. لا أزال أحمل النهار في دمي. هو هذا لونه وهدوؤه يسرح حتى شرايين القلب. هل أهبط؟ انتظر قليلاً. بعد لحظة سينام الناس. انظر، يستعدّون. ونحن فوق، نرعى الحيوات الصغيرة التي تدبّ تحت. بعد قليل سينامون. تشتعل أضواء هنا وهناك. كثيفة في جهة وضعيفة في جهات أخرى، حيوات صغيرة تحلم بالغد. تتلألأ أحلامها متقطّعة ومتواصلة في الآن نفسه.

VI تملأ رأسي أفكار غريبة هذا الصباح

منذ التحقت بالبرج. وقبل أن ألتحق به. مكاني ليس هنا. أحاول أن أنسى الطائرة. وأنسى القبطان حمّودة. أغادر البرج. أمشي على أرضيّة المطار. أتنفّس بصعوبة. أقترب بدل أن أبتعد. ألمس سطح الطائرة. ملمسها يريح النفس. أعود جهة المقصف. أتذكّر أنّ الطيّارين قد عادوا. مبارك وقاسم والصدّيق. تلفّهم دوخة الفضاء الذي عادوا منه للتوّ. تلفّهم رائحته وكيمياؤه. تلفّهم العناصر غير المرئيّة للفضاء الذي عادوا منه يضحكون. وحدي أراها. أسمع فرحهم وأتفهّمه. إنّهم يشربون بيرتهم ويحكون الحكايات. وينتظرون ظهوري لتستمرّ حكايتهم أطول ما يمكن. كيفاش كتدير أعزيز؟ تحسن الصعود ولا تحسن الهبوط؟ ذات يوم يا عزيز ستطير ولن ترجع. أتعدّى المقصف. لا ألتفت جهتهم. أتحاشى النظر حيث يجتمعون. أسير فقط. أبتعد عنهم وعن فرحهم. أجدني في موقف السيّارات، أرتمي داخل سيّارتي السيمْكا ميلْ. أتحرّك وسرعان ما أجدني خارج القاعدة الجوّيّة ولا أعرف إلى أين سأمضي. أترك السيّارة تقودني دون أن أعرف إلى أين ستسير بي. لا أهتمّ بالأمر. محتاج إلى الهواء. أبتعد عن البرج. وعن الطائرة والطيّارين. وأقول قد يكون القبطان حمّودة خرج من مخبئه. بعد قليل سأراه محلّقًا فوقي. أرفع رأسي ولا أراه. مرارًا أرفع رأسي.

أسمع خلفي صوتًا وأرفع رأسي معتقدًا أنّه صوت محرّك الطائرة. أعرف صوت محرّكها كما أعرف صوتي. ومع ذلك يختلط عليّ الأمر. أقول ربّما تغيّر صوتها بعد أن انتقلت إلى ربّان آخر.

أسير دون وجهة. في البداية على الأقلّ. سيّارات قليلة تمرّ. لا أهتمّ بأمرها. السماء زرقاء ولا أثر لطائرة محلّقة فوق رأسي. القبطان حمّودة صديقي وأعتقد أنّني لن أكلّمه بعد اليوم. سأتحاشاه. عندما تلتقي العين بالعين صدفة سأتظاهر أنّني أحزم حذائي حتى لا أضطر للسلام عليه. أمّا الكولونيل فإنّني مضطر لمجاملته. لن تستمرّ مجاملتي له طويلاً. لأنّني ربّما قد لا أعود إلى القاعدة. لست مضطرًّا. ما زلت شابًّا، سبع وعشرون سنة. كلّ المستقبل أمامي. ماذا سأفعل في برج المراقبة في السابعة والعشرين؟ أراقب الآخرين يطيرون؟ أحدّد لهم ممرّات الطلوع والهبوط؟ احترامي له زال. سأجامل الكولونيل، نعم، أمّا الاحترام والتقدير... لن أحترمه أبدًا كما كنت أفعل. تزدحم في رأسي الأفكار غير الطيّبة. أفكار لا تأتيني عادة ولا أحبّ أن أجد رأسي مملوءًا بها ورغم ذلك تستولي عليّ تمامًا. أفتح نافذتيْ السيّارة. يصفع وجهي هواء بارد ينعشني ولا يذهب بأفكاري القلقة. أتعرّف على المرتفعات حولي وأقول سنعبر وادي بهت الآن. وبعد مدّة نعبره. وأقول ها نحن اجتزناه أنا والسيّارة. لو كنت محلّقًا في الطائرة لما قلت كلامًا مثل هذا. أقول الآن كلام الماشين على الأرض. ها نحن اجتزنا النهر. في هذا الوقت من السنة يكون وديعًا. أكل حصّته من البشر والحيوان وجلس يستريح. بعد ساعتين أتعرّف على غابات الأرز وأعرف أنّني أسير نحو آزرو.

ركنت السيّارة جنب الطوار ودخلت بار اللقلاق. البار الوحيد الذي أعرف. فارغ في هذا الوقت من الظهيرة. زبائن قليلون يشربون البيرة ويلعبون التييرسي. جوجو يلعب الفليبير وهو يحرّك مؤخّرته

ويمضغ العلك. هذا الشخص لا أحبّه. أفكّر فيه كشخص لا أحبّه كي لا أفكّر فيه. أدرت له ظهري وشاركت مدام جانو أكلها: خبز وقطعة من لحم الخنزير وزيتون. دخلت ختيمة، سلّمت عليّ وجلست قريبًا منّي. عادة تجلس بعيدًا. ربّما جلست قريبًا منّي لتغيظ القوّاد. قلت إنّنا نتشابه أنا وختيمة. كلانا معكّر المزاج هذا الصباح. مرّ جوجو خلفنا. لم تهتمّ به ولم يهتمّ بها. ثم عاد إلى الفليبير وراح يخبط عليه. سألتني مدام جانو لماذا يضرب الفليبير بهذا العنف. ختيمة هي التي ردّت عليها.

مرّ القوّاد خلفنا يهزّ ردفيه وغادر البار. فكّرت في حظّي العاثر وبدا لي وضعي بئيسًا. ثم قلت إنّني أبالغ وإنّ وضعيّتي ليست أسوأ من وضعيّة القوّاد. ثم قلت إنّ بيرة الظهيرة شيء حسن وشربت جرعات متلاحقة بلا كأس. وضعت مدام جانو أمامي بيرة وقالت دْيال ختيمة. ابتسمت لها وشكرتها وعدت إلى أفكاري القلقة التي استولت عليّ من جديد. لم أنتبه إلّا عندما سمعت القوّاد جنبي يهدّد. التفتّ إليه ثم إلى الجهة حيث تجلس فتاة في الخامسة أو السادسة عشرة من العمر. كانت تنظر حولها كالمذعورة. زادت نقمتي على القوّاد وأنا أراه يشير بيديه نحو الفتاة مهدّدًا. اسمها زينة. عرفت اسمها عندما سمعته يقول زينة منذ هذه الساعة ستدخل دائرة العمل. ثم يعود إلى مائدته وهو يهزّ مؤخّرته. وأنا فكّرت في الطفلة المذعورة التي لم تصر امرأة بعد والتي تنظر بعينيها الصافيتين، صفاؤهما يجعل ذعرهما أكثر بلاغة، عيناها المذعورتان جدًّا بهما كانت تنظر إليّ. ثم بدأت تبكي واختفى صفاء عينيها. كلّ الغيظ الذي جمعت طيلة النهار فاض من يدي. سقط القوّاد أرضًا. مغمى عليه. كأنّما رميته بقذيفة. وسال من فمه دم كثير. ومن قفاه الذي ضرب ركن المائدة وهو يسقط. أمسكت بيد زينة وزال الخوف من عينيها. وزالت الدموع ولم يعد إليهما صفاؤهما بعد. التفتّ جهتها وقلت لها ماذا سنفعل الآن؟ قالت نلعب.

٩

رواية زيــنة

(حوالى الواحدة ليلاً)

I أستيقظ منزعجة من غفوة

لا أعرف كم دامت وأنظر إلى الساعة في معصمي. عقاربها تشير إلى الواحدة إلّا دقائق. الصمت مطبق على الحافلة. أتلهّى بصوت المحرّك الذي يهدر في الليل. المقعد جنبي فارغ من جديد. لم يعد إليه الرجل العجوز صاحب الثمانين عامًا والذي لم يعثر بعد على عائلة تؤويه. ألا يزال في الحافلة أم غادرها لحظة وقفتنا السابقة؟ أحاول العثور على وضعيّة مريحة لأنام من جديد. تجمّعت فوقنا السحب والقمر اختفى من قطعة السماء فوقي. ربّما إنّه يضيء الجهة الأخرى من الحافلة. أضع رجلي على المقعد الفارغ ولم أعد أتساءل هل هناك قمر وسحب. معدتي كأنّ بها حفرة كبيرة. أتذكّر أنّني لم آكل شيئًا منذ الغداء مع أختي ختيمة وأحاول أن أتذكّر ماذا أكلت ولا أفلح. أتذكّر أشياء بعيدة ولا أتذكّر ما أكلت هذا الظهر. توقّفت الحافلة أخيرًا أمام بناية تنتصب حوافيها أشدّ حلكة من الليل وتبدو مهجورة ويلفّها كما يلفّ الحديقة التي أمامها ظلام كثيف لولا أشعّة ضوء متسرّبة من خلال فدريش النوافذ. بدأ احتجاج المسافرين من جديد وقال السائق عليه أن يتوقّف ليسأل عن أحوال النهر قبل أن يعبره. ثم إنّه لا يوجد مكان مفتوح في هذه الساعة على طول الطريق ما عدا هذه الأوبيرجْ، أوبيرج

الشّينوي. في اللحظة نفسها فُتح الباب الداخلي والضوء المنبعث من خلفه أضاء في الحديقة ظلالاً وكثّف ظلالاً. وظهر في إطار الباب شبح شخص يلوّح نحونا بيديه مشيرًا لنا أن ندخل. ثم بدأ يصرخ في الليل أنّ علينا أن نتحاشى المرور جنب المسبح لأنّه فارغ. عند الباب رحّب بنا الرجل وهو يقول إنّ عواصف هبّت طيلة الأسبوع وقد غمرتهم المياه من كلّ النواحي. وقد نجد الطريق مقطوعة عند القنطرة. القاعة التي دخلنا إليها واسعة. ستائر النوافذ مسدلة والقاعة مزدحمة بأنواع مختلفة من الأثاث: أرائك متداعية وموائد حولها كراسي مبعوجة ودواليب من زجاج عليها منحوتات لبواخر شراعيّة من خشب ومحارات كبيرة الحجم وعلى الجدران رؤوس خنازير محنّطة ويوميّات اسودّت من كثرة الغبار الذي علاها وساعات كبيرة، خمس ساعات حائطيّة كلّها معطّلة. والثريّات المدلاة من السقف كثيرة هي الأخرى ولا تتشابه. كما لو دخلنا محلًّا للبازار. والرجل الذي استقبلنا يبدو جزءًا من المكان بقامته القصيرة ووجهه غير الحليق وعينيه الضيّقتين وأسنانه المسوّسة. قد يكون الشّينوي الذي تحدّث عنه السائق. لأنّه يشبه رجلاً من الصين. وفي القاعة قال إنّ مياه النهر جرفت أوّل أمس جثّة رجل كان أهله يعبرون به لدفنه في الضفّة الأخرى حيث المقبرة ولم يعثروا له على أثر. والتفت إلى الزاوية حيث يجلس رجل وامرأة. وهذا الرجل أكّد الأمر بهزّة من رأسه وضحكت المرأة التي بجانبه وقال الشينوي إنّه القاضي وهو يعرف هذه الأمور أحسن منّا. إنّه سكران شأنه شأن المرأة التي بجانبه. أمامهما صحن كبير من اللحم المشوي. المرأة غاطسة في الأريكة وتبدو كالبالون لأنّها غليظة بشكل مفرط. تلبس قفطانًا مزوّقًا وتأكل بلا توقّف وتضحك بصوت عال على كلّ كلمة تخرج من فم القاضي أو حركة يقوم بها. المسافرون توزّعوا على الموائد. لا أعثر بينهم على الرجل

العجوز. أثارت انتباهي امرأة تجلس وحدها وجلست إلى مائدتها. لم تنتبه إليّ لأنّها كانت منشغلة برزمة صغيرة فكّت عقدتها وأخرجت منها دجاجًا وخبزًا. بعد أن فكّت رزمتها ووضعتها على المائدة وقطّعت خبزتها قطعًا صغيرة رفعت رأسها ونظرت إليّ متبسمة وهي تمدّ إليّ قطعة خبز وتدفع لحم الدجاج أمامي. تذكّرت والدتي لأنّ هذه المرأة تشبه ما تبقّى منها في ذاكرتي أو هكذا تصوّرتها دون سبب معقول. أو ربّما لجمال طاغ بإلحاح رغم الأربعين التي تجاوزتها أو بسببها. الوجه أبيض ومدوّر والبشرة صافية والعينان كبيرتان ومكحّلتان والشفتان بارزتان شهيّتان بشكل يثير في النفس شعورًا خجلت منه. كشهوة عارمة تستولي عليك من حيث لا تدرين. (ربّما كان لوالدتي الشفتان نفسهما. كانت تقول لنا أنا وأختي ختيمة إنّها كانت أجمل فتاة في قريتها. وكان والداها يمنعانها من الخروج. وبقيت منسيّة في البيت حتى لم يعد يذكر جمالها أحد. بعد ذلك تزوّجها والدنا لأنّه كان بالصدفة مارًّا من هناك ولا يعرف قصّتها). لم يختف انزعاجي منذ أفقت وازداد حدّة بعد جلوسي إلى مائدة المرأة. والصور الموجعة التي توحي بها. توجّهت إلى المطاهر وغسلت يدي ووجهي بالماء والصابون. وجلست آكل، منشغلة بها أكثر من أيّ شيء آخر حولي. يدها لا تكاد تمسّ فمها وهي تلقمه قطعات صغيرة من لحم الدجاج وتمضغه ببطء شديد حتى لتقول إنّها لا تأكل. انتهت من الأكل. مسحت أصابعها. تقشّر الآن ليمونة وهي شاردة. أصابعها هي التي تشتغل. أمّا عقلها فسارح. أمعن النظر في محيّاها ويزيد انزعاجي. أحاول أن أتصوّر أشياء. وأقول جمال كهذا لا تمحوه الأيّام. إنّها ستظلّ على هذا الجمال طول حياتها. وكلّما أمعنت النظر ازداد يقيني أنّها قد تكون أختًا صغرى لأمّي وأنا لا أعلم هل كانت لأمّي أختٌ أم لا. دون أن أشعر لمست السّليبْ الذي ألبس ووجدته

مبلّلاً وتفكّرت حلمًا رأيته أثناء غفوتي في الحافلة. عزيز يجري في أرض فسيحة عارية، متّجهًا نحو الغابة بعد أن تسلّق أسوار قصبة عالية هاربًا من السرداب الذي وضعوه فيه. يسمع أصواتًا تلاحقه. يجري بسرعة أكبر. يدخل الغابة. أنا مختفّية خلف شجرة. أمسك بيده وأفتح له بابًا في الشجرة. نصبح في مكان فسيح بلا أفق يشبه سماء إذا أردت. وجدنا نفسينا عاريين وجالسين فوق السحاب. وهو ينظر حوله منبهرًا وعضوه منتصب كالعمود. أمسكت بعضوه ورحت ألعب به. أمسّده بيدي صاعدة نازلة. وسألته هل تعجبه لعبتي. فيغمض عينيه ويتمدّد على السحابة. ثم يحسّ بعضوه باردًا رغم انتصابه فيقول معتذرًا إنّه السحاب فأسأله هل يريد أن أدفّئه وأصعد فوقه وأحسّ بعضوه البارد يصعد فيّ حتى سقف الرحم وأنا أضغط كي يدخل أكثر ثم أصعد بدوري وأنزل بقوّة أكبر. هو أيضًا يتحرّك تحتي صاعدًا نازلاً ونبقى هكذا نتأرجح في السحاب وأنا أتساءل هل أنا صاحية أم نائمة. أنظر إليه لأعرف. عيناه مغمضتان ولا أعرف إن كان صاحيًا ويتلذّذ بهذه اللحظة بطريقته أم أنّه كان نائمًا. ثم فجأة يقلبني على ظهري ويضرب بعضوه أرجائي بعنف وهمجيّة لذيذة وأمسك به وأجره إليّ بالعنف نفسه وعرقه ينزل فوق وجهي كالمطر ويدخل عينيّ وأنفي وفمي. طعمه حلو في فمي. ثم أحسّ بقذفه يرشّ جوانب رحمي بلا رحمة كشلّال عنيف. وألمس السائل وإذا الذي ألمسه دم. أفقت منزعجة واستمرّ انزعاجي طويلاً وفي قاعة الأوبيرجْ وأنا جالسة أمام هذه المرأة ذات الوجه المليح أراجع حلمي، قلت لحسن الحظّ أنّ المرأة التي أجلس قبالتها لاهية عنّي، تقشّر ليمونة وهي شاردة. لحسن حظّي أنّهم جميعًا لاهون. المسافرون يأكلون. والقاضي يسكر والمرأة الغليظة تضحك وهي تلتهم اللحم المشوي. والشينوي يدور بين الموائد ويضع صحونًا ويرفع أخرى.

وخطرت ببالي هذه الفكرة: هل تكون هي أيضًا ذاهبة إلى القصبة؟

سألتها عن وجهتها وبدورها سألتني السؤال نفسه. ثم سألتها هل تعرف القصبة التي أقصد وحكيت لها قصّتي منذ زواجي أنا وعزيز حتى اختفائه والسنوات التي أمضيتها في البحث عنه. كأنّما كنت أطلب ودّها. ولفترة قصيرة رجوت الله أن تبقى معي. (وأفكار أخرى غير سليمة خطرت على بالي، تمنّيت مثلاً أن يستمرّ السفر أطول من الساعات التي بقيت. وتمنّيت أن أضع يدي في يدّها وأبقى ممسكةً بها طوال الرحلة). في الحافلة جلسنا إحدانا لصق الأخرى على يمين السائق. كتفها على كتفي. أحسّ بدفئها يخترق جسمي كتيّار لذيذ سال له ماء فمي. سألتني هل عندي أولاد. لا قلت لها وأنا أجد مبرّرًا لألتفت وأنظر إلى وجهها على خاطري.

فطنت إلى فضولي الجسدي وربّما إلى أفكاري المفضوحة فقلت لها إنّها تذكّرني بوالدتي وأنّها تشبهها كثيرًا. وقلت لها إنّ والدتي كانت جميلة. قالت إنّ لها أحد عشر ولدًا. وإنّها في شبابها كانت جميلة. أجمل فتاة في قريتها وفي كلّ القرى المجاورة والبعيدة. سوى جمالها لا موضوع آخر يستهوي الرجال. والشبّان يتخاطفون على خطبتها. يتراشقون بالبنادق من أجلها. الذي بسببها طلّق امرأته، والذي أقسم أن ينبذ الزواج ما لم يكن بها والذي قتل جاره أو صديقه. قبل أن تتزوّج بالرجل الذي سيكون أبا أولادها الأحد عشر وهو فلّاح فقير بالكاد يكسب قوت يومه، فاز بها رجل كان يتاجر في الحشيش. يوم الخطبة جاء على متن مرسيديس بيضاء جارًّا معه كلامه المنمّق وموكبًا من السيّارات الفخمة والعربات المحمّلة بمختلف الهدايا. مباشرة بعد الزواج، ولكي ينتقم من جمالها أصبح يسهر كلّ ليلة مع خليلاته في غرفة نومهما. ثم هجرها وتركها لسنين لا هي متزوّجة ولا هي مطلّقة.

ولولا تدخّلات الناس والمعارف ليطلّقها لظلّت على هذه الحال.

من جديد ألحّ عليّ الحلم الذي رأيت. وأنا أحاول أن أنساه وكلّما حاولت دخلت في تفاصيله وشعرت بخجل أكبر. أتذكّر عدد المرّات التي نمنا فيها معًا أنا وعزيز؟ خمس مرّات؟ ست مرات؟ وهل كانت بالهياج والرغبة والقسوة نفسها كما في الحلم؟ هذا الحلم رأيته مرّات عديدة في السابق. الحلم نفسه تقريبًا وكلّما نهضت منه كنتِ أنزف دمًا. لحسن حظّي لم يحدث هذا لا في قاعة الأوبيرج ولا الآن، في الحافلة، وأنا ملتصقة بالمرأة الجميلة.

II ذات ربيع من سنة ١٩٧٢

أحبّ أن أكون فرحانة. لم أفرح في حياتي مثلما أنا الآن. جالسة في القاعدة الجوِّيّة، في مقهى الطيّارين وأنظر إلى عزيز. إنّها المرّة الرابعة التي نلتقي فيها. أنظر إلى الطيّارين يدخلون ويخرجون في بدلاتهم الزرقاء يتكلّمون في مرح لا مبال. داخلين خارجين كما في بيتهم. عزيز لا يدخل ولا يخرج لأنّه جالس معي. وينظر إلى الطائرة غير الموجودة. الطائرة طارت منذ مدّة وبقي نظره معلّقًا على مكانها، على أرضيّة المطار، خلف واجهة الزجاج، على مقربة من المخازن. تحت السماء الرماديّة. وجوده إلى جنبي كموسيقى هادئة تدفّئ قلبي. منذ شهرين عندما التقينا في حانة اللقلاق. أفكّر فيه في كلّ وقت. بالليل والنهار. عزيز ينظر إلى الجهة نفسها. عقله مشغول بالطائرة. أعتقد أنّه ينتظر دوره ليطير. لم يقلها مباشرة. قال لي: أنا مللي كنطير ما كنبقاش انزل. قالها أمام الطيّارين الذين ضحكوا كثيرًا. ضحكت أيضًا. المقهى مسيّج بالزجاج. أينما التفتّ ترى القاعدة الجويّة. المطار ثم المخازن في هذه الجهة. والسماء قد تمطر رغم أنّنا تجاوزنا فصل الشتاء. بيوت الطيّارين في الجهة الأخرى. ثم المكاتب وسوق السلع. قال عزيز إنّه سيسكن أحد تلك البيوت قريبًا، قبل أن يكمل عامه الثاني لأنّ الكولونيل

يقدّره. قالها وهو ينظر إلى الجهة نفسها، أمامه، دائمًا أمامه، حيث حطّت الطائرة قبل لحظة. التفت إليّ وخرج يجري. أراه الآن قرب الطائرة. يعجبه صوت محرّكها. ضجيجه لا يعجبني لأنّه يصمّ الأذن ولكنّه يعجب عزيز. يقترب منها حتى يلامس وجهه وجهها ويشمّ رائحة حديدها. يتكلّم مع الطيّار. يختفيان معًا داخل المخزن. أنتظر أن يُشرق. عزيز. في بدلته الزرقاء الجميلة. الطيّارون في المقهى يدخلون ويخرجون ضاحكين. أصواتهم عالية. كان صوته سيكون عاليًا لو كان عزيز مثلهم في المقهى. ولكنّه مختفٍ في المخزن. وسيظهر بعد قليل. عندما يطلّ عزيز وهو يضحك سيهتزّ قلبي. للمرّة الثالثة، كلّما حطّت طائرة يغادر المقهى ليقف على مقربة منها وليتحدّث مع ربّانها وليختفيا معًا بعد ذلك في المخزن. خلف الواجهة الزجاجيّة حطّ عصفور. لو لم يكن هناك زجاج لحطّ على قلبي. ولكن هناك زجاج. قال لي صباح الخير وطار. هناك على الأرضيّة، خلف الواجهة، طائرة في لون الزيتون، كبيرة تبدو تحت السماء الرماديّة، سماء القاعدة الجوّيّة. كبيرة، مهيبة وصارمة. كطائر كبير. وهكذا يحبّها عزيز. يحوم حولها الآن بعد أن خرج من المخزن. وينظر جهتي. هو أيضًا فرحان لأنّه سيطير. ولأنّني سأراه وهو طائر. للمرّة الثالثة يحوم حول الطائرة. ثم يقفز بداخلها ويختفي. ثم تتحرّك الطائرة محدثة الهدير نفسه الذي يحبّ عزيز. تبتعد الطائرة، تصغر شيئًا فشيئًا، تصير في حجم الرمّانة ثم تختفي. أختي ختيمة تقول لي كلّميه عن الزواج. وأقول لها ما نقْدرشْ يا أختي. أستطيع فقط أن أبقى جالسة جنبه. أنظر حيث ينظر. وأرى ما يرى. عندما يكون معي يفقد دمي توازنه. عاجزة عن الكلام. عاجزة عن التفكير. عاجزة عن الوقوف حين يكون جالسًا. وعن الجلوس حين يقف. منذ اليوم الأوّل الذي رأيته في بار اللقلاق. عندما أخذ بيدي

وقادني جهة الكونطوار وقال لي والآن ماذا نفعل؟ قلت له نلعب. ومنذ تلك اللحظة ونحن نلعب. لا نحرم أنفسنا من أيّة لعبة كيفما كانت. ولكن أختي ختيمة تقول لي الزواج الزواج يا متعوسة. تريد أن تنقذني تقول. حتى لا أضيع كما ضاعت. ولكنّني ضائعة مع عزيز. لأنّني ضعيفة أمامه. مهما أفعل فسأكون ضائعة. لم نعد إلى بيت جوجو. بعد حادثة بار اللقلاق. بعد أن كسر عزيز فكّه وهشّم ركنُ المائدة ما تبقّى من رأسه انتقلنا إلى الفندق. غرفة بئيسة في فندق بئيس كما فعلنا في مرّات سابقة. لمدّة شهرين كاملين ظلّت فيهما أختي ختيمة تقول هل هذه حياة؟ سيأكلنا البقّ في أقلّ من أسبوع إذا بقينا في هذه الغرفة القذرة. وتقول لي، كأنّها خائفة أن تستمرّ حياتنا البئيسة على هذا النحو تْكلْمي معاه على الزواج ألمسخوطة. تغيّرتْ هي أيضًا. أصبحت تبكي كثيرًا. وعندما لا تبكي تفكّر في حياتنا الجديدة. بعيدًا عن جوجو والقوّادة. بعيدًا عن الغرفة البئيسة. حياتنا التي لم نمسكها بعد. لهذا تغالي في كلّ شيء. كأنّما لا تصدّق أنّها قد تتخلّص في يوم من الأيّام من حياة الدعارة. كأنّما سيستمرّ شبح ماضينا وحاضرنا في تهديدنا إلى الأبد. لا تمضي ساعة من النهار حتى أسمع صوتها: هضري معاه على الزواج غدًا. أختي ختيمة لا تستطيع أن تفهم ما أريد. ما أريد هو أن أبقى معه. بالزواج أو بدونه. عندما انتهى من طيرانه عاد إلى المقهى أكثر توهّجًا. كأنّما كان في الحمّام. هل الطيران يحدث كلّ هذا التبدّل؟ جلس ملتصقًا بي هذه المرّة وهو يفرك يديه. والطيّارون ينظرون إلينا. ويبتسمون. يرشفون كؤوس البيرة ويبتسمون. يبدون سعداء. يبدون بلا هموم. ببدلاتهم الأنيقة. وأنا فرحانة لأنّ عزيز مثلهم بلا هموم ويجلس جنبي. ولأنّهم يسترقون النظر إلينا. في الشارع ينظر إلينا العابرون أيضًا. أنا وعزيز تحت مطر مارس. أحيانًا تحت المطر وأحيانًا بلا مطر.

والفتيات يتوقّفن، نعم، في الشارع الكبير، تحت شجر الجاكاراندا، وعزيز ممسك بيدي، وهنّ ينظرن إلينا، إلى بدلته الزرقاء أوّلاً، المكويّة بعناية، ذات الأزرار الذهبيّة، ثم إليّ، ويتساءلن من هي هذه البنت الصغيرة التي تسير جنب الطيّار، وأنا جنبه أسير، وأحسّ بيدي الصغيرة تعرق في يده، وأخجل، وأسحبها، وأنتظر أن تعود اليد، يده في البحث عن يدي. وأقول لا أريد أكثر من هذه الارتعاشة الخفيفة التي تسري في كلّ جسدي وأنا أرى يدي تنتظر يده. ختيمة وحدها تتصوّر أشياء أخرى وعندما أعود إلى البيت صباح الأحد تقول لي واشْ هْضرْتي معاه على الزواج؟ لا، في رأسي فكرة أخرى. لن أقولها لها. لن أقولها لأحد.

في ذلك النهار، في تلك اللحظة، عندما ضرب جوجو على وجهه لم أكن أتوقّع شيئًا. والفكرة لم تكن موجودة. لم يدخل لعقلي التبدّل الذي سيحصل فيّ. ولم أكن لأتصوّره. لو رأيتُ نفسي لحظتها لما تعرّفت عليها. وحتى عندما قال لي عند الكونطوار آش غادي نديرو دابا لم تكن الفكرة حاضرة. الفكرة شقّت طريقها شيئًا فشيئًا. كخيط ماء تحت الرمل. بعد أيّام جاء مرتديًا بدلته الرياضيّة كما في المرّة التي سبقت. وقال إنّ معرضًا كبيرًا حطّ في طرف المدينة بألعابه وحيواناته وموسيقاه.

قال لي تمشي معايا لْلافوار؟

وقلت له نمشي معاك لْلافوار.

صورته قبل أن تدخل إلى عقلي كانت قد رسخت في قلبي، فجأة، كأنّما في غفلة منّي، دخلتْ والتصقت به ولن تزول. في المعرض ركبنا أرجوحات كبيرة تدور في الهواء، مربوطين على الكرسيّ الحديدي ونطير. مع كلّ دورة يهتزّ قلبي ولا أعرف هل من رعب أم من فرح. قلبي يغادر صدري ولا أعرف متى سيعود إليه بعد رجة كهذه. فأصيح

ولا أسمع صياحي. بسبب الريح. ولا يسمعه عزيز. وأرمي رأسي على صدره. ويهدّئني وهو يقول لي كلامًا لا أسمعه وأحسّ أنّني هدأت لأنّني قريبة من صدره.

ثم ركبنا سيّارات كهربائيّة صغيرة. كلّ وسيّارته حتى نتصادم ونحسّ بالصدمة في قلبينا. يهجم عليّ وأهجم عليه. ونضحك. يضربني بقوّة وأضربه برفق. وأخجل لأنّني ضربته. ثم يعاود الهجوم وأحاول أن أتجنّب ضربته ولا أفلح. لأنّه أقوى منّي سواء في بدلته الرياضيّة أو في بدلته العسكريّة. رغم الشحوب على خدّيه فإنّه قوي. رغم الحزن الذي في عينيه فإنّه يحبّ الضحك. قالت لي ختيمة إنّه يشبه عبد الحليم حافظ. وأنا أحببت عبد الحليم حافظ منذ تلك اللحظة لأنّ عزيز يشبهه. وقد ذهبت إلى السوق واشتريت بتلوموني ليه لأغنّيها في كلّ مكان. في الحمّام. في الشارع وأنا أسير وحيدة. في الشارع وأنا أسير مع عزيز. في السرير وأنا نائمة أو صاحية أفكّر فيه. على السيّارة وأنا جالسة جنبه. وعلى سيّارة لافوار الكهربائيّة وأنا أهرب من ضربته. فرحانة أغنّي بتلوموني ليه، هاربة منه، وأحسّ الضربة خلفي تلاحقني حتى قبل أن تصل. تهدّدني ساخرة من خوفي المرتجل، ويهتزّ قلبي لأنّ عزيز هو الذي يجري خلفي وسيضربني بسيّارته الكهربائيّة. باف. وأضحك، وأنا أغنّي في خاطري، وأنتظر الضربة. باف. أختي ختيمة خائفة عليّ لأنّني صغيرة. ستّ عشرة سنة. أقول لها إنّني كبيرة حتى في السادسة عشرة. أختي ختيمة تقول لي ستكبرين عندما تتزوّجين بعزيز. ولا يهدأ لها بال حتى تلقي عليّ لازمتها: هضري معاه على الزواج الْمسخوطة. ولا أقول لها شيئًا هذه المرّة. لنفسي فقط أقول لا أستطيع. عندي فكرة أخرى. شقّت طريقها نحو عقلي جزءًا جزءًا. سأقولها له. ليس الآن. فيما بعد. بطريقتي الخاصّة. وما أفكّر فيه، فكرتي، هو أن يمسك بذراعي كما

يفعل دائمًا، يقودني إلى غرفة النوم ويفعل معي ما يفعل الرجل مع المرأة. أفكّر في هذا بالليل والنهار. تمنعني الفكرة من النوم في الليل وتجعل الحرارة تسكن جسدي في النهار. وقلتها له في النهاية، ونحن بسيّارته في الطريق الغابويّة بين آزرو وفاس، ونسيم المساء يلعب في رأسي، ورائحة شجر الأرز، والغابة حولنا من كلّ جهة، وأغنية بتلوموني ليه تدور في رأسي، بطريقتي قلتها، ونحن نعود إلى بيته على أطراف آزرو، عبر الطريق المسائي نفسه. بْغيتْ نْقولْ ليكْ شي حاجة، همست له. فاحمرّ وجهي من الخجل وخفّضت بصري. هل يدرك من احمرار وجهي ما أريد قوله؟ أعدّ المرّات التي غادرنا فيها الطريق نفسه باتّجاه البيت. إنّها المرّة الرابعة التي أنوي أن أقولها له. ولا أعرف هل خرج من فمي كلام أم لا. هذه المرّة أيضًا اعتقدت أنّني قلتها. ثم ونحن نقترب من البيت، اعتقدت أنّني قلتها له مرّة أخرى. لمّحت له. قلتها له بعيني. وبفكري. وباحمرار وجهي. كلامي الذي كنت أريد أن أسمعه إيّاه لم يسمعه. وهو مستمرّ يحدّق في الطريق. ولكنّه أدركه. أعتقد أنّه أدرك ما أفكّر فيه وما كنت أودّ إيصاله إليه.

لن أكترث لما ستقوله أختي كما لم أكترث من قبل. لأنّني أحبّ عزيز، منذ اللحظة الأولى، في بار اللقلاق، عندما رأيته يدخل البار في كسوته الرياضيّة. بيته متّكئ على الغابة. (إذا مددتِ ذراعكِ من النافذة تستطيعين أن تمسكي بأغصان الشجر). وهو ما كنت أفكّر فيه وأنا ملتصقة به في السيّارة. ثم ونحن نسير في اتّجاه البيت، وأعدّ الخطوات في خاطري وأقول الآن سيأخذني إليها، إلى غرفته. وتسري في بدني رعشة لذيذة. لأنّني كنت مستعدّة. لا أرى داعيًا لأن أقول له شيئًا آخر. ولكنّني مستعدّة. كلّ شيء يأتي في وقته. عندما غادرنا القاعدة الجوّيّة لم نتّجه إلى آرزو مباشرة. ذهبنا إلى الميناء، في المهديّة. لقد غادرنا

القاعدة وهو فرحان لأنّني رأيته يطير. وأنا لم أكن لأهتمّ بالأمر سواء طار أم لم يطر. وهو يتكلّم عن طائرته وعن تصرّفاتها وأنا أقول إنّه سينسى موضوع الطائرة ولكنّه لم ينس. الآن، وقبل الآن، وفي كلّ الأيّام التي أوجدني الله فيها جنبه، فإنّه يجلس جنبي ويبقى عقله مع الطائرة. أنا لم أطلب منه أن يطير. ولكنّه يلحّ. يريد لو أستطيع أن أراه في كلّ ساعة وهو محلّق في السماء. قالها في المقهى وفي الطريق. وفي الميناء ونحن نشتري السمك. وفي الغرفة وهو ممدّد جنبي على السرير. كيف أفسّر له أنّني أحبّه بدون الطائرة. بقيت أتفرّج على السفن التي تفرغ صناديقها على رصيف النهر بينما عزيز يشتري السمك. صواري السفن مرفوعة الرأس كغابة تتوق إلى السفر والنوارس تحطّ عليها كما لو كانت شجرًا في الغابة. يقترب منّي عزيز. يقول لي في القاعدة الجوّيّة عندنا كلشي. ما نحتاجوش نخرجو إيلّا ما بغيناش. يسكت ثم يقول في لاباز عندنا كلشي من غير السمك. وأنا أقول ربّما إنّه يحبّ القاعدة الجوِّيّة أكثر ممّا يحبّني. وعندما سيصبح له بيت في القاعدة كالطيّارين الآخرين لن يعود في حاجة إلى مغادرتها. كلّ شيء موجود في القاعدة الجوّيّة. ما عدا السمك. وقد أخرج لأشتري له سمكًا بينما يكون محلّقًا في السماء بطائرته. يعود عزيز جهة البائع وهو يضحك. والنوارس تلعب فوق رؤوس البحّارة وهم ينقلون الصناديق العامرة بالسمك. وقطط تتابع متأسّفة السمكات التي تسقط من الصناديق ويبتلعها ماء النهر قبل أن تصل إلى اليابسة. أنا لا أحبّ السمك. ما عدا السردينْ الذي كان الوالد يجلبه من السوق.

في المطبخ أعدّ السمك الذي سيأكله عزيز. أسمع خطواته في البهو. أشمّ رائحته قبل أن يقترب. هل يقترب؟ نعم، يقترب منّي وأحسّه خلفي يداعب شعري. وأتذكّر أنّني لم أقل له بعد. ويصعد الدم إلى

وجهي وأنا أحسّ عضوه المنتصب على مؤخرتي. وأنسى... عندما يلمسني... كأنّ صهدًا يصلي وجنتي... كأنّ كرة تحبس نفسي... ثم أحسّ النفس يتقطّع إلى أربع نوطات... كالموسيقى... ثم أحسّ بماء يبلّلني من تحت وأجمع فخذي في خجل كي لا ينزل. وأقول لن يحدث هذا عندما يفعل معي ذلك الشيء الذي يفعله الرجل مع المرأة. سأصبح عاديّة، امرأة عاديّة، امرأة لا تعرق، ولا يسيل من تحتها ماء كلّما اقترب منها. امرأة بالزواج أو بدونه. ما أريد فعلاً هو أن ينام معي نومة الرجل مع المرأة. في المطبخ أيضًا لم أقل له. لأنّ وقفته خلفي دوّختني. كلّ شيء يأتي في وقته. فكّرت أيضًا في الدم. هل سيسيل منّي دم كثير؟ رأيت في قريتنا فلّاحًا يجرّ كلبة ليرميها في حفرة عميقة لأنّ أحد الكلاب اغتصبها. لم يكن يسيل منها دم. ولكنّه كان يحلف أنّ الدم الذي نزل منها كثير. وكان فلّاحون آخرون يتبعونه يحملون الحجارة ليرجموا بها الكلبة الفاسقة. لن أقول لختيمة شيئًا. أختي ختيمة لا تفكّر في الشيء نفسه. أختي ختيمة تقول فقط هضْري معاه على الزواج قبل ما يفوت الفوت. فات الفوت يا أختي. وأنا أفكّر في الشيء نفسه ولكن بلا خطبة وبلا زواج. الزواج نفسه إنّما بلا مراسم. بلا مراسم ولا ورقة نكاح ولا من يحزنون. ما يسكنني يشبه الحمّى. نسير نحو غرفته، يدي في يده ولا نقول شيئًا. ربّما إنّه يفكّر في كلامي الذي لم أقله. كلامه الذي لم يقله يمرّ من يده إلى يدي. وهذا كاف. لم يسألني لأنّني لم أقل له. ولكنّنا متّجهان نحو غرفة النوم والسرير وما سيقع فوقه بسبب الحمّى التي تسيطر علينا معًا. لم يقل شيئًا. ولكنّه فهم. الرجال يفهمون هذه الأشياء. خصوصًا واحد مثل عزيز. رغم أنّ عقله مشغول بالطائرة. بعد قليل سنطير معًا.

III الثلاثاء، ١٥ غشت ١٩٧٢

أختي ختيمة تقول بيت لالة زهرة هو المكان المناسب للعرس. حتى نثقب عيون الجارات. لأنّه بيت كبير. في الخامسة صباحًا كنّا عند باب البيت ننتظر ظهوره أنا وبنت من الدار اسمها شامة. توقّعنا حضوره بالأمس ولكنّه لم يحضر. وكنّا ننتظر ظهوره هذا الصباح كما توقّعناه بالأمس، وفي الليل. طوال الليل. صاعدًا. أحيانًا بالكسوة وأحيانًا بدونها. ونساء كثيرات يطللن من النوافذ وعبر الأبواب. وزغاريد. وغناء بالطبل والغيطة. وعدنا نطلّ بعد خمس دقائق. ثم بعد خمس دقائق أخرى. وهكذا حتى ضربت أشعّة الشمس الأولى جدران البيت. وقالت لالة زهرة إنّها السابعة صباحًا ثم غسلنا الدار من الفوق لتحت. لالة زهرة في باحة الدار جالسة على هيضورتها القديمة تدخّن سيجارتها الأولى وتسكر وتقول يالآه أ لبناتْ طلْقو راسكم، إنّها تستعدّ لبداية نهار استثنائي. لا تزال لالة زهرة محتفظة بالبيت نفسه والحماس نفسه. انتفخت بعض الشيء ولكنّها لا تزال هي هي. ونحن نتنقّل بسطولنا من ركن إلى ركن. يضحكنا الماء. يضحكنا اندلاقه البارد على أرجلنا وسيقاننا. ويضحكنا وهو يبلّل حوافي تنّوراتنا. نحن يعني أنا وأختي ختيمة. ويعني أيضًا زبيدة الشلحة. ويعني أيضًا عيْشة الدكاليّة وشامة

العبديّة. فقط لالة زهرة لا تفعل شيئًا. تسكر، محتفظة بوقارها وتعطي الأوامر. كما لو تكون في كلّ مكان. ونحن لدينا هذا الانطباع: لالة زهرة في كلّ مكان. بعد ساعتين كانت الدار مغسولة من الداخل والخارج. النساء يتوقّفن في منتصف العقبة يلتفتن جهة البيت المغسولة جدرانه ونوافذه وبابه ويتساءلن هل هي لالة زهرة ذاهبة إلى الحجّ بعد أن تابت؟ يقول لها البنات ويلي، لالة زهرة لم تفق بعد من سكرة السنة الماضية. وهذه الرايات؟ زينة ستتزوّج. مرحبًا بكنّ جميعًا في بيت لالة زهرة. في الصباح الباكر غسلنا الدار إذن بالماء وجافيل من فوق إلى تحت. حتى شجرة التين في باحة الدار غسلناها. وتسلّقنا عروشها لنجني فاكهة نضجت قبل أيّام. تين أسود أحلى من السكّر. بقيت رائحة أوراق التين عالقة بثيابنا طيلة النهار. ثم جاء الجيّار وطلى الجدران بالجير الأبيض. وعلّقنا جنب الرايات فوق الباب مكبّر الصوت حتى يسمع كلّ حي العقبة رويشة ومَغْني وهما يطلقان صوتيهما الجبليّين القويّين. صوتاهما سيتجاوزان الزنقة ويغطّيان الحيّ. وأستطيع أن أضيف كذلك: باكرًا بدأت لالة زهرة تبكي. كانت فرحانة. لم تشهد دارها عرسًا من قبل. أدّت ثمن الجوق وأجرة العدْلين اللذين سيكتبان الكتاب. البنات يمازحنها: شحال من عرس داز في هاد الدار أ لالة زهرة؟ إنّه العرس الأوّل. الوحيد في سلسلة سنواتها القاحلة. لهذا لا تريده أن يمرّ كالجنازة. واشترت الدجاج الذي سيأكله الضيوف. ثلاثون فرخًا وعشرة كيلو من لحم العجل. واللوز والبرقوق المجفّف وفواكه الموسم. ثم التفتت جهتنا وقالت: الدكاليّة وشامة سيتكلّفان بترييش الدجاج. وزبيدة الشلحة ستتكلّف بالحلوى. وختيمة ستتكلّف بزينة. وأنا منذ تلك اللحظة لم أعد في السادسة عشرة. كبرتُ. ما بين جملتين. سمعت لالة زهرة تتكلّم عن العدلين وعن الجوق والضيوف وكبرت.

عزيز لا يعرف شيئًا عن الرايات ومكبّر الصوت والجوق والحلوى. عزيز ظهر في الحادية عشرة صباحًا. كأنّما استعداداتنا لا تعنيه. منذ الخامسة صباحًا ونحن عند عتبة الباب. لا ندخل إلّا لنخرج. وفي كلّ مرّة نقول ها هو قرّبْ يجي. ولكن لا شيء يدلّ على أنّ استعداداتنا ستعجّل بحضوره.

ثم ظهر في الحادية عشرة صباحًا، عندما اعتقدنا أنّنا نسيناه. أطلّت نسوة من النوافذ ولكن ليس بالعدد الذي رأيت في الليل وأنا أحلم بالعرس وبالرايات والمغنّين. سيّارة المرسيدس السوداء دفعت أختي ختيمة إلى إطلاق زغرودة طويلة وعالية. على متنها ثلاثة رجال. السائق الذي بقي خلف مقوده. وعزيز الذي نزل في كسوة الطيّار بنياشينها وأبّهتها وأصدافها النحاسيّة التي تبرق تحت شمس الحادية عشرة صباحًا. والرجل الآخر في كسوة أكثر أبّهة. وقال عزيز هذا مونْ كولونيل رئيس القاعدة الجوّيّة جاء بلحمه ودمه ليسلّم عليك. وكان الرجل يربّت كتفيه ويبتسم. لم يمكث طويلاً. سلّم على لالة زهرة وشرب معنا كأس شاي وانصرف. ثم نهض عزيز وباسني على خدّي وذهب إلى البار. سيعود فيما بعد، بعد ساعة أو أقلّ قال، عندما نكون جاهزات، عندما يكون كلّ شيء جاهزًا.

وعزيز جالس الآن في بار اللقلاق يسكر ويتحدّث مع مدام جانو.

ثم وجدتني عريانة، على السطح، وأختي ختيمة تصبّ فوق رأسي الماء. صدري خاو. أملس. يشبه صدري الذي كان وأنا دون السادسة عشرة. بلا نهدين. سيكبران بعد الزواج. لالة زهرة عندها نهدان في حجم شكوتي لبن. وهي التي قالت لتواسيني سيكبران بعد الزواج. إنّها كانت مثلي من قبل. من قبل ماذا؟ لالة زهرة لا تعرف شكل الزواج. لا تعرف حتى ما إذا كان للزواج شكل. عندما هبطنا إلى غرفة لالة زهرة

جاءت الدكاليّة بالكسوة البيضاء التي زفّتْ فيها سبع سنوات من قبل، قبل أن يهرب رجلها إلى إيطاليا. وأخرجت لالة زهرة من دولابها القديم قفطانين ثقيلين. جميع من في البيت اجتمعن في صحن الدار ليطلقن زغردات مدوّية وهنّ يرين الكسوة البيضاء. استغرقت الحنّاء ساعات طويلة. كلّ الساعات التي كنّا بحاجة إليها ريثما يغادر عزيز البار. نحن لا نرى ما يحدث خارج الغرفة. نسمع ضجيج الجارات وصياح أولادهنّ ونتصوّر فناء البيت ممتلئًا. زبيدة الشلحة جاءت بالعجينة في يديها حتى المرفقين. رافعة يديها إلى أعلى حتى نتصوّر الحلوى التي ستعدّ للضيوف.

لالة زهرة هي اللي قالت كسوة العروس ها هي ولكنّ البغلة أين هي؟

ما حاجتنا إلى البغلة يا لالة زهرة؟

قالت إنّ العروس تخرج من دار أبيها على بغلة. هذه هي العادة.

ثم تعقّدت الأمور أكثر. لم نكن قد انتهينا من موضوع البغلة عندما قالت الشلحة في باديتنا لا تخرج العروس من بيت والدها. تختفي أوّلاً عند إحدى الجارات. ونذهب للبحث عنها لنعيدها إلى بيتها. حتى تتذكّر أنّ لها أبًا وأمًّا. حتى تتذكّر أنّ لها بيتًا بابه مفتوح تستطيع أن تعود إليه إذا لم تسر الأمور على ما يرام. بعدها يأتي العريس ليأخذها إلى بيته على بغلة ثانية. لكلٍّ بغلته. وأتصوّر أنّه في جميع الحالات ستكون البغلتان أفضل من بغلة واحدة. ولا أقول هذا لأحد. لا أقول لهنّ مثلاً عزيز عنده سيمكا ميل. لا أقول شيئًا. أرى في خيالي عزيزْ راكبًا على بغلته وأضحك. يضرب بغلته ويصيح فيها أن تطير وأنا أجري خلفه وأمسك به. ثم يأتي دوري فأترك بغلتي تتقدّم أمامه. أركض ويركض خلفي وهذه المرّة لا يلحقني. وكنت أضحك من كلّ هذا لأنّني تذكّرت

ذلك اليوم الذي ركبنا فيه السيّارات الكهربائيّة.

قالت ختيمة وهي تمشّط شعر رأسي لا تحرقي أعصابك. هذه أمور لا تخصّنا لأنّه لا أب لنا ولا أمّ. ولا بيت قد نعود إليه إذا سارت الأمور على غير ما نشاء. ثم إنّ عزيز عنده سيمكا ميل.

وأنا قلت سيمْكا ميلْ أحسن من البغلة.

قالت لالة زهرة هذا هو بيتكما.

قالت الشلحة ولكن قبل من هادا، خصْنا ندّيوها لدار أخرى. ومنها نْجيبوها هنا.

على البغلة؟

معلوم على البغلة.

والعريس؟ لم يصل دوره. سيأتي دوره فيما بعد. إنّه يسكر الآن في بار اللقلاق. ثم إنّ الوالدين لا وجود لهما في هذه القصّة.

ثم تلتفّت لالة زهرة إليّ: بْغيتي العرس ولا لا؟ ولم تنتظر رأيي.

وأنا رأيي هو أنّ عزيز عنده سيمْكا ميلْ وليس بغلة. وأنا رأيي هو أن ينتهي كلّ هذا السيرك لنذهب معًا إلى البيت. بالبغلة أو بدونها. ولن نغادره. سألتني أختي ختيمة عن بيته. قلت في الغابة. وضحكنا. نعم، في الغابة، بعيدة عن بار اللقلاق، بعيدًا عن الفندق البئيس، محاذية لغابة الأرز. بعيد عن كلّ الغرف البئيسة في الفنادق البئيسة التي تكره ختيمة. ساعدتني البنات على ارتداء القفطانين الثقيلين. في الرابعة ظهرًا ملأت رائحة الدجاج بالزعفران أركان الدار واجتاحت كلّ الغرف. ورائحة الحلوى. ورائحة العود والحنّاء والندّ وماء الورد. كلّ الروائح التي توحي بأنّ حدثًا سعيدًا يدقّ باب لالة زهرة. في الرابعة كانت الاستعدادات قد انتهت. ولكن أين عزيز؟ الجوق والعدلان والدجاج

الذي سيأكله العدلان والحلوى التي هيّأت لنا زبيدة الشلحة بعرق يديها. والبغلتان وصاحبهما ظلّوا ينتظرون عند الباب. كلّنا ننتظر عزيز. لالة زهرة بدأت سكرها باكرًا. والشراب بدل أن يسكرها جعلها أكثر يقظة. عندما يمسك رئيس الجوق بكمنجته ليطرد ضجر الانتظار، تنهره ويدها على أوتار الآلة: آش كتدير أ لَعْورْ؟ صبْعانكْ كَياكْلوكْ؟ ألا يستطيع الأعور أن ينتظر حتى يحضر العريس؟ قلت لختيمة: أختي، فيا الصهد. لم تسمع. تفكّر في عزيز هي الأخرى. وفي بيت عزيز الذي يقع عند حافّة الغابة. أخيرًا ستغادر غرفة الفندق. غرفة البقّ كما تسمّيها. تقضي الليل وشمعة مشتعلة عند رأسها حتى تخيف البقّ الذي يعشّش في ثقوب الغرفة. لم يظهر عزيز حتى منتصف الليل. كان العدلان قد ناما في مكانهما. والجوق غادر. وصاحب البغلتين قرّر ألّا يأخذ أجر تعبه وتعب بغلتيه. عندما مدّت له لالة زهرة ورقة ماليّة خضراء سألها لماذا، لم أقم بأيّ عمل. وجرّ بغلتيه وعاد إلى جبله. عكس رئيس الجوق الذي لم يحرّك آلة ومع ذلك لم يتزحزح حتى أخذ أجره كاملاً. والعدلان ناما بدون عشاء. أمّا عزيز فإنّه يسكر وينتظر أن نكون جاهزات.

في العاشرة ليلاً كان لا يزال في البار. عندما أرسلنا زبيدة بعد العاشرة كان قد اختفى. قال لها عبد السلام أخذتهما الفاركونيط إلى الكوميساريّة هو وجوجو. نحن لم نكن حاضرات. زبيدة هي التي حكت لنا الواقعة. هي نفسها لم تعاين ما حدث. عبد السلام هو الذي قال إنّ عزيز تشاجر مع جوجو. وربّما كسّر أنفه. هذه المرّة لم يستطيعوا عمل شيء لأنّ الفاركونيط كانت واقفة عند باب البار. رمت لالة زهرة جلّابيتها على ظهرها وجرت إلى الكوميساريّة. إنّها تعرف الكوميسير شخصيًّا لأنّه يسكر مع بناتها ليلة كلّ اثنين. ولمّا لم تجده في الكوميساريّة ذهبت إلى بيته. وهذه المرّة حضر الجميع إلى العرس. على

متن الفاركونيط نفسها التي كانت قد أخذتهم إلى الكوميساريّة قبل ساعات. عزيز والكوميسير وجوجو بضماد عريض يقسم وجهه شطرين. وسائق الفاركونيط ببدلته البوليسيّة. دخلوا دار لالة زهرة الواحد خلف الآخر. في وقت متأخّر من الليل. وكانوا يضحكون. خيبة أمل الكوميسير كانت كبيرة عندما اكتشف أنّ الجوق وموسيقيّيه غادروا. وكان ينوي اللحاق بهم لإعادتهم حتى يكتمل العرس ولكن رائحة الدجاج بالزعفران كانت طاغية. ولا ندري هل هي الجلبة الطارئة أم رائحة الدجاج هي التي أيقظت العدلين من سباتهما. أخرج عزيز الخاتمين. في إصبعي وضع خاتمًا ووضعتُ في إصبعه الخاتم الثاني. وأصبحنا زوجين منذ تلك الساعة كما لم أكن أتصوّر. وكما قالت لالة زهرة قبل أن تطلق زغردة سكرانة. وقرأتْ معنا الفاتحة وهي سكرانة. حتى الكوميسير. وحتى جوجو. والشرطي سائق الفاركونيطْ.

وأنا قلت في خاطري لقد أصبحنا زوجين قبل هذه اللحظة. عندما سرت جنبه ويدي في يده إلى غرفته المطلّة على الغابة ونمت معه ورأيت في الصباح نقطتي دم على الإزار الأبيض.

IV الأربعاء، ١٦ غشت. يوم الحدأة

يوم مجنون من أوله إلى آخره.

كلّ الذين رافقونا في الليل وطافوا بنا الأزقّة وهم يتصايحون تركونا عند عتبة البيت وغادروا. ما عدا أخته خديجة التي لم تحضر العرس حتى تكون في استقبالنا. هذه هي العادة. لا، قال عزيز إنّ أخته لا تحتمل الزحام. هذا هو السبب. ترعف بمجرّد أن يسخن جسدها. وكذلك الأمر بالنسبة للأشخاص. قال عزيز ما إن يلمسها رجل أو يحاذيها حتى يسيل أنفها.

يوم غريب فعلاً. كلّ شيء فيه غريب. تعتقدين أنّه سيكون استثنائيًّا هذا اليوم قبل أن يصل. وإذا به فعلاً كذلك إنّما بطريقة لا تتوقّعينها إطلاقًا. وقد بدت غرابته بمجرّد وصولنا، عندما قدّم لي عزيز أخته التي لم أسمع بها من قبل: هذه أختي خديجة. لم تكن في البيت في المرّات السابقة. قال عزيز إنّه جاء بها من البادية لتبقى معي. وقال إنّها ظلّت عند خال أمّه ولم تتزوّج لأنّها تخاف من الرجال. وهو يوم غريب كذلك بسبب رفض عزيز خلع كسوته العسكريّة. وربّما قبل ذلك، في بيت لالة زهرة، عندما رفض ارتداء الجلباب الأبيض الذي أعددنا له والبلغة الصفراء. قضى اليوم في بار اللقلاق، مرتديًا كسوته، ناسيًا العرس بمن

فيه. أو كأنّما في باله عرس آخر، يعنيه ولا يعنينا. وقضى الليل دون أن يرغب في خلعها. يدخل غرفة النوم ويغادرها في الحين. يجرّ رجليه في أركان البيت غاديًا رائحًا، كرقّاص المنبّه. وربّما كان مثله يعدّ الثواني... تِكْ تاكْ تك تاك... ولكنّني فرحانة مع ذلك. بسبب كلّ الذي حدث. والذي لم أكن أتوقّعه. ثم سمعته يقول خصني نمشي. خصني نرجع للاباژ. نسي العريس أنّه عريس. استقرّ عقله على هذه النغمة. كالوسواس. خديجة نامت بمجرّد أن فتحت النوافذ لأنّها ترعف بسبب الصهد. وبات عزيز يذرع أركان البيت وهو لا يفكّر إلّا في العودة إلى القاعدة. خصني نرجع. لم يتمدّد على السرير كما يفعل البشر في ليلة كهذه. قال إنّه يخشى أن ينام. لا يريد أن ينام لأنّ عليه أن يلتحق بالقاعدة الجوّيّة. ونسيت أنّني العروس. رغم الخاتم والكسوة البيضاء ورائحة الحناء. لم أنم. ليس بسبب الحرّ الشديد الذي ينزل على آزرو في كلّ صيف، ليس بسبب الحالة التي كان فيها عزيز. وإنّما لأنّني أضع قدمي في هذا البيت بالشكل الذي كانت تحلم به أختي ختيمة. إنّها تنام مرتاحة في بيت لالة زهرة. ستغادره غدًا لتلتحق بي.

أرى البيت لأوّل مرّة من هذه الزاوية: على وقع هذيان عزيز. على وقع خطواته المترنّحة التي تذرع أركانه في كلّ اتّجاه وتردّد معه خصني نمشي. خصني نرجع. وأنا أتساءل ماذا يريد أن يفعل في القاعدة الجوّيّة وهو في عطلة؟ ماذا يريد أن يفعل في القاعدة الجوّيّة في الثالثة صباحًا حتى بدون عطلة؟ أفكاري لا تغادر مكانها. كفكرة عزيز عن القاعدة الجوّيّة. ثم جلس أخيرًا وسرحت عيناه بعيدًا. وقلت ربّما قد يكون نسي. هدّه السكر والتعب والمشي وربّما يكون قد هدأ وسينام. على وجهه مرارة. تكشيرة تشبه الفقد. لا لم ينس. لم ينته إلّا ليبدأ نشيده من جديد. عاد يقول إنّه سيذهب إليها. فمه هو الذي

قال: غادي نمشي لْلاباز. لا يظهر عليه أنّ عقله وباقي الجسد يدرك ما يخرج من الفم. بقي جامدًا في مكانه. كواحد يحلم: غادي نمشي لْلاباز. وربّما قالها بعينيه فقط. ثم بدأ يبحث حوله. جذب جرابه وبدأ يفرغه من محتوياته. عمّ يبحث؟ ماذا يدور في ذهنه؟ هل نسي القاعدة وتذكّر أشياء أخرى؟ لا. عزيز يبحث عن قفّازاته. قفّازات ربّان يرغب في أن يطير في الحين. مع الفجر كنّا كلانا متعبين. ولم ننم. بدل أن ننام استمررنا نبحث عن قفّازاته. الطيّار لا يطير بدون قفّازات. فين هما الصباعات ديالي؟ لن يطير عزيز بدون القفّازات ولو كانت الطائرة تنتظره عند الباب. وأنا كنت أفضّل ألّا يطير. بالقفّازات أو بدونها. كنت أفضّل أن يجلس كأيّ شخص متزوّج للتوّ وفي عطلة. يفرح بليلة عرسه ولا يذهب إلى القاعدة الجوّيّة. ولا يذهب إلى أيّ مكان. طلب منّي أن أبحث عنها في جرابه. جرابه فارغ ومحتوياته مشتّتة على الأرض لكثرة ما بحث فيه. وبدل أن يسمع ما قلت عاد يصرخ: قلّبي في الصّاك. جاء صوته من خلف ظهري. لا وجود لقفّازاته في الصّاك. التفتّ إليه. كان يراقب حركاتي، بعينيه الحمراوين، عيني واحد لم ينم، عيني واحد خارج عن طوره، سكنته شياطين أخرى، يراقب الجراب وينتظر مصدّقًا أن تظهر قفّازاته خارجة منه. ثم صعدنا إلى السطح ونحن نعرف أنّنا لن نجدها في السطح. بعد نصف ساعة أخرى خرجنا لنرى ما إذا كانت معلّقة على حبل الغسيل عند باب الدار. ونحن نعرف أنّها ليست منشورة على حبل الغسيل. كانت أولى علامات الفجر قد بدأت تنشر ضوءها فوقنا. وقلت ربّما لن يغادر آزرو لأنّه لم يعثر عليها. كنت خاطئة. استمرّ في بحثه بينما دخلت غرفة النوم لأبكي قليلاً. تذكّرت أختي ختيمة التي بقيت في بيت لالة زهرة. قالت لي هذه ليلتك. سألحق بك في الغد. لالة زهرة بكت بسبب

الويسكي الكثير الذي عبّت. وبكت البنات لأنّنا سنودّعهنّ ونودّع حياتهنّ التي لم يخترنها. ولكنّ الغد أتى على غير ما تصوّرتْ أختي. ماذا سأقول لها عندما يأتي هذا الغد وتجد أنّ عزيز عاد إلى قاعدته. ماذا أقول لها والغد عند الباب؟

مع أشعّة الشمس الأولى حمل جرابه وفتح الباب. وأطلّت علينا الغابة. بيتنا يطلّ على غابة الأرز. ياه، منظر الغابة والأشعّة التي تتسرّب من خلال فروع الشجر بعث في النفس هدوءًا كنت بحاجة إليه. عزيز كان هادئًا أيضًا. لبضع ثوان عدنا إلى دفء كنّا نسيناه. السيّارة مركونة جنب الطوار. أخذ وجهي بين راحتيه وقال إنّ طائرته تنتظره. والكولونيل معوّل عليه وعلى طائرته. وهل تعرفين ما الذي قاله أيضًا؟ قال لي اليوم هو يومنا. لأنّ رئيسه الكولونيل قال له ذلك. سنحلّق عاليًا، قال له. وطلب منه أن يكون في موقعه في بداية الصباح. وهل يعقل أن يتركه ينتظر؟ ومع ذلك أعتقد أنّه كان يفكّر فينا معًا. لأنّه قال ويداه على خدّيّ إنّني فأل خير عليه. وقال بعد الظهر، عندما أسمع صوت طائرة فوق رأسي فسيكون هو الذي يمرّ. ثم عندما أرفع بصري سيلوّح لي بيده. حتى وأنا لا أراه. نعم، سأتعرّف على يده حتى وأنا لا أراها. سأتعرّف على صوته حتى وأنا لا أسمعه يقول لي: صباح الخير يا زينة. ومع ذلك لم أفهم لماذا يريد أن يعود إلى قاعدته وهو في عطلة. اكتفى بأن يحرّك رأسه وهو يتوجّه نحو سيّارته المركونة أمامه، مستعدّة هي الأخرى، كأنّما كانت تعرف هي أيضًا. وقبل أن يختفي داخل سيّارته السيمكا ميل قال سلفيني واحد البوسة. جريت إليه وارتميت عليه وقبّلته. ثم قال غادي نْرجّعها ليك، في العشيّة، عندما أعود.

فعلاً، أعاد إليّ قبلتي، عندما عاد، بعد ستّة وعشرين عامًا.

يوم جديد فعلاً وكلّ شيء فيه غريب. لا أدري كم من الوقت غفوت. عندما خرجت من الغرفة كانت خديجة قد اختفت. لا وجود لها لا في المطبخ ولا في غرفتها. إنّها في السطح منحنية على سلحفاتين تطعمهما. جنب السلحفاتين ستّ بيضات مكوّرة وصغيرة موضوعة تحت سقف صغير من الخشب بين أصص فارغة. التفتت إليّ وقالت متبسّمة إنّها ستفقس بعد أسبوعين. أراها الآن على ضوء الشمس الطالعة. امرأة لا عمر محدّد لها. قد تكون في الأربعين أو الخمسين. بشرتها غامقة وبها شقوق محفورة وتجاعيد. أسنانها سقطت. قد تكون حتى في الستّين. ولكن عزيز قال إنّها في الثانية والثلاثين. لم تتزوّج. حياتها كانت شاقّة دائمًا. عاشت في الجبل عند خالهما عندما أحضر والدهما امرأة أخرى إلى البيت. وهي التي طردتهما. ثم عند أحد الأقارب عندما ماتت والدتهما في بيت رجل آخر. بين الفينة والأخرى كانت خديجة تتطلّع إلى السماء. كأنّما كانت هي أيضًا تنتظر أن تظهر الطائرة. شمس حارقة فوقنا ولا أثر لأيّة طائرة. ثم أشارت إليّ أن أنصت. لا أسمع صوت طائرة. قالت إنّها الحدأة. أصخت السمع من جديد ولكنّني لم أسمعه. ولم أر الحدأة. قالت إنّ صوتها حادّ وجارح ولا تتحمّله. كما لا تتحمّل أن تأكل الحدأة سلحفاتيها. حدّقتُ في السماء طويلاً ولم تظهر لا الطائرة ولا الحدأة.

سمعت في الأسفل طرقًا على الباب. عند ذاك انتبهت إلى الهرج الذي يواكبه. والغناء ودقّ الدفوف. جاءت البنات راجلات من بيت لالة زهرة يسبقهنّ جوق العازفين وعربة عليها فطور الصباح: لوز وجوز وتمر وحليب. وقوالب سكّر عارية. سألن عن عزيز. لم يثر غيابه فضولهنّ. رقصن وغنّين. ضجيجهنّ لم يتوقّف حتى وقت متأخّر من الظهيرة. قالت أختي ختيمة هذه هي العادة. وأنا لا أعرف أيّة عادة لا

يوجد فيها عزيز. ولكن عزيز غير موجود. إنّه يطير. أراقب ظهوره بقلبي كما تنتظر خديجة ظهور الحدأة. تمدّ عنقها إلى فوق ولا تسمع شيئًا بسبب كلّ هذا الهرج. نسوة أخريات جئن من الجبل وغنّين وقرعن دفوفهنّ ورقصن. نهضت خديجة مسرعة وعَدت نحو السلّم المؤدّي إلى السطح. وفعلتُ مثلها معتقدة أنّها سمعت صوت الطائرة. أختي ختيمة لا تعرف شيئًا عن قصّة الطائرة أو القصّة الغريبة للحدأة التي تلتهم السلاحف. لقد قضينا النهار على هذا النحو: تقفز خديجة في اتّجاه السلّم. وألحق بها إلى السطح. وعندما تقول إنّها تسمع الحدأة أنصت، أفتح أذني وأنصت لأسمع الطائرة وأرى عزيز يلوّح لي بيده. ثم نعود معًا إلى الأسفل. بدون صوت جارح لحدأة أو أزيز طائرة يشبه النفخ في الصور كما قال عزيز.

بعد مغادرة النساء فكّرت أختي ختيمة أن تهتمّ بالبيت قليلاً ريثما يعود عزيز. بدأت ختيمة صباحها بغسل شعرها قبل أن تقضي ساعة في دهنه بالزيت والقرنفل. وغسلت خديجة صحون الإفطار ثم بدأت في نفض البطّانيّات والمخدّات وأخذها إلى السطح لتتهوّى. ولم أرد أن أتبعها لأرى ما إذا كانت الطائرة قد ظهرت في سماء آزرو. فعلت كما تفعل امرأة تزوّجت للتوّ. جدّدت فرحي بالتعرّف على البيت. بيتي الجديد الذي سأستقرّ فيه مع عزيز وخديجة وأختي ختيمة. البيت بلا شجرة. الشجر في الخارج. غابة كاملة أمام البيت. أطلّ من النافذة منتظرة أن تظهر الطائرة. وبدلاً منها أرى الغابة. كما لو كنت أطلّ على عزاء يقيني حرقة التساؤل: ماذا يريد عزيز أن يفعل في القاعدة الجوّيّة وهو في عطلة؟ والطائرة لا تظهر. ظلّت خديجة تراوح بين السطح وفناء الدار كلّما بدا لها أنّها تسمع صوت الحدأة. أمّا أنا فلم أصعد السطح ثانية، مكتفية بالإنصات إلى نفير الصور داخل قلبي. نساء أخريات طرقن

الباب قبل المساء. بدون عازفين. بدون عربة تحمل قوالب سكّر عارية.
هنّ أيضًا جئن من الجبل. وسألن عن عزيز. وقلن إنّ الطيّارين في القاعدة الجوّيّة قصفوا طائرة الملك في الجوّ وهي عائدة من رحلة. وجلسن نصف ساعة. ثم تساءلن هل يكون عزيز معهم؟ ثم صمتن نصف ساعة أخرى وعدن من حيث أتين. وبقيت أتطلّع إلى السقف أنتظر أن أسمع صوت الطائرة. وأتساءل ماذا يفعل عزيز الآن. لماذا لا يعود؟

١٠

رواية هندة

(الواحدة بعد منتصف الليل)

I لم أفهم يومًا تلك العربات الصغيرة

التي كانت تتعقّبنا في كلّ ركن من المدينة. هكذا، دون سبب. عربات صغيرة مموّهة يقودها حصان برئ لا يدري أيّ عمل إجرامي يقوم به. يقودوننا جماعات جماعات ليعدمونا خلف المجازر البلديّة. مرّة كانت ستدور عليّ الدائرة حتى أنا لو لم أسمع كلبًا في ركن الدرب يحذّرني صائحًا اهربي يا أختي اهربي، قبل أن يمسكك المغاربة. لو كنّا في آسيا لتفهّمت الأمر. بعض الآسيويّين يحبّون لحمنا. لا، هؤلاء يقتلوننا ويحرقوننا. لماذا؟ الله أعلم. يبدو أنّ العدوان متأصّل في دمهم. ثم إنّ جهلهم لا يفوقه جهل. إنّهم لا يفرّقون بين أنواع الكلاب. يقولون كلب وصافي. وهذا أمر مضحك. نعم، أضحك في خاطري وأنا أسمعهم يتكلّمون عنّا بتلك السذاجة. ماذا يفهمون في الكلاب أو في غير الكلاب؟ يطاردوننا فقط لأنّهم يقولون إنّ الله طردنا من الجنّة. ما عليهش. من ناحيتي أحاول دائمًا أن أتفهّم. لا توجد قارّة خاصّة بالكلاب حتى أذهب إليها. محكوم عليّ أن أعيش بينهم. لكن بدل الاحتكاك بالبشر كما يفعل الكثير من الكلاب السذّج، أحاول أن أقلّص علاقاتي بهم إلى أبعد حدود. أفضّل مراقبتهم عن بعد. لا أفهم مثلاً لماذا لا يتوقّف البشر عن الكلام ولو للحظات. يحلو لي مثلاً السير

خلف هذا الشخص أو ذاك والتمعّن في حركاته ومشيته والتنصّت إلى ترّهاته التي لا تتوقّف. يحلو لي التجسّس على الناس. بلغت الثانية عشرة وهي سنّ متقدّمة بالنسبة إلينا نحن جنس الكلاب. ما يزال السمع مرهفًا مع ذلك وإن كانت مشيتي تباطأت بعض الشيء وقلّ بصري.

II أحوّم في الغرفة

وليس ببالي غير فكرة الهروب منها. مشوّشة البال وليس في ذهني غير رغبة واحدة. تفوح من الكومندار رائحة الويسكي وهي رائحة قبيحة. وتفوح كذلك من البنت التي معه. أبتعد عن الكومنْدارْ وأقترب من الباب وأقعي. كما لو كانت رغبتي الابتعاد فقط عن الرائحة وليس مغادرة الغرفة. أسترق النظر إليه. إنّه منشغل بالبنت ولا يهتمّ بما يدور في رأس كلبة مثلي. وما يدور في رأسي هو أنّ عزيز في حاجة إليّ. أذهب هذه المرّة حتى الباب فأسمع زمجرة الكومندار فأعود في مسكنة وذيلي بين رجلي كما لو أنّ صياحه أرعبني وأتكوّم في ركني، غير بعيد عن الباب. البنت التي معه، الجالسة تحت المكيّف، بدل أن تنام مع الكوموندار كما تفعل البنات حين يأتين عنده، نهضت واقتربت من النافذة وأزاحت الستار وهي تسأل عن القصبة، هل هي فارغة ومن يسكن فيها. أعادها الكومندار إلى مكانها وضرب كأسه بكأسها وضحكتْ وانتهى الأمر. لم ينته بالنسبة لي. أفكّر دائمًا في عزيز وفي الريفي الذي مات قبله. لم تعكّرني الميتات السابقة بقدر ما عكّرتني ميتة الريفي. كنت في الساحة أراقب سرب طيور مهاجرة وإذا بالريفي يخرج عاريًا كما ولدته أمّه ويقهقه وهو يدور في الساحة كأنّما يمرح. ثم ظهر

الحارسان يجريان خلفه ملوّحين بمجرفتين. يتعقّبانه وهو يجري أمامهما ويتحاشى مجرفتيهما ويضحك. تعثّر الريفي وكاد يسقط وهو على مرحه نفسه. عندما انهالت على رأسه مجرفة بنغازي أسقطته أرضًا وطار الدم من رأسه. ثم انهالا عليه معًا بالضرب والسبّ حتى همد. منذ هذه الحادثة لم يعد نومي كما كان. صرت أحلم به كلّ ليلة.

نهضتُ من جديد، متوقّعة أن أسمع خلفي زمجرة الكومنْدارْ الكريهة. بدل الذهاب نحو الباب تراجعت حتى النافذة، تمسّحت بالستار ثم اقتربت من المائدة وضربت الزجاجة برجلي. تحطّمت الزجاجة وسال ما فيها من شراب فوق الزربيّة. بقي الكومندار ينظر إليّ غير مصدّق. والبنت تحت المكيّف سكرانة تصيح ويلي ويلي ويلي. ثم أدركت أنّه يستعدّ لطردي من الغرفة. أدركت أنّني أفلحت. قبل أن تلمس حذاء الكومندار مؤخّرتي كنت قد اجتزت الباب.

أجلس على مشارف الحفرة التي ابتلعت الريفي منذ أيّام. أشمّ رائحة جثّته. لا تزال طريّة. أعرف أنّ الموتى يلمّون أشلاءهم المحطّمة عندما ينزلون إلى القبر. ولكن هذا ليس عذرًا. أجلس أتنصّت إلى كلام الموتى وأراقب الباب المؤدّي إلى الجناح. أرى أنّه مفتوح. وأرى الممرّ المظلم ولا أرى الحجرة التي يقبع فيها عزيز. إنّها مغلقة دائمًا. لا بدّ من التفكير في طريقة للدخول. أفكّر في مساعدته حتى لا أحلم به كما أحلم بالريفي. لم يعد نومي كما كان منذ مات الريفي قبل أيّام. ما إن أغمض عينيّ حتى أراه يحمل عظامه المهشّمة وقطعًا من لحمه في يديه ويلوّح بها في اتّجاهي. . . كلّ هذا أراه وأنا مستيقظة. مغمضة العينين ولكن مستيقظة تمامًا. أمّا في النوم فأحلم بالفئران، فئران كثيرة، تلاحقه، جيش من الفئران المتوحّشة، الجائعة، أنيابها أكبر منها وتلمع في الظلام، تجري وراء الريفي تحمل مجرفات وتصدر أصواتًا كأصوات

الضباع. وهو هارب وقطع من لحمه وعظامه تتساقط خلفه ولا يستطيع التوقّف لجمعها.

أدفع الباب محاولة فتحه، أتشمّم كلّ شقّ فيه، أضربه بقائمتيَ عسى أن ينصاع. أنجح في النهاية في الدخول من الفتحة تحت الباب. عزيز مرمى على الأرض لا يتحرّك. عيناه مغمضتان. لا أستطيع أن أجزم إن كان ميتًا أم لا يزال حيًّا. قد يكون سقط من فوق الدكّة قبل أن يموت. دنوت منه. لا حياة فيه. يده وإصبع رجله مربوطان بحبل. هناك عادات كثيرة عند البشر لا أفهمها. وضعت رأسي قريبًا من أنفه. آنذاك فقط بدا لي أنّ أنفاسه تصعد وتهبط. خيط حياة واهن ما زال يشدّه. ما زالت الحياة تدبّ في جسده ولو بهذا الشكل الباهت. وهذا أمر مفرح. مفرح جدًّا. صعدت إلى عينيّ الدموع من فرط الفرحة.

لم أتسلّل إلى داخل الحجرة دفعة واحدة. لا. أوّلاً، قبل أن أدخل تمامًا، وأنا أجاهد محاولة التسلّل عبر الفتحة الضيّقة، ردّتني الرائحة إلى الممرّ. ضربتني على وجهي كالسوط. رائحة أقوى من رائحة الجيف في المزابل. حاولت الدخول مرّتين قبل أن أعتاد الرائحة. أمّا الرجل المرمي على الأرض المبلّلة، السوداء، المتّسخة، المظلمة فلم أتبيّن وجوده إلّا بصعوبة من شدّة الظلام. كمشة خرق مرميّة فوق بقع ماء. أمّا عندما رأيته ثم عندما اقتربت منه فقد ارتحت لأنّ توقّعي لم يخب. لم يكن يشبه الريفي في شيء. أوّلاً الريفي مات وهذا لم يمت بعد. وجه هذا الإنسان استطال واسودّ في حين أنّ الريفي لم يكن له وجه بتاتًا من فرط تشوّهه بفعل ضربات المجرفتين. وجنتاه غائرتان جدًّا هذا الإنسان. وجه رجل في النزع الأخير من الحياة. صغير الحجم بشكل لافت ولكنّه لا يحمل الموت الذي كان الريفي يحمله. تقلّص عزيز ولكن فقط من قلّة الضوء، أليس كذلك؟ فرحت عندما سرت في جسمه قشعريرة

خفيفة. بصعوبة بالغة أعدته إلى مكانه فوق الدكّة. لم يبذل أيّ مجهود لمساعدتي. لم يبد أنّ مجهودي أعاد إليه وعيه. ثم رحت أنفخ على يديه ورجليه. وكلّ جهة يابسة فيه. بعدها تمدّدت فوقه وأحطت جسمه بأثدائي المتدلّية ثم أدنيت أنفي من وجهه ورحت أنفخ عليه. أغمضت عينيّ وركّزت كلّ قواي على حاسّتي هذه. بهدوء أرسل إليه بعضًا من حرارتي التي أصبحت تنبعث من كلّ جسمي. بأكبر قدر من الهدوء. كنت منفعلة مع ذلك، قلقة وأنا أفتح بين الفينة والأخرى عينيّ لأرى نتيجة مجهودي. لأرى ما إذا كان قد فتح عينيه، لأرى بعض الحرارة تدبّ في أوصاله. لم يتغيّر شيء. ما زال الرجل كما وجدته عندما دخلت، متخشّبًا، جامدًا، قريبًا من الموت، بعيدًا عن الحياة رغم أنفاسه التي ما زالت تترنّح بين صعود وهبوط متعثّرين. لم أيأس. لففته في الغطاء جيّدًا وعدت أتمدّد فوقه. وبعد مدّة انتبهت إلى تغيّر ما في الرّجُل. قطرة عرق لمعت فوق جبهته. وهذا كاف لأعرف أنّ الحياة استعادت دورتها. ثم بعد أن سال منه عرق كثير فتح عينيه ثم غمضهما ونام.

III السنين الخمس الأولى

قضيتها عند محجوب الخيّاط في الخميسات. لا أذكر كيف وصلت إلى بيته. كنت صغيرة. الخيّاط وامرأته وأولاده الثلاثة عندما استقرّوا في أطراف المدينة، في بيت هو عبارة عن زريبة كبيرة بها حوش من التراب وثلاثة بيوت من الطين، اتّفقوا على أنّه من الضروري أن يكون عندهم كلب لحراسة البيت. واعتقدوا لسذاجتهم أنّني سأقضي الليل في النباح. امرأة الخيّاط هي كلّ شيء في البيت وخارج البيت. تقضي وقتها في الحرب مع أولادها الثلاثة أو مع الجيران. أحيانًا وبدون مبرّر تلتفت جهتي لترميني بأيّ شيء تقع عليه يدها، مكنسة أو فردة حذاء، وهي تصيح أنّها لا تريد كلبة تأكل ولا تنبح. وأنا لا أفعل شيئًا لردّ عدوانها. ماذا بوسعي أن أفعل؟ أتركها تثرثر وأنتظر فرصة لأغادر بيت الخيّاط.

يقولون إنّ محجوب أحسن خيّاط جلابيب في المنطقة. أنا لا أفهم في هذا النوع من الرداء. لهذا لا أستطيع أن أجزم إن كان ما يقولون صحيحًا وإن كنت لا أستبعد الأمر لأنّه رجل يشتغل طول الوقت. بالليل والنهار، كأنّما ليتفادى شرّ امرأته. هذا الخيّاط لا تراه ولا تسمع صوته، كالظلّ. يقضي جلّ وقته في دكّان الخياطة. وفي البيت ينزوي في الركن يتمّ عمل النهار أو يقطع القماش للغد. ويوم الثلاثاء يذهب إلى السوق.

في السوق أقضي النهار في مراقبته. وهو جالس تحت خيمة مرتّقة وحوله جلابيبه ويتظاهر أنّه يبيع كباقي أصحاب السوق. ولكنّه ينتظر امرأته الثانية. إيه نعم. امرأة يراها سرًّا لسبب لا أعلمه. آنذاك لا أكاد أعرفه. كأنّما حلّ رجل آخر بدل الخيّاط. يتكلّم ويحكي لها النكات ويضحكان معًا. ويشتري لها الإسفنج والشاي في الصباح وطاجين الشواء أثناء الغداء ولا تفارقه دون أن يهديها دبليجًا من ذهب أو قرطًا. وبعد الظهر بدل التوجّه إلى البيت يقضي الوقت في التنقّل من زقاق إلى زقاق وهو ينظر خلفه. ويستقرّ به المقام نهاية في أحد البيوت الواقعة في قاع زقاق ضيّق ومظلم. ولا يخرج منه حتى وقت متأخّر من الليل. وبعد عودته إلى البيت يعود إليه وجومه. ينزوي في ركنه يقطع القماش للغد في صمت. الجميع في البيت يعتقد أنّه يتأخّر في المسجد.

لست أدري لماذا بدا لي أنّني كنت سأكون أحسن حالاً في بيت آخر. بدل العيش مع امرأة الخيّاط الشرّيرة. أولادها الثلاثة عاطلون يأكلون رزق الخيّاط. أصغرهم الذي تجاوز الثلاثين يتحشّش من الصباح حتى آخر الليل. أحبّ شيء لديه عندما يدوّخه دخان الحشيش هو أن يضع الحبل حول عنقي ويجرّني خلفه في الشارع وهو يتبختر. ذات يوم سقطت امرأة الخيّاط مغشيًّا عليها وسط الدار. ترنّحت طويلاً فوق التراب لأنّ جارتها أخبرتها بما يفعل رجلها يوم الثلاثاء. اقتربتُ منها عن حسن نيّة وانحنيت على وجهها وغمرته بأنفاسي محاولة أن أعيد إليها الدفء. ولكن يبدو أنّ شرّها أكبر من أن تنفع معه أنفاس كلّ كلاب الأرض مجتمعة. عندما فتحت المرأة عينيها ورأتني منكبة عليها أطلقت صيحة مرعبة، كأنّما كلّ الشرّ الذي يسكنها فكّ من عقاله. ماذا تريدين يا أختي؟ الخير لا ينفع مع هؤلاء القوم. وسوء النيّة هو الغالب على طبعهم. بدل أن ترتمي على رَجلها الذي لم يحرّك يدًا أو يرفّ له جفن

وهو يراها تسقط، وبقي في ركنه يفصّل القماش، بدل أن تنشب أظافرها في لحم وجهه التفتت جهتي وكاد القضيب الذي في يدها أن يذهب بعينيّ لولا أنّني قفزت جانبًا. قضيت الليلة خارج البيت طبعًا، أفكّر في الوجهة التي سآخذ. هل أغيّر الحيّ أم أغيّر المدينة؟ أبدأ حياة جديدة وأنسى الخيّاط وامرأته الشرّيرة.

IV أسوأ ما يمكن أن يقع

لكلبة مثلي قضت جلّ عمرها في بيت له سقف وباب هو أن تجد نفسها خارجه بشكل مفاجئ. وحيدة في العراء دون أن تكون مؤهّلة لذلك. عندما طلع النهار كنت قد ابتعدت عن المدينة وتوغّلت في البادية. التعب نال منّي سريعًا . . . لأوّل مرّة في حياتي أندم لأنّني لم أكن أتريّض. أو على الأقلّ أقضي الوقت أتسكّع في الطرقات كما تفعل الكلاب بدل الجلوس في بيت الخيّاط بلا شغل. وبينما أنا أسير غارقة في أفكاري رأيت كلبين واقفين أمام إحدى الضيعات. ما إن وقعت أعينهما عليّ حتى بدآ يحرّكان ذيليهما. أحدهما تبوّل فوق عجلة السيّارة ولم أفهم سبب ذلك. اقتربت منهما وبدآ يقفزان حولي، طريقتهما في الترحاب بي. قالا إنّهما ذاهبان إلى الصيد وإذا ما رغبت في مصاحبتهما فما عليّ سوى أن أصعد إلى الصندوق الملحق بالسيّارة الواقفة أمام الضيعة قبل خروج ربّ البيت وصديقه الفرنسي. بعد لحظات كنت مندسّة بينهما في القفص. رجلان خرجا في اللحظة نفسها من الضيعة في لباس يشبه لباس العسكر المرقّط. كأنّما ذاهبان إلى الحرب. أغلق أحدهما الصندوق دون أن ينتبه إلى وجودي. السيّارة نفسها تشبه آليّة عسكريّة. بعد لحظة كانت السيّارة تمضي مسرعة بين الجبال. لم أشارك في حياتي في رحلة صيد. لأوّل مرّة

أرى هذا الشيء الغريب. الرجلان يتربّصان بالطيور ويطلقان عليها النار. والكلبان يهرولان من هنا إلى هنا ليعود أحدهما وفي فمه طير ميت ودمه يقطر. والآخر يتبعه وعيناه حزينتان لأنّه لم يجد طريدة حيّة أو ميتة يضعها في فمه. أستفسرهما حول عملهما وهما ينصتان إليّ بأذن واحدة. أمّا الأذن الأخرى فإنّها تراقب الطلقة التي ستأتي بين لحظة وأخرى. وما إن يسمعا الطلقة حتى يبتعدا مهرولين ولساناهما يرقصان من الغبطة. وأبقى حائرة واقفة أفكّر في الأمر. وهكذا لمدّة ساعات... وقلت مع نفسي أفضل ألف مرّة حياة الخيّاط وامرأته الشرّيرة وولده الحشّاش على هذه الحياة التي تشبه حياة المجانين. ولقد مضى وقت طويل على اختفائهما. بعد مدّة لم أعد أسمع صوتًا ولا لهاثًا. بين الفينة والفينة تأتي طلقة ناريّة ولكنّها بعيدة جدًّا. ثم اختفت الطلقات بدورها وعندما اقترب النهار من نهايته كنت تائهة في غابة لا أعرف شرقها من غربها. ارتحت مع ذلك في قرارة نفسي. وكنت قد قرّرت ألّا أرافق عودتهما. لهذا لم أبذل جهدًا في اللحاق بهما وأنا أراهما يبتعدان. وانتبهت إلى أنّني جائعة. مع أنّني نادرًا ما أشتكي من هذا الأمر. وأنّني منذ الأمس لم أذق طعامًا. وتذكّرت الخيّاط. ماذا يفعل الآن؟ أما زال منزويًا في ركنه يقطع القماش بينما زوجته الشرّيرة تمضغ حنكها من الغيظ؟

ليلة لن أنساها أبدًا. لن أتحدّث عن الذئاب التي باتت تعوي والتي كادت تفتك بي لو لم ألق بنفسي في نهر وجدته أمامي جرّني تيّاره بعيدًا. الليل ولا طريق. لم أمرّ بتجربة كهذه. تتقدّم ولا تعرف هل ستهوي في جرف أم ستبتلعك حفرة. في وقت متقدّم من الليل سمعت نباحًا فقلت إنّني قريبة من المدينة ثم بدت أمامي أضواؤها فعلاً. قلت لا يهمّ إن أنا عدت إلى المكان نفسه الذي كنت فيه. فرحتُ. كأنّما ندمت على حياتي السابقة في بيت الخيّاط. حتى إنّني فكّرت أنّ أحسن ما يمكن أن يقع لي

هو أن أعثر على كلب مهذّب أقضي معه وقتًا طيّبًا. لا، لم أعد إلى مدينة الخيّاط. إنّها مدينة أخرى. بلت على شجرة ثم على شجرات أخرى وأنا أتقدّم في الشارع العريض.

كبيرة هذه المدينة. البنايات عالية والشوارع واسعة ومضاءة. جلست أستريح وأتمتّع بمنظر السيّارات التي تمرّ مسرعة. غير بعيد عنّي أحد البارات تخرج من بابه روائح الدجاج المشوي أثارت شهيّتي وذكّرتني بجوعي. في الخميسات كنت أحبّ الجلوس أمام البارات لأنّ السكارى يرمون لك بالعظام أو قطع من الخبز المغمّس في المرق وأحيانًا قطعًا كاملة من الشواء. دنوت من الباب وألقيت نظرة على الداخل. البار غارق في عتمة الدخان والضجيج كثير. والموسيقى. من بين الزبائن رأيت رجلاً بدا لي غريب الأطوار. يسكر وحيدًا. على مائدته طعام كثير وشراب أكثر. وهو ما أثار اهتمامي أوّلاً. يبدو الرجل غير مرتاح في جلسته. يضع على عينيه نظّارات سوداء رغم الليل وعتمة البار. يتلفّت إلى كلّ الجهات، يخرج النقود من جيبه، يعدّها ثم يعيدها إليه، يعضّ شفتيه، يمسح عرق جبهته. ويبدو أنّ بعض الزبائن كانوا يرمون إليه بنظرات جانبيّة ويتغامزون. كأنّما يعرفون مسبقًا ما سيفعل وكأنّما معرفتهم بما سيقع تسلّيهم. فجأة قفز من على كرسيّه وانطلق مهرولاً نحو الخارج. وقد أذهلتني السرعة التي انطلق بها وقد تجاوز الستّين بكثير. انطلق خلفه حارس الباب ثم النادل وزبائن آخرون. ثم عادوا به وهم يوبّخونه ويدفعونه أمامهم كأيّ مجرم. وهو يسير أمامهم صاغرًا، عيناه بعد أن زالت عنهما النظّارات تبدوان مسدودتين، وهو يحرّك شفتيه في كلام غير مفهوم. ولست أدري هل كان يضحك أم يبكي. لست متأكّدة. بعضهم كانوا يضحكون وهم يجذبونه من أطراف معطفه. وقف الرجل العجوز أمام باب البار ليقسم أنّه لا يملك نقودًا. ولكنّ النادل دفعه بعنف إلى الداخل وهو يقول ما تحْشمْشْ تكذب أ

الشيباني. ثم رأيته هذه المرّة واقفًا عند الكونطوار مع الجماعة نفسها التي كانت قبل قليل تعنّفه (كان قد أعاد نظّاراته السوداء) وهو يخرج من جيبه الداخلي حزمة أوراق ماليّة وينشرها أمام النادل على خشب الكونطوار ويقول ملتفتًا إلى كلّ جهة: تورْني غْلى حْسابي. على شفتيه ما يشبه ابتسامة رضى وهو يراهم جميعًا متهلّلي الوجوه ويصفّقون بحرارة. ثم التفت جهتي. لم أدر أيّ شيء دار في عقله عندما وقعت عيناه عليّ. ثم وهو يرفع نظّاراته ويُبقي نظره مصوّبًا جهتي. ولكنّني متأكّدة أنّ فكرة ما راجت في مخّه آنذاك. أخذ قطعة لحم ورماها جهتي. في أوقات أخرى كنت تمهّلت وتشمّمتها بارتياب ولكنّني في حالتي المزرية تلك التهمتها دون أن أعير اهتمامًا لناقوس الخطر الذي اعتاد أن يرنّ في رأسي في مثل هذه الحالات.

بعد لحظة وقف الرجل أمام الباب يحدّق في. كأنّما يتساءل هل سأتبعه أم لا. وضع يده على رأسي وربت على عنقي. رفعت نحوه عينيّ إنّما بدون انكسار وبحذر كبير. تعابير وجهه تبعث على الضحك. كثير التكاميش. عيناه ضيّقتان وفمه بلا شفتين، يشبه سطرًا مرسومًا دون عناية. خطا خطوات مبتعدًا عن البار فتبعته. جسده متداع ومشيته ثقيلة. عكس ما كان عليه الأمر عندما كان هاربًا. يمشي الآن كأنّما يخبط في الأرض بغير هدى. وعلى سطر فمه ذلك التعبير الغامض، القبيح والذي تعتقده ابتسامة لأوّل وهلة. هذا الرجل الذي يسمّونه الكومونداار سأقضي معه السنوات السبع التالية، وسأراه مرارًا يدخل البار نفسه ويقفز مهرولاً كما فعل خلال تلك الليلة ويعود به الزبائن وهم يدفعونه أمامهم ويوبّخونه دون أن أفهم سبب ذلك. وإلى الساعة ما زلت أتساءل هل كنت مضطرّة لأن أتبعه.

١١

رواية عزيـز

(الواحدة والنصف بعد منتصف الليل)

I في لحظة من لحظاتي

التي تقع على الحدود الشفّافة ما بين الصحو واللاصحو. لا أكون غادرت العالم الذي أنتمي إليه ولم أغص بعد في عالم الرؤى. هكذا كنت. أعرف أنّني ممدّد. وأنّني حاضر بعقلي. وأنّني لم أسقط. ولكن جسدي كما لو يكون سافر إلى دار أخرى. لا يزال كما تركته منذ نبضات سابقة، لا يكاد يذكرني لأنّه لا يعرفني. معجزة. كنت متأكّدًا أنّها ليلة سقطتي. ولكنّها لم تأت. لن تأتي أبدًا على هذا الأساس. مع أنّ يقيني في خروج وشيك قد تزعزع. صرت متأكّدًا من هذا الآن. حلمت أنّني سقطت من فوق المغسل وأنّ الكلبة هندة دخلت وأعادتني إلى سريري الإسمنتي. وجلست تلحس يدي ووجهي لتعيد إليّ الحياة. حلم غريب.

تشنّج قويّ كتيّار كهربائي يسري في سائر أعضائي. سرعان ما تحوّل التيّار إلى اهتزاز قويّ كما يحدث في اللحظات التي تسبق موت الكبش في عيد الأضحى. الجسد يرتعش بقوّة. والصدر يرتفع وينخفض في حركة مرعبة بعد أن تعرّى وبانت الضلوع كالأعواد وراحت تهتزّ هي الأخرى. تفّاحة آدم أشعر بها تصعد وتهبط. وتنتفخ حتى تصبح في حجم الرمّانة. ما هذا العجب؟ أرفع يدي لألمسها. تتحرّك اليد ببطء

ولا تصل. مع أنّ الأصابع المتخشّبة ارتخت. بعد محاولة ثالثة رفعت يدي وأدنيتها من وجهي. سرحتْ يدي حتى وصلت إلى الفم. بحثتْ عن فتحة الفم التي كانت غابرة وسط الشعر. عثرتْ عليها. انتاب فمي الانفعال نفسه. ينفتح ثم ينغلق كفم سمكة في نزعها الأخير. ماذا أصاب الجسد؟ لم يحدث لي هذا الاختناق من قبل. أدخلت إصبعي في فمي ورحت أفتّش بداخله. كأنّما أبحث عن منفذ ستتسرّب منه الحياة. في هزّة عنيفة رميت كلّ ما في جسدي. سائل أصفر ساخن كريه الرائحة تفجّر في دفعات متعاقبة وغمر عينيّ وأنفي وصدري. هذا هو الموت.

ثم ما الموت في النهاية؟ دعنا نفكّر في الأمر بدم بارد إذا كان للدم أن يكون باردًا في لحظات كهذه. أرى نورًا يسطع مع إغماضة عينيّ الأخيرة. نورًا ليليًّا. وصدى كلّ الأصوات الجميلة التي سمعت في حياتي توجّهني ولا أعرف أين تقودني. وأنا أتدحرج مرتفعًا بين نجوم تسطع من حولي. ذلك أنّ الصعود والهبوط صار واحدًا. لا قبل ولا بعد. سماء لا نهاية لها وأنا محلّق كعصفور يضيء نفسه بنفسه إلى أبد الآبدين. . . ربّما تعرّفت ذات تاريخ على الموتى الآخرين الذين مرّوا بالقصبة. بعاهاتهم وأمراضهم وتنقصهم الأعضاء التي تركوا في ساحة القصبة. ربّما عبرنا مستنقعات وأراضي شديدة الرطوبة. وبعد مسيرة ستّ مائة ألف سنة نعرف أنّنا نجري وراء الرجل الذي قتلنا. وأنّنا كنّا ننتظر جميعًا في هذا السديم العظيم، الوقت الذي نأخذ فيه بثأرنا. يقولون إنّ اللحظات الأخيرة في عمر الإنسان تحبّب إليه الموت. ولتقرّبه منه في دعة ووداعة تجعله يرى نفسه طفلاً يلهو في باحة الدار. ويقولون أيضًا إنّها اللحظات التي يعود فيها مذاق حليب أمّك إلى فمك. ارتخاء يصيب العقل وترى الجسد كما لو كان يتزحلق في لذّة بالغة على أرض منحدرة ملساء.

II كنّا حفرنا الحفرة عند الساقية

لدفن العصفور أنا وابن خالي إدريس. من هنا أستطيع أن أرى البيت وشجرة التين التي تطلّ علينا من فنائه. من قمّتها تستطيع أن ترى كلّ الدنيا إذا أردتَ لأنّها كبيرة وعالية. إدريس هو الذي حفر الحفرة. وهو الذي قال ندفنه هنا قرب الساقية حتى لا يعطش. وقال أيضًا إنّ الأرض تظلّ بليلة دائمًا بالقرب من الساقية. بعد أسبوع من الحياة مات العصفور وجناحاه مفردان كما لو أنّه مات محلّقًا. جاء من بلاد بعيدة ليموت بين أيدينا. أمسكتُ العصفور من جناحه وتدلّى منقاره. التفتّ إلى إدريس. الطائر في يدي خفيف. إدريس ينظر جهة البيت. نساء عند الباب. واقفات وجالسات. أستطيع أن أراهنّ عندما لا يحجبهنّ إدريس بقامته الطويلة لأنّه أكبر منّي بعامين. أنفه طويل كأنف أبيه. عددت ريشات الجناح الذي في يدي. سبع ريشات رماديّة ترتعش بلا ريح. قد يكون لا يزال حيًّا. يأخذ إدريس العصفور ويرميه في الحفرة. كنت أفضّل أن يبقى في يدي لحظات أخرى حتى أحسّ بارتعاشة جناحه بين أصابعي. انكفأ العصفور على وجهه كما لو كان يريد أن يخفي عنّا سبب موته. أهلنا عليه التراب بأرجلنا. رجلاي حافيتان. إدريس عنده حذاء اشتراه له خالي من السوق. اختفى العصفور تحت التراب وبقيت ريشات

جناحه منتصب. ضرب إدريس التراب بحذائه ودكّها حتى اختفت الريشات. وأنا أقفز فوق الساقية بدت يدي فارغة أكثر من السابق. أخرج إدريس فخّه. يريد أن يصطاد طائرًا آخر. قلت له لن أصطاد عصفورًا بعد اليوم. الطيور مخلوقة لتطير ونحن نصطادها حتى لا تطير. اختفى العصفور تحت التراب. ما زال مكان ريشاته في يدي. وتحت حذاء إدريس. عندما استدرت نحو البيت جرّني من يدي وقال من الأحسن أن نذهب جهة سياج الصبّار. هناك طيور ملوّنة كثيرة. أنا لا أريد أن أذهب جهة سياج الصبّار ولا أريد أن أصطاد عصفورًا آخر ولو كان ملوّنًا. وقال إدريس البيت عامر بالضيوف. من الأحسن أن نذهب جهة السياج. وحرّك الفخّ في الهواء. ماذا يفعل الضيوف عند الباب؟ أخطو جهة البيت حيث الضيوف الذين تحدّث عنهم إدريس. أختي خديجة تلوّح بيدها جهتنا كأنّما تنبّهني إلى أمر لا أفهمه. يجري إدريس ليمسك بيدي. من الأحسن أن نذهب جهة السياج. سنعثر على عصفور أو أكثر. في حلقي غصّة صغيرة. حزين من أجل العصفور الذي مات دون سبب. العصافير تموت دائمًا دون سبب. وقلت لإدريس لست حزينًا من أجل العصفور حتى يترك يدي. إدريس يجرّني نحو السياج. تلتحق بنا خديجة وتقول سنعود عند والدنا. ولا أفهم لماذا سنعود عند والدنا. ينهرها إدريس فتهرب منه وأنا أجري وراءها وأسألها لماذا سنعود عند والدنا. وتقول صائحة سأهرب هذه الليلة حتى لا أعود عنده. فيضرب إدريس الهواء بحذائه ليخيفها. والدي لن يشتري لي حذاء لأنّه لا يسكن معنا. ذهب يعيش مع امرأة أخرى في الشاون. وقالت لنا أمّي أنا وأختي خديجة اذهبا معه. وذهبنا معه إلى الشاون. ولكنّ المرأة الجديدة التي يعيش معها قالت لنا أن نعود عند أمّنا. وقال خالي لأمّي إنّهما كولدي إدريس. وبقينا معه. ولا أفهم لماذا تريدنا أن نعود ثانية

لنعيش معه. ومع امرأته التي لا تحبّنا. أعود جهة القبر الصغير حيث يرقد العصفور وحيث كان حذاء إدريس منذ قليل. أضع عليه حجرًا حتى أستطيع التعرّف عليه. أرى أنّ العصفور لا يزال حيًّا تحت التراب. ويغنّي رغم التراب الذي يغمر منقاره. يجرّني إدريس من يدي. من الأحسن أن نذهب جهة سياج الصبّار كما قالت خديجة. وهي لم تقل شيئًا. قالت لم أقل شيئًا. نهرها إدريس وصاحت سنهرب أنا وعزيز هذه الليلة، قبل أن تتركنا والدتنا بدورها. نهرها إدريس. قلت من سيتركنا. والدتنا. هذه الليلة. ستذهب عند رجلها الجديد. تعتقد خديجة أنّنا سنكون سعيدين بدون والدنا وبدون والدتنا وبدون خالي وبدون ابنه إدريس. ضربها إدريس على رأسها. هربت منه جهة البيت وقال إدريس إنّها تكذب. وأمسك بيدي من جديد. سنعثر على عصفور آخر. أجمل من هذا الذي مات. بذيل أبيض وصدر أحمر. ووضع يده في جيبي وأخرج قطعة الخبز التي كنت أناول العصفور قبل أن يموت وقال سنضع الخبز في الفخّ تحت شجرة الصبّار لكي يأكله العصفور. وعندما نصطاده سيكون عندنا في القفص عصفور جديد تستطيع أن تطعمه. تطلّعت إلى البيت من جديد وإلى النسوة المتحلّقات حوله. تركت يدي في يد إدريس.

متّجهان معًا نحو سياج الصبّار.

III أقمنا شهورًا عند والدنا في الشاونْ

أنا وخديجة قبل أن تطردنا زوجته. ظهر الجمعة نذهب جهة الثكنة حيث يشتغل. باب الثكنة مغلق. ونسمع الموسيقى داخلها ونقول والدنا يدرّب الفرقة النحاسيّة. ثم نسمعها خارج الثكنة ونفهم أنّ الفرقة تجوب أطراف المدينة باتّجاه الجبل. ونكون أنا وأختي خديجة في انتظارها. نطلّ عليها من خلف الشجر. ثم نسمعها وهي تصعد الجبل. ونصعد الجبل جريًا لنسبقها. نعرف الطريق إلى الجبل كما تعرفها الفرقة والوالد الذي يقودها والكبش الأبيض الذي يسير في مقدّمة الفرقة. دائمًا أبيض وسمين. الفرقة والوالد يسيرون خلف الكبش. يدورون حيث يدور الكبش. على سبل لا تظهر بين الشجر الكثيف. وتقف عندما يقف الكبش ليستريح. تحت الشلّال المتدفّق. ثم تصعد حتى قمّة الجبل لتعزف موسيقاها. لا أحبّ المرأة التي تعيش مع والدي. وأحيانًا لا أحبّ والدي لأنّه ترك والدتنا. أحيانًا أحبّه لأنّه يلبس بذلة بيضاء ويقود الفرقة النحاسيّة. أختي خديجة تعرف من أين تمرّ الفرقة النحاسيّة. وهي التي كانت تقول لي ظهر كلّ جمعة لماذا لا نذهب جهة الشلّال حيث تمرّ الفرقة. وتمسك بيدي لأنّها أكبر منّي. الوالد يلوح بعصاه النحاسيّة والكبش الأبيض السمين في المقدّمة لا يوجّهه أحد.

عندما كان يعيش معنا ومع والدتنا كان الضوء يبيت مشتعلاً في البيت. مع أنّني لم أكن أفهم علاقة الضوء بوجوده في البيت. عندما يكون والدنا في البيت يكون عندنا ضوء. وعندما يتأخّر لا يكون. قالت أختي السبب هو البذلة التي يلبس. بيضاء كالتي يلبسها الضبّاط الفرنسيّون. يسمحون لنا بأن نترك الضوء مشتعلاً في بيتنا أثناء منع التجوّل لأنّ والدنا يقود فرقتهم النحاسيّة. عكس بيت الجيران. وعكس البيوت الأخرى التي ليس فيها والد يقود فرقة نحاسيّة يسبقها كبش أبيض كبير. أحيانًا يستمرّ ظلام الليل داخل البيت وخارجه. يغطّي بيتنا وبيت الجيران. ينشر جناحه على كلّ ما حوله. فتقول الوالدة لو كان والدكما في البيت لما بقينا في الظلام. وبانتظار أن يأتي نبقى في الظلام. ثم تقول ها هم الفرنسيّون يمرّون من جديد وأسمع وقع أحذية الجنود وهي تخبط التراب في الخارج. خلف الباب. وأسمعها حتى وهم لا يمرّون. وأقول، بيني وبين نفسي أقول هل سيأتي الوالد إن أنا أشعلت الضوء؟ ولا أشعله. رغم أنّ العسكر لا يمشي في الزنقة المظلمة الآن. عبَرَها ثلاث مرّات منذ غروب الشمس. لن يشتعل في بيت الجيران ضوء. ولا في بيتنا. سيأتي والدي ليشعله. وأنا أنتهز الفرصة لأسأل: ماذا سيحدث لو أشعلناه؟ وتقول أمّي سيأتي العسكر ويكسر الباب فوق رؤوسنا. وإذا كان والدنا حاضرًا؟ لن يكسر أحد بابنا في هذه الحالة لأنّه يلبس بذلة تشبه بدلتهم. أحيانًا لا نشعل الضوء رغم أنّ الوالد في البيت لأنّنا في النهار. لو كنّا في الليل لأشعلناه رغم مرور العسكر، تقول الوالدة. ولن يكسر أحد بابنا بعقب بندقيّته. ولكنّه يأتي بالنهار ويجلس ساعة ثم يعود إلى كبشه. ولا نشعل الضوء لنراه وهو يمضي. كما لم نشعله لنراه وهو يأتي. يجلس ساعة دون أن نكون أشعلنا الضوء دقيقة واحدة لنجرّب إن كان العسكر سيحطّم الباب أم لا. إن كان سيكسر الباب فوق رؤوسنا أم

لا. لا سبيل إلى معرفة هذا لأنّنا نكون في النهار. وأشعله هذه المرّة لأنّ الوالدة تكون نائمة في غرفتها. ثم أقترب من الباب وأنصت إلى صمت الخارج. هل ما أسمع ضجيج أحذية الجنود أم ضجيج والدي وهو يعود؟ تكون أختي خديجة نائمة ولا ترى الضوء من قاع نومها الثقيل. أنصت وأسمع حفيفًا خفيفًا. ذلك أنّ أختي تتململ تحت الإزار. أسمع الحفيف وأتوقّع أن تقول شيئًا. ولا تقول شيئًا. عاد الإزار إلى صمته. إنّه نائم هو أيضًا. ثم تقترب الأقدام ولا أعرف هل هي أحذية العسكر أم حذاء والدي. ثقيلة، رتيبة، منظّمة، وتظلّ تقترب في الليل. ربّما كلّها معًا. وأتوقّع أن تنتصب أعقاب بنادقهم في الوقت الذي يقف والدي أمام الباب لمنعهم من كسره.

IV أترك إدريس ينصب الفخّ

خلف السياج وأتسلّل إلى البيت هاربًا وأتسلّق شجرة التين حتى لا أذهب إلى الشاون عند والدنا. في فناء الدار، يدخلون ويخرجون ويسألون أين اختفيتُ. أين اختفى عزيز؟ من بين فروع شجرة التين أستطيع أن أراهم، في فناء الدار، في الأسفل، يدخلون ويخرجون متسائلين. فين مشى هاد العفريت؟ عندما يكفّون عن البحث تتطلّع أختي خديجة إلى الشجرة لترى أنّني معلّق في قمّتها وأقطف التين غير الناضج ولا تقول إنّها تراني. تقوم بإشارات لا أفهمها. أو أفهم هذا الشيء: سنهرب إلى الغابة لنعيش مع القردة. وربّما عثرنا على عصافير تحبّ أن تعيش معنا دون حاجة إلى الطيران والهرب كلّما دنونا منها. (كانت أختي خديجة تقول لي إذا صعدتَ إلى الشجرة فستسقط عند الجيران ولا أصعد الشجرة حتى لا أسقط. أختي خديجة هي التي تتسلّق فروعها وهي الأخرى لا تسقط ولا تنزل حتى تكون التينات السوداء قد انتهت).

تخرج أمّي من الغرفة وتجلس عند الشجرة. قميصها جديد. تفوح منها رائحة الرجل الذي ستذهب عنده. ويتحلّق حولها كلّ جاراتنا. ونسوة لا أعرفهنّ. ورجلان يرتديان جلاليب غليظة ولا يعرقان فيها

رغم الصيف. في يد والدتنا ورجليها حنّاء كثيرة أستطيع أن أشمّ أريجها من هنا. تعتقد أنّني لا أرى حنّاءها ولا أشمّ أريجها. يخرج خالي من الداخل ثم أسمعه يقول لأمّي لا ينبغي أن يعرف. وأنا أعرف. يقول خالي لا ينبغي أن يعرف لأنّه ما زال صغيرًا. وأنا كبرت أكثر ممّا يعتقد خالي. على مشارف السادسة. وبعد سنتين سأكون في عمر خديجة وربّما أكبر منها. وأعرف أنّ أمّي ستتركنا لتذهب عند رجل آخر. رائحة الرجل الآخر تفوح منها ويأتيني مذاقها حتى قمّة شجرة التين. ستتركنا كما فعل والدي من قبل. تريد هذه المرّة أسمعها تقول إنّها تريد أن تستقرّ على شيء صلب. تحت شجرة التين ينتفض خالي: ما هو هذا الشيء الصلب؟ لقد ظلّتْ تكوي قميصه وجواربه بينما هو يشذب شاربه ويقفز من واحدة إلى واحدة. ما هو هذا الشيء الصلب؟ لا تستطيع يقول خالي هذه المخلوقة لا تستطيع أن تحافظ على رجلها لأنّها تقضي يومها نائمة. لا تقوم بأيّ شيء يجعل الرجل يبقى في البيت. وأسمع أمّي تقول إنّها كانت تستيقظ قبل الفجر لتكوي قميصه وجواربه. والدي يعيش الآن مع المرأة الأخرى. تكوي هي أيضًا قميصه وجواربه بينما هو يشذب شاربه أمام المرآة وعقله مع الكبش الذي ينتظره في الثكنة.

أستعدّ لأقضي الظهيرة بين فروع الشجرة لأنّني لا أريد أن أذهب إلى الغابة مع أختي خديجة لنعيش مع القردة. ولا أريد أن أعود إلى بيت والدنا. وسأقضي بها الغد وبعده. ليس بها فاكهة الآن حتى آكلها إذا جعت. ما زالت في حجم الكاوكاو الذي نلتقط من قبّ خالي عندما يعود من العمل يلفّه غبار الطريق الذي يعبّده هو والعمّال الآخرون. عندما يعود مساء يقول اشتغلنا جيّدًا هذا النهار. فتحنا نصف كيلومتر في الجبل. ونحن بدل أن ننصت إليه نرتمي على قبّ جلابيّته.

تقول لها جارتنا خذيه إلى والده. هو وأخته. عليه أن يتكلّف بهما. وكذلك تقول جارة أخرى. ويقول خالي إنّهما كولدي إدريس. وأتصوّر أنّ خالي يحبّنا أكثر من أبي. وأمّي تقول إنّها لا تريد أن تزعج أحدًا. وأتصوّر أنّ أمّي لا تحبّنا هي أيضًا. والجارات يقلن الطفلان كبرا. لا بدّ لهما من أب. وأتصوّر أنه الآن في الثكنة يدرّب الفرقة النحاسيّة. أو يغسل الكبش بالصابون. وأتصوّره على طريق الغابة، عصاه النحاسيّة في يده، يوجّه بها دقّة عزف الفرقة. يعود خالي إلى الفناء متسائلاً فين مشى هاد العفريت؟ وأتذكّر أنّني أحبّ خالي. لأنّه يأتي إلى البيت ومعه دائمًا حفنة كاوكاو. ندسّ أيدينا في جيبه أنا وإدريس لنلتقط الحبّات ونهرب بها إلى ركن الغرفة كالقطط لنأكلها حبّة حبّة. وأحيانًا لا نعثر عليها في جيبه. نتساءل بنظراتنا أين هو الكاوكاو؟ فنعثر عليه هذه المرّة في قبّ جلبابه. خالي عندما ينتهي من العمل في الشانْطي يشتري الكاوكاو في السوق ويخبّئُه في قبّ جلبابه لنعثر عليه. تفوح من خالي دائمًا رائحة الطريق. رائحته حاضرة في البيت حتى في غيابه. عندما يكون قريبًا من الفيلاج نذهب أنا وإدريس لنرى الجرّافات وآلات حفر بأذرع طويلة من الحديد، واحدة كجرادة كبيرة. وأخرى كخنفساء. يكون خالي والعمّال الآخرون يمدّون الطريق التي ستذهب حتى العاصمة. نسأل خالي كلّ مساء هل وصلت الطريق إلى العاصمة فيقول خالي وهو فرحان قريبًا قريبًا. ونحن نرى الطريق تزحف نحو العاصمة شيئًا فشيئًا. ويجلس العمّال ليشربوا الشاي في غراريف سوداء ويتكلّمون عن الطريق التي مضت والأخرى التي ستمضي تحت سواعدهم النحيفة. على رؤوسهم خرق مرقّعة حتى لا تضربهم الشمس. ثم ذات يوم مرّت الطريق من أمام البيت وبقي العمّال معنا لأسابيع. ينامون تحت الآلات الكبيرة التي تشبه الجراد.

وفي النهار يعملون وعلى رؤوسهم أكياس الإسمنت الفارغة أو الخرق المرقّعة التي رأينا من قبل. تحت جدار البيت يلوون الحديد ويصنعون منه جدرانًا عالية تصبح طويلة عندما يمدّدونها على الأعمدة ثم تصبح طريقًا سنمرّ منها إلى ضفّة النهر الأخرى. قال خالي هذه قنطرة. وأصبحنا نقول سنمرّ فوق القنطرة. وعندما نذهب إليها نجد العمّال يتغدّون تحتها. ونقول إنّ القنطرة تصلح أيضًا ليتغدّى تحتها العمّال. فيأتي الجزّار السي موسى ويذبح في ظلّها العنزة التي سيبيع في السوق. ونقول وتصلح القنطرة ليذبح تحتها السي موسى عنزته. يعلّقها تحت القنطرة حتى يسيل دمها. وأحيانًا عنزتين لأنّ العمّال يشترون أيضًا اللحم من عند السي موسى. وخالي يرى الطريق تمتدّ وستصل إلى العاصمة قريبًا ويفرح لأنّه قال هذا الكلام. ونفرح أيضًا لأنّ هناك مدينة اسمها العاصمة والطريق ذاهبة إليها. وعندما يعود مساء يقول اشتغلنا جيّدًا هذا النهار. غدًا سنشتغل أكثر. ونسأله هل وصلت الطريق إلى العاصمة فيقول قريبًا قريبًا.

أحبّ خالي كثيرًا، ولا أحبّ والدي ولا أحبّ أمّي.

من بين أوراق شجرة التين أتطلّع إلى الساقية. الساقية باقية في مكانها. وكذلك سياج الصبّار. وأشجار الزيتون. أبحث عن الحجر الذي وضعت فوق العصفور. لا أتبيّن الحجر لأنّه بعيد. ربّما نهض العصفور من غفوته وأزاح الحجر وحلّق مجدّدًا دون أن أراه. أسمع طائرًا يغرّد بين أوراق التين. قد يكون عصفورنا الذي دفنّاه قرب الساقية. بعيدًا عن الساقية، في الأفق يعبر طيف. أتسلّى بمراقبة تقدّمه الحثيث. بعد لحظات يصبح الطيف رجلاً يسير على بغلته. أمّي تبكي تحت الشجرة. الجارات يواسينها وخالي يوبّخها. أمّي تبكي وتقول إنّها ستشتاق إلى ولدها وأتعجّب من كلامها. وتقول إنّها تفضّل أن

تبقى بجانب أولادها وخالي يقول عنده دائمًا ما ينفق علينا. الرجل الذي ظلّ يتقدّم على بغلته يمشي الآن جنب الساقية. يتوقّف أخيرًا على مشارف شجر الزيتون ويترجّل ويجلس فوق حجر يمسح عرقه. كأنّما انتهت رحلته ها هنا. أمام بيتنا. وخالي لم يعد يبحث عنّي لأنّه مشغول ببكاء أمّي. وهل تعرف أختي خديجة لماذا جاء الرجل؟ وجلس بين الزيتونات يحدّق في البيت؟ هل جاء ليأخذ والدتنا معه؟ إنّها إلى الساعة تكتفي بالإشارات. أمّي تبكي حتى قبل أن تلتحق به ليأخذها على بغلته بعيدًا. تفوح منها رائحته. والجارات قلن من الأفضل أن نعود عند والدنا ليتكلّف بنا بعد أن كبرنا. والرجل يحدّق في البيت كواحد ينتظر خروج المرأة التي سيأخذ معه. وليس كواحد ينتظر أطفالاً. لأنّنا سنهرب إلى الغابة ونعيش مع القردة وليس مع والدنا وامرأته التي لا تحبّنا. ربّما كان الكبش يحبّنا كما كنّا نحبّه. هل ما زال الكبش في الثكنة؟ الوالدة ظلّ يشغلها الكبش حتى عندما ذهب رجلها مع تلك المرأة. كأنّه لا يزال معنا. بالمقدار نفسه الذي شغلتها جواربه وقميصه. ما دام الكبش في أحسن حال فسيكون من الممكن إعادة كلّ شيء كما كان. وعندما تزوّج وجئنا عند خالي بقيت تتحدّث عن الكبش الذي كانت تغسل حتى يبقى دائمًا أبيض. أمّا الكبش فلا يعرف إن كانت الوالدة تفكّر فيه أم لا. لا يعرف ولا يهمّه أن يعرف. ولا يعرف هل انتقلنا من بيت إلى بيت. وبدوري لا أستطيع أن أفهم كيف يعرف الكبش طريقه ولا يعرف هذه الأمور. ولا أفهم ضرورة وجود كبش في مقدّمة الفرقة النحاسيّة. أبيض وسمين ومغسول. ويعرف الطريق.

جاءت امرأة ووضعت ماعون المرق وخبزة كبيرة أمام الرجل وعادت إلى الداخل. لم تسلّم عليه ولم يسلّم عليها. غسل يديه في

الساقية. بدل الجلباب يلبس وزرة زرقاء. وبها مسح يديه ولحيته وبدأ يصلّي. بغلته تحكّ جلدها بلحاء الشجرة وتنظر إليه وهو يصلّي. وعندما انكبّ على الماعون اختفى وجهه. ثم جاء خالي وجلس جنبه. أمّي جرّت أختي خديجة من ذراعها وقبّلتها وهي تبكي. ثم نهض الرجلان معًا وتقدّما نحو البيت. وقفا في الفناء تحت الشجرة. رفع الرجل نظره إلى الشجرة وأشار إليّ أن أنزل. نزلت. وقال خالي ستذهب مع عمّك.

١٢

رواية بابا علي

(الثانية والنصف بعد منتصف الليل)

نعقت البومة

كما ظلّت تفعل كلّما مات أحد المساجين. قلتُ لبنغازي لماذا لا ندفنه كما يدفن المسلمون.

عاد يلعب بالبيدق. بلونيه. كأنّما يترك بيننا فسحة من الوقت ليدرك ما قلت.

هادا على الأقلّ ندفنوه بحال لمسلمين.

كيفاش كيتدفنو لمسلمين؟

بالكفن.

ولاش لاق ليه هاد لكفن؟

على الأقلّ يموت مرتاحْ وما يخرجش لينا بالليل.

أيسخر منّي بنغازي وهو يسألني هل يخرج الموتى بالليل. عدنا إلى اللعب دون أن يعود إليّ الحماس الذي بدأت به الليلة. وهذه المرّة سمعنا الصوت واضحًا. متميّزًا. ليليًّا. ومن قلب الساحة. اهتزّ قلبي من موضعه ووقف شعر رأسي: سمعتيها؟ نعم بنغازي سمع البومة هذه المرّة ولن يدّعي أنّه لم يسمعها. ومع ذلك لم تحرّك فيه شيئًا. لم تهتزّ له شعرة مع أنّه الميت الأخير. ظللنا نتساءل هازئين كلّما نعبت البومة، عندما

كانوا كثيرين، على من الدور هذه المرّة؟ لم يعد للهزء مكان في قلبي منذ بدأت أراهم في الليل. استمرّ فكري يرى عزيز ميتًا. بعد دفنه هل سأستريح؟ حتى إذا لم تأت دفعة أخرى من المساجين هل سأستريح؟ منذ عشرين عامًا ونحن ندفنهم. جماعة وراء جماعة ودائمًا أقول إنّها الجماعة الأخيرة. ودائمًا يكذّبني قولي. استمرّ فكري يتعقّب نعيب البومة أيضًا. يتعقّب صدى نعيبها في عمق الليل. يشبه نعيبها خيط ضوء يشتعل وينطفئ في الليل. يشتعل وينطفئ في قلب ليل صحراوي خاو محدثًا لسعات غريبة بداخلي. لأوّل مرّة. الشارجان بنغازي تخلّص من البيادق التي كانت في يديه وهو يلعن بكلام لا أفهمه. لا أفهم ما يقول بنغازي حتى عندما لا يلعن. نهض كأنّما تذكّر شيئًا. أخذ القنديل وخرج. بنغازي يقول إنّه لا يخشى الموتى. لا يخشى أحدًا. لا من الإنس ولا من الجنّ. يخاف فقط من خاله الكومنْدار. هو ليس خاله ويقول له خالي ليتملّقه. أنا لا أحبّه سواء كان خاله أم لم يكن. ولا أحبّ بنغازي. نهضت وسرت وراءه. جثّته الكبيرة تتمايل أمامي كالدابة. في الليل. وأقول خلفه نْدفنوه بْحال لمسلمين. هادا على الأقلّ ندفنوه بحال لمسلمين. وهو لا يردّ. وقفنا أمام الزنزانة. أمام بابها الصغير. قال ادخل. قلت لا أدخل. بقي ينظر إلى الباب ويحكّ ذقنه. رأسه ضخم كرأس الفيل. وهو يفكّر. ممسك برأسه كأنّما يخاف أن يسقط من ثقل التفكير. ثم مدّ إليّ القنديل وتسلّل إلى داخل الزنزانة. وجّهت ضوء القنديل نحو بنغازي ورأيته ينحني على الميت ويفتّش جيوبه. ثم خرج وأخذ منّي القنديل وعاد إلى الداخل. واستمرّت عيناي تريانه يفتّش الميت. ماذا تفعل يد بنغازي في أسمال الميت؟ يده لم تتوقّف لأنّها لا تسمعني. أمّا اليد الأخرى فقد أدركت أنّني أراهما فأطفأت القنديل. كأنّما وقعت اليدان المتواطئتان على شيء لا تريدان

منّي أن أراه. وأنا أصررت على السؤال. ماذا تفعل يدك في جيب الميت يا بنغازي؟ فعاد ضوء القنديل من جديد. وهذه المرّة كان بنغازي يمسك عزيز من ساقه ويرفعها عاليًا. والميت لا يتحرّك. وبنغازي ملتفت جهتي كأنّما ليقنعني بأنّه غير مهتمّ بالجيب وإنّما بالميت. وأنا مستمرّ أسأله عن الشيء الذي أخذ من أحد جيوبه.

فقال الشارجان: صافي مات. ووجّه القنديل نحو وجه الميت.

في اللحظة نسيت الجيب. عزيز كأنّما انطفأ. اختفت فسحة الأمل التي كانت تعبر ملامح وجهه عادة. لا تكشيرة، ولا نظرة متألّمة. والو. وجهه أملس. بلا تعبير. وقد غطّاه سائل لزج التصق بشعر الوجه الكثيف والثوب المهترئ. كأنّما صارع الموت طويلاً. لففنا حوله الغطاء ولم أتذكّر جيبه ولا ما قد يحتويه ولا ما إذا كان له جيب أصلاً. غطاؤه رثّ، مثقوب وأسود. جررناه حتى الساحة. جهة الحفرة. قال بنغازي وهو يضحك: عَجْبك هاد الكفن المثقوب؟ أنا لا أمزح مع هذه الأمور. أنا لا أضحك من الموتى. الكفن يكون نظيفًا وأبيض، دائمًا.

وهو يحاول أن يشرح لي أنّنا دائمًا ندفنهم بلا كفن ولا غطاء: ياك موالفين كيفما كيقول ليا عقلي بلا غطاء نرميوهم دائمًا وعريانين فوق هادا؟

وأنا أردّد دون أن أحاول فهمه: خصنا ندفنوه بحال لمسلمين. بالكفن الأبيض... على الأقلّ... بحال لمسلمين... والكفن وآيات من القرآن.

الكفن... أبيض... إيلا عندكْ.

ما عنديش.

ثم لم أعد أسمعه. قلت ننتظر حتى الصباح. ونشتري له كفنًا.

وندفنه كما يدفن المسلمون. بكفن أبيض وجديد وفيه رائحة الثوب وليس رائحة الخراء. هذا ما أقول. إذا نحن دفناه بالكفن، كما لو نكون دفنّا الآخرين بالكفن أيضًا. لأنّ الله سيرى فعلتنا الأخيرة ويغفر لنا الذنوب السابقة. سيرى أنّنا كنّا مضطرين ونفعل ما نؤمر به. سنكون فعلنا خيرًا بأنفسنا، لأنّ الميت ميت ولا يهمّه أن يدفن بالكفن أو بدونه. هل تفهم يا بنغازي؟ الميت لا يعرف. نفعل هذا من أجلنا وليس من أجل واحد لم يعد يهمّه أن ينام عاريًا أو بالغطاء. هل تفهم هذا على الأقلّ؟ كما لو كنّا نسينا أنّ الموتى يدفنون بالكفن وتذكّرنا أخيرًا. هل تفهم؟ سيرى الله كلّ هذا المجهود الذي نبذل. وإن جاء متأخّرًا فإنّه يدلّ على حسن نوايانا ويسامحنا على ما سبق. سيفكّر في الأمر من كلّ أوجهه ويرى في الأخير أنّ لا مناصّ من المغفرة. خصوصًا مع بعض الآيات...

الحفر موجودة. مهيّأة دائمًا. وبرميل الجير جنبها. عندما هممنا برمي عزيز ظهرت الكلبة. خرجت من خلف النخلة. والشارجان وضع القنديل على التراب وتوهّجت بقعة الضوء. وانتشر الليل حولنا أنا وهندة وعزيز المرمي في غطائه النتن. لن يدفن كما يدفن المسلمون. بالكفن الأبيض وآيات من القرآن. تضاعف السواد خارج بقعة الضوء التي تسترنا. اختفى بنغازي خلف النخلة ليحضر المجرفة. بنغازي لا يحتاج إلى ضوء. يسير في الليل كالبومة التي كانت تصيح أو كالوطواط. أو كأيّ هامة. التفتّ جهة المصباح ورأيت وجه الميت. عيناه مفتوحتان. وكأنّما ينظر إليّ. تحركت شفتاه. كأنّما يريد أن يقول شيئًا. حتى هندة الكلبة اقتربت وبدأت تشمّه. وكأنّما سمعتُ نداء. عزيز يناديني. وتملّكتني الرهبة، كأنّما مسّني تيّار كهربائي، عندما قفزت الكلبة إلى الخلف وهي تطلق صوتًا غريبًا. أشبه بالنواح. عدت أحدّق في الميت. شفتاه تتحرّكان. عزيز لا يزال حيًّا. ما فيها شكٌّ. عندما عاد الشارجان

ومعه المجرفة قلت له عزيز باقي حيّ.

ماتْ كنقول ليك.

ها أنت شوف. وأخذت القنديل وأضأت وجهه. عيناه مغمضتان هذه المرّة. وفمه جامد. ولا حركة. كأنّما مات ثانية.

آش غادي نشوف؟ ما عندي ما نشوف.

أضأت وجهه ثانية. الوجه جامد. خيالي يصوّر لي أشياء. وهذا الليل. ليل الموتى. عقلي لم يعد في مكانه. تزعزع. قلت لبنغازي أن نسرع بدفنه قبل أن تمسّنا مصيبة. كأنّما لم يكن ينتظر سوى الإشارة. رميت الغطاء على وجه عزيز ورميناه في الحفرة وبالمجرفة رمى فوقه كمِّيّة كبيرة من الجير. وأهلنا عليه التراب.

بقيت لمدّة أنظر إلى المجرفة المرميّة فوق ركام التراب، عاجزًا عن أيّ حركة. كأنّما أصاب أعضائي الشلل. ماذا أفعل هنا قلت دون أن أشعر. قال بنغازي إنّنا لا نحتاج أن نقول لأنفسنا لأنّنا معًا جئنا إلى القصبة لنضاعف راتبنا وأشياء أخرى...

هل نسيتُ؟ عندما تبدأ بداية سيّئة فإنّك سرعان ما تنسى كيف بدأت ولا تعرف كيف ستنتهي. تبدأ طبّاخًا أو دليلاً كبنغازي وإذا بك تصبح حفّار قبور ثم تدفن الموتى وينتهي بك الأمر إلى أن تدفن حتى الأحياء.

أطفأ بنغازي القنديل. وعدنا إلى الغرفة.

العب.

وأنا لا ألعب لأنّني لم أعد أرى الرقعة. أرى عزيزْ يصارع لكي يخرج من الحفرة. فمه عامر بالتراب والجير وهو يقاوم. وأقول إنّ أقلّ ما يمكن أن يحدث هو أن يدخل علينا عزيز بترابه وجيره. عريان بلا غطاء وأبيض، بدل الكفن كسوة من الجير الكثير الذي رمينا فوقه. رأسي

مشتعلة، حامية كالفرن. وأعضائي أصابها وهن بعد تشنّج اللحظات السابقة. العرق هابط من جبهتي وأحسّ به سارحًا يسيل على صدري كجدول سرّي. بنغازي لا يسيل من جبينه عرق. كأنّما دفن الأحياء مهنته. قال بنغازي إذا كان عقلي ينفعني فإنّه سيموت على كلّ حال. وإن لم يكن الآن فبعد ساعة. وإن لم يكن بعد ساعة فغدًا كما تفعل الدنيا. . . ما جدوى أن يضيف الميت إلى عمره ساعة أو ساعتين؟ العب يا بابا علي، الرجل مات ونبيّنا عليه السلام.

وأشعل السبسي ومدّه إليّ: تكمي؟

أخذت السبسي وبعد نفسين ازدادت درجة توتّري بدل أن تخفّ.

مالك أبابا علي؟ انس الميت يا بابا علي. انسه كما نسيه عقلي.

ثم تذكّرته عندما حاولت أن أنساه. وربّما بفعل الكيف أراه يعبر الباب وينفض الجير من على كتفيه. لعبتُ حتى لا أرى الباب. وأنسى عزيز. وأنسى الغبار الأبيض الذي يرمي فوقنا. إنّه السجين الأخير. البال بعده سيرتاح. البال بعده لن يرتاح. وهذه الفكرة وحدها كافية. أفتّش بداخلي عن هذه الراحة ولا أجدها. قلت لبنغازي لن ندفن أحدًا بعد اليوم. اعتقدت أنّني ابتسمتُ ولكنّني فطنت في اللحظة نفسها إلى أنّني لم أكن أبتسم. وضحك الشارجان وهو يردّد لن ندفن أحدًا بعد اليوم.

العب أ بابا علي.

رميت البيدق. نظرت إلى يدي. كانت ترتعد.

ثم بدأت الكلبة هندة في الخارج تنبح. . .

وما دريتُ هل عيناي مفتوحتان أم مغلقتان. جسدي يقول لي إنّهما مغلقتان. وعقلي يقول العكس. وبنغازي أراه كخيط دخان ويصدر

أصواتًا كنعيب البومة التي كانت تصيح من قبل. ثم هناك في الخارج أصوات أخرى لا أتبيّنها كلّها. وخطوات في الخارج تئزّ، تصرّ، تخشخش، تجعل جسدي يغادرني. إنّه عزيز يتنفّس. هل تسمعه يتنفّس خلف الباب؟ عيناه تحاصران الغرفة حتى لا أغادرها. تطلّان من النافذة ومن الباب. هل بقي وقت للخروج ومن أين؟ هناك سقف وجدران وضوء مشتعل وضوء منطفئ وجير وغبار وأشباح وركض وصياح...

١٣

رواية هندة

(الثانية والنصف بعد منتصف الليل)

I ما زلت أتساءل بعد هذه السنوات

هل كنت مضطرة لأن أتبعه حتى هذا الخلاء. أنا الآن في مكان بعيد. بعيد عن أيّة مدينة. قصبة منتصبة وسط الأرض القاحلة. لا زرع ولا ماء عدا بعض النخلات النابتة في الساحة. أسوارها الطينيّة عالية. العساكر الذين يجلبون لنا الماء، يضعون الصهريج الصفيحي العامر عند الباب ويأخذون الفارغ ويرحلون. ضبّاط مهمّون يأتون من العاصمة وبدورهم لا يتعدّون مكتب الكومونداژ. ما عداني أنا والحارسين بابا علي وبنغازي فلا أحد يدخل أو يخرج. الكومونداژ يبقى في مكتبه. يوم السبت يذهب إلى مكناس ليزور عائلته ويعود فجر الإثنين. لم أعد أرافقه منذ مدّة. لا إلى بيته ولا إلى البار الذي التقينا فيه أوّل مرّة. وأحيانًا لا يذهب إلى أيّ مكان. يسكر في مكتبه مع بنت من بنات الدواوير المحيطة. بابا علي وبنغازي يمكثان في القصبة جلّ الوقت. يذهبان إلى بيتهما مرّتين كلّ ثلاثين يومًا. يسكنان في دوار قريب لا يبعد كثيرًا عن القصبة. بدورهما يقضيان جلّ وقتهما في غرفتهما يلعبان الداما. لا أحبّ بنغازي. لا أحبّ بالأخصّ أن يضع يده على ظهري. بابا علي لا يشبه بنغازي. تقريبًا مرّة في الشهر يدخل علينا في مكتب الكومونداژ. يسأله: ماذا تريد يا بابا علي؟ يمدّ إليه بابا علي ورقة وهو يقول إنّه يريد

فقط أن ترسله الحكومة إلى الحجّ ليغسل ذنوبه قبل أن يفوت الأوان.

لست نادمة. لا أنتظر الكثير من البشر. أتساءل فقط فيم كان الكومندار يفكّر وما كانت حاجته بي وهو يفتح أمامي باب سيّارته. ربّما اعتقد أنّني كلبة صيد. لن يكون المخطئ الأوّل على أيّة حال. ها هو رجل مهمّ، الجميع يهابه هنا في القصبة وخارجها، يفعل ما يشاء كالملك في مملكته ولم يصطد خلال السبع سنوات التي قضيت معه عصفورًا واحدًا. كم من مرّة ضحكت في سرّي وأنا أراه يزاول رياضته الغبيّة. ما إن يستعدّ ويرفع البندقيّة حتى يكون الطير قد طار. وأضحك أكثر عندما أسمع الطيور الأخرى في الأشجار المجاورة تقهقه. لأوّل مرّة أشاهد الغباء البشري. ومنذ سنة تقريبًا علّق الكومندار بندقيّته على الجدار.

الساحة عامرة بالموتى. بشر كثير يأتي هنا ليموت. في الساحة أراقب حركة الموتى تحت الأرض. كانوا أكثر من ثلاثمئة وسبعين عندما جئت إلى القلعة قبل سبع سنوات. عندما يأتي أجل أحدهم يجرّانه من رجله حتى حافّة الحفرة ويرميانه ويصبّان عليه الجير ليحترق. هذه طريقة جديدة في دفن الموتى لم أرها في السابق. مرّتين رأيتهما يخرجان بالميت من إحدى الحجرات محمولاً في برويطة. (كما كانوا يفعلون بنا عندما كانوا يقودوننا خلف المجازر البلديّة لإعدامنا. عربة صغيرة، رماديّة، مموّهة، معدّة خصّيصًا لإعدامنا). الغطاء انسحب وتجرجر مع الأرض وبقي الميت يتأرجح فوق البرويطة عاريًا. كمشة من العظام غطّاها الشعر. حيّ أو ميت فالكلب يبقى كلبًا. أمّا هذا الميت فقد تحوّل إلى شيء آخر لا أعرف ما هو. لا هو بالآدمي ولا هو بالحيوان. كتلة من الشعر متقيّحة وتفوح منها رائحة كريهة، أكثر نتانة من رائحة الجيفة. وما تبقّى من أسماله صلب كالخشب. رائحة بول وخراء آدمي

وصديد وعفونة متراكمة، رائحة كلّ شيء قبيح على وجه الأرض. لم أر منظرًا مثل هذا من قبل. تراجعت. أمّا بابا علي وبنغازي فقد تقدّما نحو الحفرة كأنّما يحملان خيشة بطاطا.

ذات ليلة كانا مشغولين باللعب لدرجة أنّهما أرجآ دفن الميت إلى الغد. وعندما عادا في الغد اكتشفا أنّ الفئران أكلت بطنه بالكامل.

II عندما لا يدفنان الناس

فإنّهما يلعبان الداما. إنّهما في غرفتهما الآن منهمكان في اللعب. أرى ضوء البيت الكابي هناك في الطرف الآخر من الساحة. خاطري معكّر الليلة. أشعر أنّ أمرًا غير عادي يحدث. وحيدة أتأمّل الظلمة. أتأمّل في الحقيقة الرجل المدفون حيًّا. أتأمّل التراب فوقه لا يزال طريًّا. والفئران التي بدأت تطلّ من جحورها بعد أن شمّت رائحة الوليمة وترى في مخّها الصغير أنّها تتعشّى بلحم طري كما تعشّت من قبل ببطن رفيقه السابق. الفئران مدعوّة إلى عرس استثنائي الليلة. لم يستبدّ بي غضب كالذي استبدّ بي لحظتها. عشت مع البشر. حياتي كاملة قضيتها بصحبتهم. أعرفهم أو كنت أعتقد ذلك. البشر لا يدفنون الناس أحياء. صعدت الدموع إلى عينيّ من هول الصدمة. لا يوجد مخلوق يدفن مخلوقًا آخر حيًّا. لا الحشرات ولا الحيوان ولا الجماد. كنت أغلي بداخلي. الكلاب ليست بشرًا. لها أحاسيسها وإن كانت بسيطة. تعرف ما هو الألم، والبؤس. والفرح، والسعادة. بدأت أنبح لأخيف الفئران. وبالفعل اختفت لبعض الوقت. أو تراجعت لتهجم من جديد. عندما بدأتُ الحفر سمعتها تحفر من الجهة الأخرى للقبر. كما لو كانت لنا الأهداف نفسها. كما لو كنّا نحفر نفقًا تحت الأرض.

الظلام يغشى كلّ شيء في الساحة لهذا تظلّ هجوماتي عليها عديمة الجدوى. ولكنّني مصرّة على إبعادها. وفي الوقت نفسه أفكّر فيه وأحاول أن أحفر في موضع الرأس حتى أفتح فجوة صغيرة تمكّنه من التنفّس قبل أن تفلت منه روحه. أشمّ رائحة الحياة من تحت التراب. وأحفر. ولكنّ الفئران من حولي تتكاثر. أهجم عليها من هذه الجهة فتهرب إلى الجهة الأخرى. وتهدأ لبعض الوقت حتى أقول إنّها هربت فأسمع خربشتها في الظلام. وصوت تكاثر أرجلها. رائحة اللحم الطري هيّجتها. كم عددها؟ كلّ فئران القصبة خرجت هذه الليلة. الوليمة التي تنتظرها هذه الليلة اسمها عزيز. أضرب من حولي الهواء والتراب وأنبح بكلّ قواي، وأحفر. وأحفر من جديد رغم الجير الذي يحرق عينيّ والفئران التي أسمع أصواتها الحادّة حولي كمواء القطط العمياء. وأحفر. وتحفر بدورها. وأشمّ الحياة تتضاءل تحت التراب. وأحفر. وأحفر. وأرى قواي تضعف أمام تكاثر هجماتها الموجّهة ضدّي هذه المرّة وأحسّ أنيابها تقضم قوائمي. لسعات حادّة. انثنيت مدْبرة وتعثّرت في المجرفة. ركنت جنب نخلة قريبة أستعيد أنفاسي. الدنيا ظلام. لا أرى ما تفعله الفئران وإن كنت أحسّها تتقافز من حولي في نشاط محموم، وإن كنت أسمع حركة دؤوبة يصوّرها لي خيالي التعس كهدير خافت، تحت أرضي، متواصل وأقول أنياب الفئران تعمل عملها ولن يبقى من الرجل شيء عند طلوع النهار. وأنا عاجزة عن عمل أيّ شيء. فيزيد شقائي ويغلب عليّ الضيم وأنا أرى الليل يتمدّد ويتمطّى كأنّما يساعدها على إنجاز مهمّتها القذرة.

ثم، هكذا، فجأة، بدأ المطر يسقط. مطر ثقيل كالحجر. وقد يكون بردًا نزل في هذا الوقت المناسب جدًّا. قشعريرة فرح سرت في كلّ جسدي وأنا أسمع دوي سقوطه وأتساءل هل تراجعت الحيوانات

الكريهة تحت زخّات المطر المتلاحقة. بالفعل لم أعد أسمعها. وماذا حلّ بالرجل المدفون حيًّا؟ اقتربتُ وتراجعت في الآونة نفسها. هل تعتقد أنّ ماء ولو بهذا الصخب كاف لإزعاجها؟ لا، حتى الطوفان لن يثنيها عن وليمتها الاستثنائيّة. وأنا نفسي لم يعد يهمّني أن تصبّ السماء علينا غضبها ما دام لا ينفع حتى في صدّ هجمات الفئران. فجأة أضاء ضوء الغرفة جزءًا من الساحة وظهر الحارسان يسبقهما صوتهما القوي في ليل الساحة. بابا علي يتبعه بنغازي. وكانا يتخاصمان. من حسنات المطر أن جعلت الرجلين يظهران في هذه اللحظة الحرجة. وهذه المرّة هربت الفئران. اختفت تمامًا. لم يعد بنغازي إلّا بعد مدّة طويلة، وبقي ضوء الغرفة مشتعلاً. وقلت نعم، المطر لم يرغم الفئران على التراجع ولكنّه دفع بالحارسين إلى الخارج. وهو الشيء نفسه. عندما عاد بنغازي وحده كان يضحك أو يلعن أو ما لست أدري. لم أهتمّ لأنّني كنت قد تقدّمت كثيرًا. وازداد اندفاعي قبل أن يختفي الضوء وتهجم الفئران من جديد. عندما أمسكت يده وبدأت أجذب كان النهار قد بدأ يطلّ. عزيز خفيف. لا يزن وزن دجاجتين. رأيت عينيه تشعّان في ضوء الفجر الطالع. وابتهجت. وهذا ما زاد من حماسي. لم أبال هذه المرّة بالفئران وهي تجذب أطرافه الأخرى. هجمت عليها وانقضضت على أحدها بكلّ ما تملك أنيابي من قوّة حتى انفجر بطنها. وعزيز يبتسم وعيناه تبرقان في الطرف الأوّل من النهار. وأنا بنظراتي أشجّعه على أن يستمرّ في تفاؤله. ثم أغمض عينيه، كأنّما ليستريح.

١٤

رواية زيـنة

(فجر اليوم التالي)

I لا أذكر أنّنا عبرنا نهرًا

أو مررنا على قنطرة. أستيقظ على هدير المحرّك الذي أصبح ضاجًّا ومختنقًا كأنّما يدور في الفراغ. عقلي صاحٍ وصاف والانقباض السابق كأنّما أصبحت أراه عبر نفق طويل، آخذٌ في التلاشي. ألقي نظرة على ساعتي اليدويّة. في الخارج بدأ الليل ينسحب والنهار ينشر حول الحافلة ضوءًا شحيحًا كأنّما يتسلّل بين شقوق غير مرئيّة. ولادة نهار جديد تشرح الصدر دائمًا. هذا ما فكّرت فيه عندما فتحت عينيّ. كأنّما نجوت من فخّ. المرأة بجانبي غارقة في نوم هادئ. رأسها لا يصعد أو يهبط أو يميل يمينًا وشمالاً كما يفعل المسافرون عندما يستسلمون لسطوة النوم صاغرين. (وضْعٌ وجدته دائمًا مضحكًا. لا أعرف مخلوقًا آخر يحدث له هذا في النوم. ولا أدري إن كنت أفعل الشيء نفسه عندما أكون نائمة). رأسها متّكئ على أعلى المقعد وتبدو كأنّها مستيقظة، مغمضة العينين فقط وتستريح. الطريق الذي نسير فيه ضيّق وصاعد لأنّنا نعبر منطقة جبليّة. جبال عالية، كتلة كثيفة داكنة اللون، غامضة، تحفّنا من كلّ جهة. منكمشة على سرّها. وعلى قممها غلالة من ضباب خفيف زاد من سحر غموضها. برد الفجر قارس يدخل من النافذة وينفذ إلى العظام. أحاول إغلاقها. أرى أنّ الحافلة تسير على حافة هاوية سحيقة.

يكاد قلبي يصل إلى حلقي. أتراجع. أنظر أمامي وتبدو الحافلة كالمعلقة أو كالصاعدة في الهواء. لا أنظر إلى جهة الهاوية ولا تغيب عن عينيّ مع ذلك. وعند كلّ منعرج ينقبض صدري وأنا أتصوّر الحافلة تنقلب بنا وتتدحرج وتوقف تدحرجها صخرةٌ أو شجرة ونبقى معلّقين في الهواء ولكن سالمين. ثم أتصوّرها تهوي إلى قاع النهر والمسافرون يتناثرون من النوافذ. أغوص في ماء نهر لا أدري إن كان فعلاً موجودًا في الأسفل وأخرج منه سالمة وأنتظر أن تخرج المرأة بدورها من تحت الماء وأنظر إلى كلّ الجهات ولا أراها.

وأتصوّر نفسي ميتة، ساكنة في ميتة هادئة.

وجه السائق بلا تعبير. عيناه مركّزتان على الطريق. كأنّما يسوق حيوانًا أليفًا ويعرف أحدهما الآخر منذ أمد. يده على المقود وأخرى على أداة تغيير السرعة تتحرّك أمامًا وخلفًا. والمحرّك يغيّر من حدّة زعيقه عند كلّ تغيير كأنّما يتبع أوامر سيّده. ثم انحدرنا وأصبحت الحافلة تسير بسرعة أكبر وإن لم تختف المنعرجات إلّا بعد مدّة. بعدها انتقلنا إلى طريق منبسط وسط غابة من شجر يشبه المظلّات بسيقانها الطويلة وفروعها الكثيفة الورق والمضغوطة. أخرج السائق علبة نشوق وأفرغ جزءًا من المسحوق الذي تحتويه فوق ظهر يده التي تمسك المقود. أخفى العلبة وأمسك المقود باليد التي أخفت العلبة وتنشّق عميقًا ومسح منخريه وعاد يركّز على الطريق. وعند نهاية هذه الغابة أوقفنا حاجز من حديد نابت في الأرض كالمسامير المعقوفة. وهناك دوريّة من الدرك والجيش بكلابهم. وعلى جانب الطريق الشاحنات وسيّارات الجيب التي أقلّتهم حتى مشارف الغابة.

مال السائق يمينًا وأوقف المحرّك. واستيقظت المرأة والتفتت جهتي متبسّمة وقالت سواء في حافلة أو في سيّارة يحدث لها دائمًا أن

تستيقظ عندما يتوقّف المحرّك. الطيور في الشجر القريب تصدح بغناء عال. في الصباح يكون غناؤها أكثر كثافة. تشدّ همّة بعضها قبل الانطلاق بحثًا عن الرزق. أفكّر في الشوط الذي قطعت وفي الشوط الباقي. نهار آخر يطلع وأنا بعيدة عن آزرو، قريبة من مكان غير محدّد. قصبة في قرية أم في غابة أم في صحراء؟ كلّ ما أعرف هو أنّني سأتعرّف عليها بمجرّد رؤيتها. عندي هذا الحدس الذي يشبه اليقين ثم إنّني رأيتها مرّات في حلمي ولن تخطئها عيناي. لا أعرف فقط كم سأمضي من الوقت في البحث عنها. ولأوّل مرّة تطرح عليّ مسألة العودة إلى آزرو. هل أستطيع العودة في النهار نفسه؟ وإذا تعذّر الأمر؟ أراني فقط أطرق بابًا تارة كبيرًا وتارة صغيرًا. تارة يطلّ منه شخص وتارة يبقى موصدًا. وبعد؟ سأرى هذا في حينه.

السائق يطلّ من النافذة ويتحدّث إلى فردين من الدوريّة. يناول أحدهما علبة النشوق وهو يضحك. يفرغ منها الدركي قسطًا ثم يعيدها إلى السائق. يتبادلان حديثًا مقتضبًا ثم ينهض ويغادر الحافلة. بعد لحظات يصعد دركي وجندي وشخص آخر باللباس المدني. يقفون في المقدّمة ويحدّقون فينا طويلاً الواحد بعد الآخر. يمرّ الرجل صاحب اللباس المدني بين صفّي المقاعد ويسأل هذا المسافر أو ذاك عن وجهته ويطلب منه بطاقته الوطنيّة. يعود أدراجه مركّزًا بالطريقة الصارمة نفسها على كلّ وجه ثم يلتحق بالآخرين ويغادرون. وتبقى الحافلة مركونة في مكانها تحت الشجر. ويبقى السائق غائبًا. عندما يصعد أخيرًا يقول إنّ ثلاثة سجناء فرّوا من السجن وإنّ الجيش بمساعدة السكّان يطاردونهم منذ يومين في الجبال. وأشعل سيجارة وجلس في مقعده.

حركة كثيرة على الطريق. جنود يعبرون ويختفون بين الشجر. آخرون يتنادون. والكلاب تنبح إثر كلّ نداء. والواقفون قرب الشاحنات

يتبادلون الحديث بصوت مرتفع. وأنا ماذا بوسعي أن أفعل غير أن أتصوّر السجناء الفارّين وأتصوّر عزيز بينهم. وعند كلّ نباح أتصوّر أنياب الكلاب الشرسة تنهش لحمه ولحم الفارّين معه. وأتذكّر دون استغراب الحلم الذي رأيت. بعد نزول بعض المسافرين واندماجهم مع العساكر والدرك نغادر الحافلة بدورنا أنا والمرأة. الأشعّة الأولى لشمس الصباح تخترق الأغصان مرسلة خيوطًا مشعّة ومتفرّقة ومائلة ترمي على العشب البليل بقعًا مضيئة متشابكة. نتمشّى حتى فسحة صغيرة محوطة بالشجر. الحركة في الطريق مستمرّة ومتقطّعة تبدو من خلال الفروع. صفق طائر بجناحيه فوقنا محدثًا حركة مفاجئة وسط صمت الغابة. سألتني المرأة هل أفكّر في عزيز وحرّكتُ رأسي وأنا لا أعرف ماذا عنيت بهذه الحركة. تحدّثنا طويلاً ولا أعرف إن كنت أفضّله هاربًا أو قابعًا في زنزانة ينتظر. وماذا سينتظر السجين سواء فارًّا أو غير فارّ؟ ثم قالت وهل يستأهل كلّ هذا التعب؟ صمتٌ. أفكّر في السؤال: واش يسْتاهلْ؟ أو أفكّر أنّني لا أفكّر في السؤال. ثم ألوم نفسي لأنّني نسيته خلال الأربع سنوات الأخيرة. لولا الرجل الذي ظهر ليلة أمس في البار. ثم أجد العذر لأنّني ظللت أجري بحثًا عنه طيلة الأربعة عشر عامًا التي سبقت. ثم أقول في خاطري أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

سمعنا صوت السائق فعدنا قرب الحافلة. قال ربّما سنتأخّر وربّما لن نستطيع متابعة السفر. لم أدر لماذا قطّبت المرأة حاجبيها وبدت بئيسة لسماعها هذا النبأ. احتجّ بعض المسافرين واقترح آخرون مساعدة الجنود في القبض على الهاربين. وقفز أغلبهم في شاحنة العسكر مهلّلين مكبّرين ولكن ضابطًا أمرهم بالنزول فعادوا إلى الأرض دون أن يختفي حماسهم. ثم ساد صمت غريب. أشبه بقلق متوار خلف الشجر. عدنا إلى الفسحة التي تحفّها الأشجار. النساء انتشرن حولنا يجمعن البقولة.

وصاحت واحدة قريبة منّا إنّها عثرت على فطر. التحقت بها الأخريات وتناقشن مطوّلاً حول الفطر السامّ وغير السامّ وانتهين إلى أنّ أفضل شيء هو جمع الشيح البرّي لأنّه دواء للمعدة والأمعاء ويسهّل الهضم والتبوّل. نسيت سؤال المرأة. الآن بالأساس وأنا أتصوّر المسافرين عائدين به، مكبّلاً، مدمّى اليدين والرجلين. أرى عزيز كما في حلمي هاربًا من كلاب شرسة تقتفي أثره. أحيانًا تكاد تنشب أنيابها في ساقه وأحيانًا مختفيًا فوق شجرة أو غاطسًا في مجرى نهر حتى تضيّع الكلاب رائحته.

قالت المرأة بشكل مفاجئ إنّها ليست راضية عن حياتها. «لستُ راضية على أيّ شيء فيها». منذ بدايتها حتى الآن. تزوّجتْ مرّتين وأخرجتْ إلى الدنيا أحد عشر ولدًا دون رغبة. تعذّبتْ مع زوجها الأوّل وتعذّب معها زوجها الثاني. تحمّلها خانعًا وتحمّل نزواتها راضيًا. هل هناك طريقة ثالثة؟ هل تعرفين ما هي رغبتي الآن؟ أن أظلّ كما كنت في العشرين. ولا أرى الزمن يمرّ. بلا رجل. ثم مسائلة نفسها وهي تنظر إلى الجبال البعيدة كيف ستكون الحياة هناك؟ حياتنا نفسها أم مختلفة؟ أتصوّرها مختلفة. كوخ يظلّله الشجر وبالقرب منه عين ماء جارية أبدًا. أفضّل أن أعيش هناك وأضع بنتًا واحدة مع أوّل عابر مرّ على كوخي وأنساه. ثم مرّت لحظة صمت. هل هناك فرصة أخرى؟ لا توجد فرصة ثانية. لا توجد فرصة أصلاً. هل للبحر فرصة أخرى لكي يغيّر مدّه وجزره؟ أو لكي تغيّر الغابة مكانها؟ وقالت إنّها قبل قليل عندما أعلن السائق عن إلغاء السفر، شعرتْ بيأس كبير وبغبطة غامضة. كأنّ شخصًا يدفعها إلى الأمام وفي الآن نفسه يحذّرها وينهاها. كيفما كان مجرى حياتنا فسنظلّ دائمًا عبيدًا. مرّت فترة صمت أخرى طويلة.

سألتني بعدها هل أعرف إلى أين هي ذاهبة. حرّكت رأسي.

راجعة عنده، قالت.

عند من؟

رجلي الأوّل؟

الذي. . ؟

نعم. وأسندت ظهرها على شجرة كانت خلفها وخفضت بصرها وبقدمها راحت تداعب العشب. واغرورقت عيناها بالدموع. جميلة حتى بدموعها. كأنّما جمالها ما زال يلاحقها وقد تجاوزت الأربعين. وكما تصوّرت أنّها ستظلّ جميلة أتصوّر أنّ جمالها سيظلّ يلاحقها حتى القبر. اقتربت منها ووضعت رأسي على صدرها. هدأتْ وهدأت معها. بقينا في هذا الوضع مدّة. هادئة وأتفرّج على فراشة حطّت عند قدمها. وكانت نعلها قد كفّت عن اللعب بالعشب. كما لو فطنت إلى الحياة القريبة منها وتوقّفت عن اللعب حتى لا تدهسها. طارت الفراشة وحطّت على ظهر يدي النائمة على صدرها. فراشة صغيرة بدوائر دقيقة من الأصفر والأحمر والأزرق. الفراشة لا تعرف أنّها تحمل زخارف أنيقة وبهيّة. لا تهتمّ ولا أنا ولا المرأة. كلّ هذا النقش والبهاء كان مهدّدًا بالاندثار لمجرّد أنّ قدمًا لاهية تحرّكت.

ثم سمعت منبّه الحافلة. ومحرّكها الذي يدور من جديد. والسائق يصيح أنّنا سنستأنف السفر. ورأيت المسافرين يعودون نحو الحافلة كأنّما هم خائفون أن تذهب بدونهم. عدنا بدورنا إلى مكانينا. وانطلقت الحافلة بعد أن سلّم السائق من نافذته على بعض أفراد الدوريّة وتمنّى لهم نهارًا جميلاً.

II في السابعة عشرة مررت قرب الثكنة

قبل ساعات كنت في آزرو، وها أنا وصلت. بعيدة عن آزرو الآن. بدون رفقة. لا ترافقني ختيمة. لا ترافقني غير فكرة ضبابيّة عن مكان قد أعثر فيه على عزيز. بعد اختفائه بكيتُ. حتى إنّه لم تبق دموع في عينيّ. وظلّت أختي ختيمة تقول لي انسي الموضوع. والجيران يقولون الشيء نفسه. ومع ذلك، وبعد يومين على اختفائه، طفنا أنا وختيمة على جميع الإدارات والمؤسّسات والوزارات. من السجن المركزي حتى وزارة العدل. كلّ الذين سألناهم لا يعرفون شيئًا عن الشخص الذي جئنا نبحث عنه. عزيز؟ لا يوجد شخص يحمل هذا الاسم. ختيمة أصبحت تقول إنّها لا تثق في الرجال الذين يتكلّمون بهذه الطريقة. يردّدون الكلام نفسه الذي قاله حارس السجن أوّل مرّة: لا يوجد شخص يحمل هذا الاسم. الوزارات كثيرة والمكاتب أكثر عددًا ولا نعرف أحدًا في هذا المكتب أو ذاك يقول لنا كلامًا آخر. نقول فقط إنّنا نبحث عن طيّار اسمه عزيز. وزارة الداخليّة أوّلاً تقول: ما دخل وزارة الداخليّة في اختفاء طيّار يعمل في الجيش؟ لماذا لا توليان قدميكما جهة وزارة العدل؟ قضينا نهارات أخرى على هذا النحو. من وزارة إلى وزارة. الرباط مدينة صغيرة ولكنّها تبدو كبيرة كالإشاعة. لا تعرف كيف بدأت ولا

تعرف كيف تنتهي. وفي وزارة العدل: طرقتما الباب الخطأ. أمْر الرجل الذي تبحثان عنه يعود إلى وزارة العدل العسكريّة. وأين هي هذه الوزارة؟ لا أحد يعرف. وهكذا من مكتب إلى مكتب. ومن إدارة إلى إدارة. حتى تعب الطين الذي نسير عليه. ورجعنا إلى آزرو. وقالت أختي ختيمة انسي الموضوع.

وأنا لا أنسى. خرجت متوجّهة إلى القاعدة الجوِّيّة. وها أنا في القنيطرة. مدينة غامضة. كقرية اصطياف بلا مصطافين. لم أكن أتصوّر أنّني سأصل بهذه السرعة. الحافلة كانت تسير ببطء. أحيانًا تكاد تتوقّف. وكنت أقول لن أصل أبدًا إلى هذه القنيطرة التي لا أعرف. وها أنا وصلت. ياه؟ وبأسرع ممّا كنت أتصوّر. وبدون أختي. تحرِّيّاتي للعثور على عزيز تبدأ من هذه الوحدة. ومن هذه الطريق التي تقود إلى القاعدة الجوّيّة. والمارّة ينظرون إليّ ولا يعرفون أنّني قادمة للتوّ من مدينة أخرى. لا أحمل أيّ أثر يدلّ على ذلك. ينظرون إلى بطني المنتفخة ومع ذلك لا يعرفون. ربّما إنّ الانتفاخ غير ظاهر بما فيه الكفاية. وأنا لا أقول شيئًا. أو أقول لهم ولكن في خاطري إنّه عزيز ينمو بداخلي في هدوء. وأجلس على حجر كي يستريح من تعب المشي على القدم. من المحطّة حتى هنا ولم أصل بعد. في المحطّة لا يعرفون شيئًا عن عزيز مع أنّهم يحدّقون طويلاً في بطني. ولكنّ القاعدة الجوّيّة لا تزال محاصرة بالعسكر منذ الانقلاب، يقولون لي عندما أسأل وعندما لا أسأل. يعرفون كلّ شيء عن القاعدة الجوّيّة وعن الانقلاب ولا يعرفون شيئًا عن عزيز. وماذا أفعل بالانقلاب؟ أنا أبحث عن عزيز الذي يشتغل في القاعدة الجوّيّة. قيل لي اتبعي هذه الطريق ولكنّك ستجدين القاعدة محاصرة. مشيت من المحطّة حتى هنا على القدم. عليّ أن أتبع هذه الطريق. دائمًا الطريق نفسها حتى النهر. ثم تتبعين النهر حتى

القاعدة الجوّيّة. لم أصل بعد ولكنّني عند النهر. تعرّجاته التي رأينا أنا وعزيز ونحن غير بعيدين عن القاعدة الجوّيّة. ذات مرّة. يدي في يده. فرحيْن بوجودنا قرب النهر. وبعيدًا عن القاعدة الجوّيّة. كم مضى من الوقت؟ ثلاثة أشهر أو أربعة؟ ختيمة لا تريدني أن أسافر بدونها. لا تريدني أن أتنقّل بدونها لأنّني مثقلة بالحياة التي في بطني. ولكنّها تقول انسي الموضوع. لا تريدني أن أتحرّك. ولكن عزيز لا يظهر. انتظرته أطول ممّا كنت أظنّ. بعد محاولاتنا في البحث عنه في المكاتب والإدارات. ثم بعد انتظاراتنا اليائسة في البيت. شهرين قضيتهما في الانتظار. يومًا بعد يوم. أسبوعًا بعد أسبوع. سنتي السادسة بعد العشرة خلفتها ورائي الآن. كلّها. يومًا يومًا. ساعة بساعة. كاملة. أسرع ممّا كنت أتصوّر. وها أنا جالسة على حجر، وحدي، بين المحطّة والقاعدة التي ستطلّ عليّ بعد قليل، بلا دليل، قطعت كلّ هذه المسافة بلا دليل. من قال إنّني سأستطيع أن أفعل هذا ذات يوم؟ لم أر بائعة الحلزون وأنا أجلس على الحجر. قدّمت لي زجاجة بلاستيك بها ماء. شكرتها. ألحّت كي أشرب لأنّها خمّنت أنّ بطني عامر حتى بدون انتفاخ ظاهر. وأنا شربت. وفرحت بمائها المعطّر برائحة الصعتر والليمون. وفرحت المرأة وهي تراني أشرب وأروي الحياة التي في بطني. وهي تتأمّل بطني في الوقت نفسه لتراه يشرب. الطفل الذي أحمل. تبتسم له بتجاعيدها الكثيرة وهي تحرّك رأسها العجوز. قلت لها اسمه عزيز. وابتسمنا معًا.

لا أقترب لأنّ الاقتراب من القاعدة الجوّيّة ممنوع. أقف بعيدًا عنها. على قدر مسافة من البوّابة ولهذا لا أعرف هو عزيز الذي بداخلها. حتى الآن. لا يختفي الناس بدون مبرّر. الاقتراب من أيّ بناية حكوميّة ممنوع. عندما ذهبنا للبحث عنه أنا وأختي ختيمة قضينا النهار بعيدتين عن السجن المركزي لأنّ الاقتراب من بابه ممنوع. هل

عزيز موجود عندكم أم غير موجود؟ ولا يقولون شيئًا. لا الحرّاس ولا عائلات المساجين، التي تمرّ حاملةً قفف الفواكه لذويهم. نسألهم هل رأيتم عزيز ولا يقولون شيئًا. شأنهم شأن الحرّاس. ينظرون إلى بطني المنتفخة. يخرجون من القفّة التي تتدلّى في يدهم ليمونة تبقى معلّقة في الهواء تفرّق أكثر ممّا تجمع بيننا. عند موقف الحافلة اقترب منّا رجل لا نعرفه. لم أكن أعرف أنّ الناس يختفون بدون مبرّر حتى سمعتها من فم هذا الرجل. يخرجون من بيوتهم ولا يعودون. يكونون في السجن وفي الغد لا يعودون فيه. أين ذهبوا؟ اختفوا. وماذا أفعل في هذه الحالة؟ عزيز اختفى وهو في طائرته. كأنّما ابتلعه كوكب آخر. غلطته أنّه يحبّ الطيران. وكان يسوق طائرته وأنا كنت على السطح أنتظر أن يظهر. ولكنّه لم يظهر. لا في سمائي ولا في أيّ سماء أخرى.

ثم تذكّرت سيّارته وأنا أراها قادمة. سيّارته السيمْكا ميلْ. خارجة من بوّابة القاعدة الجوّيّة، قادمة نحوي. بهدوء. بشكل لا تهديد فيه، يشيع الطمأنينة في النفس. كأنّها غير آتية من قاعدة عسكريّة ممنوعة الارتياد وإنّما من جهة حلم وديع. كمعجزة صغيرة. وقفتُ. تهلّل وجهي واندفع عرق كثير من كلّ مسامّي. دفعة واحدة. وتصوّرت أنّ قلقي انتهى هنا. زال. ركنت السيّارة إلى الطوار. السيّارة نفسها التي ركبناها معًا ولونها نفسه ولكنّه ليس عزيز الذي كنت أتوقّع. الكسوة الزرقاء نفسها. نعم. ولكنّ الذي نزل منها لا يشبه عزيز. قلقي لم يفعل سوى أن يبدأ. قلقة ولكنّني غير يائسة، لأنّني نضجت كما تقول أختي. بعد الزواج من عزيز لم تعد تقول إنّني صغيرة. هي أيضًا لم تعد تحبّ العمل الذي كانت تقوم به. ظلّت تقول إنّها ستشتغل في معمل الزرابي ريثما يعود عزيز. ولكنّها اشتغلت عند مدام جوجو، في بار اللقلاق. عزيز هو الذي توسّط لها ولكنّه لم يعد. ذهبنا أنا وختيمة عند الشوّافة. وبعد أن

وضعت أمامها طبقها وحرّكت بداخله أعشابها وأصدافها الملوّنة وحبّات أخرى غريبة لا أعرف ما نوعها قالت كان الله في عونكما. لن يساعدكما أحد. ولكنّني لا أيأس. لأنّني ناضجة. حبلى وناضجة بسبب عزيز. الرجل الذي اعتقدته عزيز أصبح واقفًا أمامي. بكسوته ونياشينه العديدة. وضع يده على كتفي. يده باردة. أحسست بالثوب كأنّما تبلّل عندما اخترقته برودة يده. أسنانه البيضاء ليست أسنانه. ولهذا بدا لي أنّه لم يكن يعرف إن كان يبتسم أم لا. لم أكن أبتسم لأنّني كنت لا أزال أفكّر في السيّارة بدون عزيز. قال الرجل، كأنّما قرأ أفكاري عزيز صديقنا جميعًا. وما يقع لك يقع لجميع الناس. قلقي يبدأ من هنا. وأنا واقفة أستمع إليه. عليكِ بالصبر. والانتظار. ريثما تهدأ الأمور... ستجد مشكلتك حلّها قريبًا. لا توجد مشكلة بدون حلّ. (عكس ما قالت المرأة التي رأت لي: كان الله في عونكما. لن يساعدكما أحد). سبحان الله. تختلف آراء الناس كاختلاف الليل والنهار. يبدو طيّبًا، وصادقًا، الرجل صاحب الأسنان البيضاء، وقال أيضًا: فين كتْسكْني؟ أنا؟ لا أقطن في أيّ مكان. اذهبي إلى فندق الرمال الذهبيّة وانتظري. سآتيك بأخبار عن مكانه مساء.

المساء ما زال بعيدًا. وهذا الفندق الذهبي الرمال وجدته بعد تعب. رأيت النهر. ثم الميناء وباخرة هائلة تفرغ على الرصيف حمولتها من القمح. رأيت الشوارع العريضة، وكثيرًا من اللقالق وقنطرتين قبل أن أعثر على الفندق، بين سحابتين. بين بارين يخرج من بابيهما دخان كثيف. صاحبة الفندق طيّبة، قدّمت لي كرسيًّا لأستريح. رأت أنّني مشيت طويلاً. نعم، من القاعدة الجوّيّة على القدمين. مسافة طويلة أليس كذلك؟ رجلي يشتغل فيها. نعم. طيّار في القاعدة الجوّيّة. وبعد الكرسي أعطتني ليمونة. امرأة طيّبة. وقالت من الأحسن أن تجد لي

غرفة في الطابق الأرضي. من أجل الطفل الذي في بطني. حتى لا أصعد إلى الطابق الأوّل أو الثاني.

تمدّدت في هذا الفضاء العاري الذي يشبه غرفة في فندق. قليلة الضوء. غطاء السرير بارد. كيد الرجل التي حطّت على كتفي عند الظهيرة. تذكّرته وعندما تذكّرته سمعت طرقًا على الباب وقلت إنّه هو. فتحت الباب ولم يكن هو، صاحب الأسنان البيضاء، الرجل الذي كان يسوق السيمكا ميل والذي اعتقدت أنّه عزيز. ما شعرت به لم يكن خوفًا ولا قلقًا لأنّ قلقي كان قد استقرّ بداخلي قبل هذه اللحظة. في يده كأس شاي. كأنّه أحد نزلاء الفندق خرج من الغرفة المجاورة. طمأنني وقدّم لي كأس شايه. ثم طلب منّي ورقة الزواج كي يتأكّد أنّنا متزوّجان فعلاً أنا وعزيز. مددت له الورقة. احمرّ وجهي وأنا أنتظر أن يقرأها. من أوّلها إلى آخرها ثم بهدوء مزّقها إلى قطع صغيرة ثم أخفى القطع الصغيرة في جيب سرواله وهو يقول، بالهدوء نفسه، ابن الحرام الذي في بطني لم يعد له أب. ومن الآن فصاعدًا إذا ضُبطتُ أحوم حول القاعدة الجوّيّة أو حول وزارة من الوزارات لم أسمع التتمة، لأنّ العرق بدأ ينزل من جديد. للمرّة الثانية ينزل منّي عرق كثير هذا النهار. وصفير حادّ يخترق أذني وغشاوة كثيفة بدأت تنزل على عينيّ. وعزيز؟ إنّه ينأى. وهذه المرّة فهمت كلام الشوّافة. كأنّما ابتعد عزيز مسافة أخرى. بدل أن يقترب.

III نعم، قضيت مدّة وأنا طريحة الفراش

شبه غائبة. أختي ختيمة قالت إنّني لم أبرح الفراش منذ سقوط الجنين. وقالت أخت عزيز بسبب الحمّى الشديدة التي سبّبها سقوطه. ولكنّني لا أعير كلامهما اعتبارًا. ظللت لمدّة طويلة أحسّ بطفلي وبوزنه وهو ينمو. وبخبطاته وهو يتحرّك. أختي ختيمة وخديجة لا تحسّان بهذا. لم ينتفخ بطنهما ولو مرّة واحدة من قبل حتى تحسّا به. لهذا تستطيعان أن تقولا ما تشاءان. ظللت غائبة مع صحوات متفرّقة ومتباعدة. وعندما استيقظت ونهضت صرت أتحرّك ببطء حتى لا أزعجه. أختي تصرّ على أنّ الجنين سقط وأنا لا أحاول معاكستها. وأسمعه يخبط في داخلي وأقول له أن يهدأ: اهدأ يا عزيز أقول له. إنّهما فقط خالتاك ختيمة وخديجة تمزحان معك. (المكان الذي رأيت في ليل غيبوبتي الطويلة مرآب واسع كالذي يؤوي الطائرات، بسقف عال ومائل ونوافذ عريضة بقضبان غليظة وبلا زجاج ولا يشبه ثكنة القصدير التي أتّجه نحوها الآن والتي سأعثر عليها بعد قليل). عندما شعرت أنّني قادرة على النهوض نهضت. أختي ختيمة تخرج للعمل في البار صباحًا ولا تعود حتى وقت متأخّر من الليل. وأبقى أنا وخديجة. تقول هي أيضًا إنّني قضيت عشرة شهور وأنا أهذي. لم أغادر الفراش طيلة شهور

عشرة. إنّها طريقتها في الكلام. ثم نصعد إلى السطح ولكي تجعلني أصدّق أنّني قضيت عشرة أشهر ممدّدة في الفراش تريني سلحفاتها الثانية وتقول إنّها اشترت لغيلمها هذه الأنثى وظلّت تراقبها يوميًّا. نعم، وقد مضت عشرة أشهر كاملة ولم تضع بيضاتها بعد. هذه هي الأنثى، صغيرة وتأكل كثيرًا. وهي تحبّ بالخصوص الخسّ وقشور الطماطم. وهذا هو الغيلم كبير كالحلوف ولا يأكل لأنّه ليس بحاجة إلى أكل. لن يضع بيضًا. يأكل ويخرأ فقط. وضحكنا. ثم تسوّي خديجة الخشبة الممدودة فوق أصص النباتات كسقف سيمنع الحدأة من رؤية البيض الموعود. وترفع رأسها إلى السماء ولا ترى حدأة. ثم تسألني كم يلزم من الشهور لتضع السلاحف بيضًا. أنا لا أفهم في السلاحف. ولا في الجداجد. ثم نصعد مجدّدًا عند الظهيرة لنرى هل أكلا كلّ قشور الخضار التي نثرنا حولهما. ولترى خديجة هل ظهرت حدأة في السماء.

وها أنا أسير مجدّدًا بعد أن سمعت عن ثكنة وسط الغابة. لا أعرف هذه المرّة أنّ لي وجهة محدّدة. هل أسير شرقًا أم غربًا. ولا أعرف كم من الغابات سأظلّ أعبر. وكم ستستغرق رحلتي. لا يهمّ. أعرف فقط أنّني بحاجة إلى عزيز وعليّ العثور عليه، وحدي، دون مساعدة من أحد. كما قالت الشوّافة. كان الله في عونك قالت. إنّه قابع في مكان يشبه المكان الذي رأيت في كوابيسي. أسير الآن في هذه الغابة الظليلة. أشجار الأرز عالية. والطريق مترب وبليل وتصعد منه رائحة الأوراق الميتة. الأشجار على كلّ جانب. جذوعها غليظة. ذات أحجام مذهلة لم أر مثلها من قبل. بعضها لا تمسك محيطها ذراعان بشريّتان ولا حتى أذرع أربع. خلفها، خلف الشجر الغليظ طفلات يضحكن وهنّ يشهرن من خلف الشجر وجوهًا صغيرة وأيادي رقيقة ممدودة تشحد دراهم للعابرين. يضحكن وهنّ خائفات في الآن نفسه.

والصباح ربيعي منعش يوقظ في النفس ذكريات طيّبة. استيقظتُ مع الربيع. هذه الفكرة أدخلت إلى قلبي فرحًا صغيرًا. إنّني أسير نحو مكان رأيته في كوابيسي المتكرّرة. لم أر في كوابيسي شجرًا. كما لم أتعرّف على الوجوه الكثيرة التي مرّت على شاشة مخيّلتي والتي لا تشبه الوجوه التي أرى أمامي الآن على حافّة الطريق الترابي المتعرّج بين أشجار الأرز. طفلات ضامرات يطلبن دراهم وعلى وجوههنّ ما يشبه أقنعة لبقع وحل يابس. أشارت كبراهنّ إلى الخلف حيث انتشرت أكواخ الأعواد والخيش والبلاستيك الملوّن. كما لو أرادت أن تشهدني على البؤس الذي هنّ فيه. عند ذاك رأيت المخيّم. والأمّهات الجالسات في صمت ويفلّين قمل ذرّيّتهنّ الكثيرة. لا وجود بينهنّ لأيّ رجل. ثم هناك هذه الطفلة الصغيرة الضاحكة والتي راحت تجذبني من كمّي حتى أتبعها وأنا أتشبّث بمكاني حتى لا أتأخّر. إنّها تلعب معي لأنّها لا تعرف معنى أن يكون البشر متعجّلاً. عيناها زرقاوان. وتبدو زرقتهما وزرقة العيون الأخرى أكثر صفاء بسبب قناع الوحل الأسود اليابس الذي يغطّي وجوههنّ. الطفلة التي تمسك بيدي في الخامسة على الأكثر. ضحكها أكبر من سنواتها الخمس. وقالت إنّها كبيرة وقويّة ولا تخاف الغابة كما يقول والدها. سألتها أين هو. وهذه المرّة جذبتني نحو الاتّجاه المعاكس. تركنا المخيّم خلفنا. لم نعد نراه. والطفلة تضحك. كأنّما ضحكها هو الذي يقودنا. بعد الطريق رأينا الثكنة. خيبة أملي أوقفتني وأنا أدرك أنّ الطفلة تقودني إلى المكان الخطأ. استمرّت الطفلة تجرّني من يدي نحوه.

مرآبان عاليان بسقوف مائلة من القصدير يسوّرهما جدار من الحجر له في كلّ ركن برج. وسط امتداد دائري عار من الشجر. كأنّما اقتلعت منه عنوة. وفي الوقت نفسه سمعنا نباح الكلاب. والباب الخشبي كبير

ومشرّع. وداخله حركة كثيرة. أمسكتُ حفنة تراب لطّخت بها وجهي وصرت أشبه الطفلة التي تقودني نحو الثكنة. لم يهتمّ بدخولنا أحد. كانوا مشغولين. وصرنا اثنين من ذرّيّتهم بعد الوحل الذي طليتُ به وجهي. رجال من مختلف الأعمار يلبسون اللباس الكاكي، لباس القوّات المساعدة. يمسكون بعصي غليظة ويهرولون في كلّ اتّجاه وهم يتصايحون في مرح، كأنّما يتمرّنون على لعب طفولي. ثم يقفون أمام إحدى البنايتين في صفّين طويلين. شاهرين عصيهم. ماذا يفعلون؟ تحت حائط البناية كلاب كثيرة. أكثر من عشرين كلبًا ممدّدة على التراب وتراقب عمل القوّات المساعدة بعيون خاوية، كسلى. ثم دوّت صفّارة وعندها بدأ أفراد القوّات المساعدة يحرّكون العصي كأنّما يتعقّبون أحدًا وهم يصيحون اجر. . . اجر يا ولد القحبة. ويضحكون. حتى البناية الثانية. ثم يكرّرون المحاولة مرّتين وثلاث مرّات. والكلاب غير مبالية. إنّها تتمطّى تحت الحائط الظليل. أو تلحس جلودها بألسنتها الطويلة أو تفلّي شعرها وهي تتفرّج كما في الملاعب.

ماذا يفعلون؟ الطفلة لم تهتمّ بسؤالي. إنّها مشدودة إلى حركات القوّات المساعدة. هل أسألها عن عزيز؟ أم أنتظر والدها الذي يلعب هو الآخر بعصاه. أم أسألها هل سيستغرق لعبهم وقتا طويلاً. ثم تحرّكت الكلاب دون إشارة من أحد. وقفت ورفعت آذانها وزمجرت وكشّرت عن أنيابها. وهذه المرّة خرج من البناية شيخ يلبس قندورة صحراويّة اسودّت وتدلّت أطرافها. قد يكون تجاوز المائة سنة. نحيف غامق لون الوجه بشعيرات بيضاء قليلة تغطّي أسفل ذقنه وتمتدّ حتى الصدر. ونحيف كالقصبة. تقول إنّ هبّة ريح ضعيفة ستسقطه أرضًا. تحرّكت العصي فوق ظهره وعلى وجهه وقفاه وأفراد القوّات المساعدة تلاحقه وتصيح اجر اجر يا ولد الزانية. وتضرب على الرأس. على

الرأس. والكلاب هائجة وتجرّ ما تبقّى من أسماله وتعضّ ساقيه. والشيخ لا يجري. لا يفعل ما يريدون. ولا ما تريد العصي. ولا ما تريد الكلاب. فيزداد غلّ القوّات المساعدة وضراوة كلابها. والشيخ يسير بنخوة وبأنفة. والعصي تضرب والأفواه تطلق كلامها الفاحش. ماذا يفعلون؟ الضرب حقيقي والصياح حقيقي. لا أثر للعب. لا أثر للمرح السابق. الضرب والصياح حقيقيّان. والدم الذي يسيل من رأس الشيخ الصحراوي وذراعيه العاريين وساقيه حقيقي. كلبة هربت بقطعة لحم من ساق الرجل وتبعتها كلاب أخرى وهي تزمجر هائجة بفعل رائحة اللحم الآدمي النيء. الطفلة نظرت جهتي وقالت إنّهم يقضون نهارهم في اللعب على هذه الطريقة. لا يتعبون. هل يلعبون مع عزيز بهذه الطريقة؟ لم أسألها. ليس هذا هو المكان الذي أبحث عنه. لم يوجد في حلمي مكان مثل هذا. والمرأة التي رأت لي ما تخبّئه أيّامي في أصدافها الملوّنة قالت إنّه في مكان ناء ولا سبيل إلى الوصول إليه.

ونحن نقفل راجعتين قالت لي الطفلة ذات الخمس سنوات إنّ والدها يعود إلى البيت في الليل. وعندما ينام تسمعه يبكي.

١٥

رواية عزيـز

(صباح اليوم التالي)

I طائر أسود

تسلّل تحت سقف القصدير وراح يبني عشّه على أحد الأعمدة الخشبيّة التي تسند سقف الطين. هذا الطائر ملأ المكان بتساؤلات لم تكن. وبجوّ جديد. ملأ المكان بحياة كاملة لم تكن، في وقت يكون فيه المرء بحاجة إلى قشّة يتشبّث بها. رفرفة جناحيه لا تكفّ في ذلك الحيّز الضيّق بين السقفين. أرى تحت بصري كلّ الأشياء التي يجلب ليصنع عشّه: أعواد تبن، خيوط، أسلاك، أعواد ثقاب. لا أعرف ما نوعيّة الأرض المجاورة. لم أغادر هذا المطبخ منذ حللت به. ودخولي إليه كان ليلاً. أتصوّر المكان المحيط بنا زبالة كبيرة لأنّ الطائر يأتي أيضًا بأشياء شديدة الغرابة كسدادة فلّين أو قطعة من الميكا. وأحيانًا عقارب نافقة. وهو يقوم بهذه الذهابات والإيابات لا ينسى أن يلقي نظرة أسفله، جهتي. فأكتشف بالصدفة أنّ له عينًا واحدة. وأنّ لبؤبؤها لمعانًا غريبًا. هل هو ضوء آخر النهار الذي يجعلها تبرق بذلك الشكل المثير؟ نظرته فيها كلّ ما يملأ نظرة الغربان من سوء نيّة. قلت له كي أثير فضوله أنا لا أحبّ الغربان، خصوصًا المزعجة منها مثل المخلوق الذي يتحرّك فوقي. لفترة طويلة انتظرت ردّه ولم يردّ. قلت في نفسي هذا الغراب الأعور الأسود المنحوس لا يحبّني. عندما فكّرت هكذا سمعته يقول ما

الذي يجعلني أعتقد أنّ لونه أسود. لم أعرف بما أردّ على سؤاله المباغت والمفحم. قلت متلعثمًا ربّما إنّه انعدام الضوء. ويظهر أنّ جوابي لم يقنعه. أو ربّما أكون نسيت الألوان. ضجيجه زاد عمّا كان عليه الأمر من قبل. الغربان هي هكذا. لا تستطيع أن تكتم غيظها وازدراءها لبني البشر حتى عندما لا تنعق. فكّرت فيما يحدث بالخارج، خارج المطبخ، في المطابخ الأخرى. كم بقي منّا؟ أعرف أنّ عددنا قد قَلّ بشكل كبير. هل فوقهم طيور سوداء أو خضراء تتناقش معهم. ولكنّني لا أعرف كم كنّا حتى أعرف كم صرنا بالضبط. وبالتالي كم من طائر في كلّ مطبخ. ربّما خمسة، ربّما أقلّ. هل يوجد فوق سقوفهم غراب يبني عشّه محدثًا الفوضى نفسها التي يحدث هذا الملعون؟ وهل لهم المشاكل نفسها التي عندي مع هذا الطائر؟ الصمت طاغ بالممرّ. هناك نزلاء آخرون لا أراهم. ربّما كانوا هنا ولم يعودوا. كنت أسمع هسيس تحرّكهم ولم أعد أسمعه. كنت أتنصّت على كوابيس نومهم. لم أعد أسمع شيئًا من كلّ هذا. هناك حركة خفيفة في جهة ما من الممرّ ولكنّك لن تعلم أبدًا هل هو ثعبان يسرح أم عقارب سقطت من السقوف المجاورة أم فئران تجري أم آدمي في النزع الأخير. أم طبّاخ يمشي على أصابع رجليه.

استمرّ الطائر يجلب أشياءه الغريبة التي أثارت اهتمامي وزادت من فضولي. وقرّرت من جهتي أن أنساه، وأنسى عينه المضيئة. قرّرت أن أهتمّ بنفسي وبما يحدث لي بعد أن عدت من غيبوبتي ووجدت أنّ ترابًا كثيرًا وجيرًا يغلّفني من فوق إلى تحت دون أن أدري من أين أتى. لا بدّ أنّ الطبّاخ رشّني بالجير كي يقتل القمل الكثير الذي أكل نصف خصيتي. نزعت عنّي ملابسي ورميتها أسفل المغسل وجلست عاريًا.

وأنا أرفع بصري رأيت شيئًا يلمع لمعانًا شديدًا من خلال ثقب

سقف الطين. بذلت مجهودًا كبيرًا كي أركّز نظري عليه. هذه المرّة لم يلتفت الطائر إليّ. استمرّ في عمله، يحرّك بمنقاره ورجليه قطعة القصدير المقعرة التي جلب. في هذه الجهة ثم في الجهة الأخرى. ويبدو أنّها لم تستو بالشكل الذي يرضيه. تركها معلّقة في مكانها وانصرف عنها. ثم استمرّ في جلب القشّ والأعواد. ثم توقّف نهائيًا عن الحركة. واكتفى بمراقبة عمله. والذي اكتشفت هو ضوء الشمس الذي تعكسه قطعة القصدير المقعرة. ثم لون الطائر الذي لم يكن أسود. وأصبح للنهار لون ووجود. انعكس الضوء على قعر قطعة المعدن البرّاق وظهرت في قاعه شمس. وغلّف المكان حيث أنا ضوء أخّاذ، شفّاف، ما بين البنفسجي والأزرق. أجلس وسط المطبخ، عاريًا، أفكّر في الطائر الذي جلب النهار إليّ. وأكتشف على ضوئه الساحر كلّ جسدي. جزءًا جزءًا. وأطلّ على خصيتيّ كأنّما أراهما لأوّل مرّة. هذان رجلاي وهذان ساقاي وهذا ذكري وهذا ما تبقّى من خصيتي اليمنى. وهذه قطعة من جلد خصيتي اليسرى. أردّها إلى مكانها وأمسك بها حتى تلتصق بأختها. يختفي لون البشرة الأصفر العليل، تختفي الندوب وتختفي الجروح. أتأمّل باندهاش هذا التحوّل الذي يطرأ على البشرة المهترئة. ليست لديّ الاستطاعة لألتقط بعض الأشعّة وأحتفظ بها ليوم تختفي فيه الشمس نهائيًا من وجودي. مذهولاً أكتشف أنّ الجروح تلتئم. وأنّ الجلود تعود إلى مكانها. وأنّ الدمامل تبرأ والصديد ينشف. أمدّد قدميّ أمامي وأنا أتأمّل هذه المعجزة. أنظر إلى يدي هذه المرّة، ممدودة أمامي. اليمنى ثم اليسرى. أقلبها في كلّ الجهات، مأخوذًا بمنظرها وبتقلّب لونها من الأصفر الباهت إلى البنّي كواحد قضى الصيف تحت الشمس. أنتقل إلى الأصابع. أحرّكها واحدًا واحدًا. وأرى أنّ كلّ حركاتها القديمة عادت إليها. تشير الإشارات السابقة نفسها. تتكلّم اللغة نفسها. وأكتشف أنّ

في أحد أصابعي خاتمًا من ذهب. لا أعرف من أين جاء. أليس هذا أمرًا غريبًا؟ حملته كلّ هذه المدّة دون أن أنتبه إليه. جزء كبير من الذاكرة تفتّت على هذا الأساس. لا أذكر أين اشتريته. لا أذكر هل اشتريته أم أهداه لي شخص ما. لا أذكر حتى أنّه ظلّ بإصبعي كلّ هذه المدّة. وربّما يعود إلى شخص كان هنا قبلي. هل عليّ أن أخفيه حتى لا يراه الطبّاخ؟ هل أرمي بالخاتم في الممرّ أم أعطيه إلى نزيل آخر يعرف كيف يخفيه أحسن منّي. ناديت جاري. لم يردّ على ندائي أحد. عدا الهمهمة التي سمعت في جهة من الممرّ والتي لا أعرف لم أردّها. هاااا. نزيل آخر يكتشف بدوره لأوّل مرّة ضوء الشمس والمعجزة التي يحدثها أمام عينيه بعدما حطّ فوق سقفه طائر مثل طائري. هاااا. وربّما تعلّق الأمر بصدى صوتي. قضيت وقتًا طويلاً في محاولة نزعه، ولكنّه كما لو يكون التصق باللحم. كلّ محاولة تحدث من القلق أكثر ممّا تحدثه من الألم. عندما تمكّنت من نزعه أخيرًا وضعته جانبًا. لديّ كلّ النهار لأفكّر في طريقة جذريّة لإخفائه. ثم قلت نهاية إنّني لست بحاجة إلى كلّ هذا وأعدته من جديد إلى إصبعي الأصغر كي يسهل عليّ انتزاعه إذا احتاج الأمر ذلك.

ثم صفّق الطائر بجناحيه. ربّما فطن إلى شدّة الحرّ التي بدأت تتصاعد مع طلوع النهار. عندما بدا لي أنّه يستعدّ للرحيل سألته عن اسمه. فَرَجْ، قال وضرب بجناحيه ضربتين أو ضحك ضحكتين وطار.

II أقف تحت شجرة لا اسم لها

أراقب بيت عمّي على بعد عشرات الأمتار. أقف تحت شجرة قصيرة وكثيفة الظلّ ولا تهبّ تحتها أدنى نسمة. متّكئًا على جذعها أراقب الضيعة الممتدّة على أطرافها. وألتقط أنفاسي. عمّي لم يصل بعد. قد يأتي بعد قليل لأنّه سمع الخبر. إنّه الآن يعرف. لم يعد أمامي الكثير من الوقت قبل أن يصل. إنّه يعرف. آن الأوان لكي يعرف. مع ذلك ما زال أمامي ما يكفي لأدخل وأسلّم على امرأة عمّي. وربّما بست رأسها وابتعدت قبل أن تلتقي عيناي عينيه. إذا اقتربت بما فيه الكفاية وأطللت على الإصطبل فسأرى أنّ بغلته غير موجودة في مكانها. وسأطمئنّ إلى عدم وجوده في البيت أو خارجه أو حوله. وأطمئنّ أكثر إلى أنّه لم يصل. ولن يصل دون أن أرى بغلته تعبر المنحدر محنيّة الرأس، خانعة. من الأحسن أن أنتظر حتى أتأكّد. جدول ماء يمرّ على بعد خطوتين من قدمي. ومن قدم الشجرة. أقترب منه ثم أتراجع جهة الشجرة. سأشرب فيما بعد. أراقب الآن البناية. لون قرميدها أكلته الشمس. أحمر باهت ومتداعٍ في عدّة أمكنة. جنبه شجرة أوكاليبتوس عالية. لم أفلح في تسلّقها في يوم من الأيّام كما كنت أتسلّق شجرة التين. عالية وقليلة الظلّ مع ذلك. أمّا الماء فسأشربه فيما بعد. من هذا

الجدول أو من جدول آخر عندما أكون تصرّفت كما عليّ أن أتصرّف. أسلّم على امرأة عمّي وأبوس رأسها وأذهب قبل أن يجيء رجلها. حتى أستطيع أن أقول فيما بعد إنّني لم أغادر دون أن أكون رأيتها. على الأقلّ. امرأة طيّبة. كانت لي ملاذًا وعونًا خلال السنوات الستّ التي قضيت في ضيعة عمّي. أجد عندها دائمًا فاكهة أو قطعة حلوى تدسّها في يدي عندما يكون عمّي موليًا ظهره يعدّ الدجاجات التي باضت والتي لم تبض. أجد عندها دائمًا يدًا تربت على شعري وأنا نائم. أجد عندها دائمًا قطعة خبز بالزبدة أو كأس لبن تمدّها لي عندما يكون رجلها غائبًا. وعندما يحضر أتسلّل خارجًا من شدّة خوفي منه، هاربًا من بطشه. ومن خارج البيت أسمعه: تطعمين الأفعى في غيابي؟ تسمّنينه على حسابي؟ ونائمًا في الإصطبل أستمرّ أسمعه: تجرّدينني من رزقي لتطعمي الحلوف؟ إنّه يسرقني. لست في حاجة إلى دليل لأعرف أنّه يسرقني. رائحة امرأة عمّي في أنفي وبين ثنايا ثوبي دائمًا. رائحة امرأة عمّي رائحة خبز وحليب. رائحة امرأة تبكي. تبكي وهي تعجن. تبكي وهي تطبخ. تبكي وهي تتزيّن لتلتحق به في الفراش. ظلّت تبكي في صمت طيلة العشرة أيّام التي لزمتُ فيها الفراش بعد أن جرّني عمّي من ساقي فوق الحجر والشوك حتى تفكّكت عظام ظهري. وهي لا يبدو عليها أنّها تبكي. تفعل ذلك دون دموع حتى لا يرى عمّي دموعها ويضربها. في ذلك النهار وجدني عمّي أحلب واحدة من عنزاته التسع. لا أعرف هل رآني وأنا أشرب الحليب. لم أشعر بالضربة وهي تنزل على قفاي. عندما سقطت أرضًا أمسك برجلي وجرّني وهو يتوعّد ويهدّد بالجحيم التي سأعيش فيها معه والطريق المستقيم الذي سيردّني إليه. امرأة عمّي هي التي خرجت إلى الوادي وقطفت أعشابًا شافية تشبه النعناع البرّي ووضعتها على جراح ظهري. ليس لها أولاد. ولم تشتك من هذا أبدًا.

ولا من شيء آخر. تستيقظ قبل الفجر لتعجن لعمّي خبزه وتحلب البقرات لتجلب حليب فطوره وتقضي بقيّة النهار تكنس وتنظّف وترتق ثيابه. وعندما بنى عمّي غرفة جديدة قبالة غرفته القديمة انتقل إليها ومنع عليها أن تعبر عتبتها. عندما يكون حاضرًا يقضي وقته يصلّي في غرفته الجديدة ويراقب امرأته حتى لا تدخل وتدنّس صلاته وقبل أن يغادرها يضع على بابها قفلين. أكون أنا في الغابة أرعى قطيعه. من الفجر حتى العصر. لأنّ عند عمّي تسع عنزات وثلاث بقرات في حاجة لمن يأخذها لترعى الحليب الذي أشرب خفية. والذي بسببه يقول إنّني ظللت أسرقه.

من الأحسن ألّا أنتظر أكثر ممّا انتظرت. إذا ما سلّمت عليها فسيكون ذهابي محتملاً. أفكّر في مغادرة الضيعة منذ شهور عديدة إلّا أنّني لا أعرف إلى أين سأذهب. في النهار أفكّر في الأمر وفي الليل أفكّر في المرساة التي سأستقرّ على رصيفها. وأحلم أثناء النوم أنّني أطير. أفرد جناحي فوق الضيعة وأطير فوق رأس عمّي وهو يتوعّدني ويأمرني بالنزول وأنا لا أنزل. بقدر ما يزداد وعيده بقدر ما أرتفع في السماء. وبعد مدّة لا يعود سوى نقطة ضئيلة تتحرّك كفقّاعة في البحر. وبعد مدّة لا يعود يبين. من خلف الشجرة أراقب المنحدر. من الأحسن أن أنتظر حتى أتأكّد أنّه لم يصل قبلي. أفكّر في الإصطبل. هل ألقي نظرة عليه؟ إذا لم تكن بغلته في الإصطبل فسأكون متأكّدًا أنّه لم يصل. ولا أطلّ على الإصطبل. ولكنّه يعرف. أمّا هذا الأمر فأنا متأكّد منه. آن الأوان لكي يعرف.

قال لي المعلّم عمّك يعرف. قال إنّ عمّي ممدّد الآن على الدكّة جنب المطحنة وهو ممسك بقلبه حتى لا يتوقّف. لقد كاد يسقط مغمى عليه وهو يسمع الخبر. لم يفتح فمه حتى ناوله الطحّان كأس ماء بالقطران. وعندما شربه وفتح فمه لم يخرج منه صوت. وكان صاحب

الفرّان حاضرًا. وصاحب المطحنة ومساعداه. جميعهم كانوا حاضرين وسمعوه يقول، بعد أن شرب كأس الماء بالقطران: المدرسة؟ كيمْشي للمدرسة؟ خمس سْنين وهو كيمْشي للمدرسة وحتى واحد ما قالْها؟ ثم تمدّد على الدكّة جنب المطحنة يرجف ويده على قلبه. وربّما لم يفق من صدمته بعد. وربّما لا يزال أمامي الوقت الكافي. . .

III كأنّما لم يعد لنا ما نتبادله

أنا والمعلّم الواقف أمامي. كأنّما لم يعد هناك كلام نتبادله. قام كلّ منّا بما كان عليه أن يقوم به. آن الأوان أن نكبر. وآن الأوان لعمّي لكي يعرف. ويغمى عليه ويشرب الماء بالقطران ليعود إليه صوته. المعلّم واقف أمام بيته كأنّما انتهى من عمل كان مضطرًّا للقيام به. وأنا سمعت القصّة كما لو كنت أتوقّع أن أسمعها. مستعدّ لأسمعها في أيّ وقت. ذلك الطفل الذي جاء به عمّه قبل خمس سنوات ليرعى بقراته الثلاث وعنزاته التسع، يومًا بعد يوم، من الفجر حتى مغيب الشمس كان أيضًا يتعلّم. في جنح الليل والدنيا ظلام أنسلّ خارج الإصطبل على أطراف أصابعي، ليلة بعد ليلة، وأقطع الخمسة عشر كيلومترًا جريًا حتى بيت المعلّم وقبل الفجر أقطع الخمسة عشر كيلومترًا جريًا لأصل إلى البيت قبل أن تستيقظ امرأة عمّي. خمس سنوات بكلّ لياليها الطويلة منها والقصيرة. كلّ ليلة أذهب إلى بيت المعلّم ليلاً وأعود ليلاً.

قبل خمس سنوات، تركت عمّي في السوق يتبضّع وذهبت عند المعلّم الجزائري. وقفت أمامه ولم أقل شيئًا. نظر إليّ مندهشًا وسألني ماذا أريد. ولم أقل شيئًا.

كتكلم العربيّة؟

لا.

الفرنسيّة؟

لا.

أنت شلح؟

نعم. لم أقلها ولكنّ المعلّم قرأ في عينيّ شيئًا من هذا القبيل.

ثم تكلّم معي بالشلحة: ـ ما تيكتْ سيسم؟ ـ اسمينو عزيز. ـ ما تسْكارْتْ غيد؟ ـ أوشْكيغدْ سدار آمي. ـ ما ساتْسيكيلت غ دارسْ؟ ـ ريغْ أدلمدغ تيرا د تيغْري. ماش أوراس أوفيغ. أورْزضارغ أداشكغْ ساسازال أشكو تلا داري تاووري. (وهذه ترجمتها: ما اسمك؟ اسمي عزيز. ماذا تفعل في السوق؟ جئت مع عمّي. وماذا تريد؟ أريد أن أتعلّم القراءة والكتابة. ولكنّني لا أستطيع أن أحضر بالنهار إلى المدرسة لأنّني أشتغل).

خمس سنوات طويت سريعًا. بعد أن التقيت المعلّم الجزائري، وبعد أن أصبحت أذهب إليه في بيته في آزرو لم أعد أهتمّ كثيرًا بعمّي ولا بجبروته. لأنّني في بيت المعلّم الجزائري أتعلّم القراءة والكتابة. أتعلّم أشياء ساحرة. أخطّ على الورق أشياء تكون مبهمة وإذا بها تنطق، وإذا بها يصبح لها معنى. وإذا بالمائدة والمطبخ والسماء وفصل الأمطار والبقرة والحديقة تصبح موجودة حتى دون أن توجد. تتّسع الدنيا إلى حدود آسرة. وإذا بالطيور تحلّق على الورق. والفراشات. وإذا بالأشياء تصبح لها معنى ثم معانٍ وتأخذ أبعادًا وأحجامًا. خمس سنوات طويت على هذا النحو. خمسة عشر كيلومتر ذهابًا وخمسة عشر إيابًا ولا تتعبني في شيء. تكون امرأة عمّي نائمة، وعاملات الضيعات المجاورة نائمات أيضًا، يكون العالم نائمًا وأنا ماذا أفعل في هذه الأثناء؟ أتعلّم أسماء

الأشياء. أكتشف حدودًا لأتعدّاها في الحين. يحدث أن أنام تحت ظلّ بقرة على موسيقى تفّاحة تُكتب في عقلي، أو تحت شجرة. يحدث حتى أن يضبطني عمّي في هذه الوضعيّة أو تلك فيقول لي اتبعني. وأتبعه إلى البيت. ويحدث أن تكون امرأته واقفة تلاحق عصاه وهي تنزل على رأسي عاجزة تتوسّل إليّ أن أبكي ليكفّ. وأنا لا أبكي. تتوسّل بنظراتها ثم بدموعها وأنا لا أبكي. أراجع درس التاريخ في خاطري. وأرى مبهورًا جيوشًا تهاجم حصونًا ولا تستولي عليها لأنّ الأمير شخص عادل وتحبّه رعيّته. وعصا عمّي تنزل يتبعها دم من هذه الجهة أو تلك. خمس سنوات ظلّ التعب والألم والدم في جسدي يغلي. ولكن عقلي متيقّظ. وأقول نسيت عمّي تمامًا. أين هو الآن؟ هل هو الذي يلهث خلفي؟ لا أعتقد. أنا لا عمّ لي. ولا أمّ. ولا أب. أختي خديجة في البادية. وقد تكون تزوّجت في العاشرة أو الثانية عشرة. وقد تكون ماتت. نعم، ماتت حتى أتأكّد أنّني بلا شجرة ولا فروع. وأنتهي من القصّة برمّتها. ربّما كنت بحاجة إلى عمّي حتى أتعلّم كلّ هذا. ربّما كنت بحاجة إلى امرأة عمّي حتى أرى أنّ شيئًا ما لطيفًا يمكن أن ينبثّ في قلب ابن آدم. وربّما لست بحاجة إلى كلّ هذا. فقط بحاجة إلى الوقت الذي أجتاز فيه الباب وأسلّم على امرأة عمّي أو أبوس جبهتها.

امرأة عمّي مولية ظهرها إليّ، مكبّة على الكانون تطهو خبز المساء وتمسح يديها المعروقتين المتمرّنتين في خرقة وسخة. جنبها دجاجتان تنقران الحبّ الذي فضل. ثيابها رثّة ونعلاها مثقوبان. لا أرى وجهها ولا أرى جبهتها. أتصوّر وجهها هادئًا. وفمها لا أنتظر أن يخرج منه كلام. ليس فيه كلام تقوله. وحتى لو كان فيه فإنّه لا يصل إلى أحد. أتصوّر طيف ابتسامة قديمة ظلّت تطفو على شفتيها وتراوح ما بين الظهور والاختفاء. ذكرى ابتسامة لا تريد أن تنتثر. لا أعرف هل رأى

عمّي ابتسامتها من قبل. أمّا أنا فأعرفها حتى وأنا لا أراها الآن. دون أن أعرف سبب إصراري على أنّها ظلّت تحاول التخلّص منها دون أن تفلح. لم أتقدّم أكثر من خطوتين لأنّني رأيت عمّي يتقدّم أسفل الطريق المترب على بغلته. خرجت أركض إلى الإصطبل. ومن شقّ بابه أراه يعبر الفناء. ظهره منحن ورأسه مائل إلى الأمام من أثر الصدمة أقول، والبغلة تخطو متثاقلة كأنّما سكنتها وساوسه. والشمس الغاربة خلفهما تعكس ظلّين لمخلوقين هرما سريعًا. ثم أسمعه يمشي ويجيء أمام الباب شاهرًا عصاه: المدرسة؟ شْكون في العائلة ديال والديهْ اللي مْشى للمدرسة؟ خمس سنين وأنا كنْوَكْلو ونْشرْبو باش يمشي للمدرسة؟ خمس سنين وهو ولد الحرام كيسرقني. حتى دون أن أراه أتصوّر وجهه الممتقع والرغوة الصفراء العالقة بطرفي شفتيه: فين هو؟ فين ولد الحرام؟ خمس سنين وهو كيسرقني. من نهار جبْتو وهو كيسرقني ويدّي فلوسي للجزائري؟ فين ولد الحرام؟ وأتصوّر امرأته مكبّة على الكانون حتى تخفي دموعها. ثم أراه متوكّئًا على عصاه يتقدّم نحو الإصطبل. ظلّه يسبقه. صدره لم يعد عريضا كما كان. ولا كتفاه. ولحيته غزاها شيب كثير. كأنّما قطعنا معًا مسافة طويلة من الزمن. وهي ليست سوى خمس سنوات. يقف الآن عند باب الإصطبل وينصت. كما لو كان يعرف. من عتمة الإصطبل أراه كما لو كان عالمًا بوجودي. كما لو أنّنا معًا مدركان أنّ الوقت قد حان لنصفّي حسابنا. أمّا أنا فقد كبرت. أدرك هذا من خلال شعوري الغامض بأنّ زمنًا قد انتهى. وربّما كان عمّي يتصوّر الشيء نفسه، في وقفته المحيّرة تلك. عرفت أيضًا أنّه لن يغامر بالدخول إلى الإصطبل. حذر كالثعبان. لا أعرف سببًا آخر. وصل إلى الحدّ الأقصى من المعرفة. ومن السير. ثم أمسك بصدره وجلس على الحجر الذي يسند باب الإصطبل. هرِمًا مهدودًا أكثر ممّا تصوّرت. ثم قلت إنّ

ظلّ عمّي تقلّص الآن بشكل كبير. عمّي أصبح بلا ظلّ. ظهره تقوّس. ساقاه ممدودتان أمامه، صغيرتان، ساقاي أكبر من ساقي عمّي، وقلت إنّه لم يغامر بالدخول إلى الإصطبل بسبب ساقيّ اللتين أصبحتا أطول من ساقيه. مرّ وقت لم يتحرّك فيه أيّ واحد منّا، كلّ متشبّث بمكانه، وبمعرفته، وربّما كان يطلب منّي أن أتسلّل خارج الإصطبل دون أن يبدو عليه أنّه رآني ودون أن يبدو عليّ أنّني رأيته. كأنّما وصلنا إلى هذه النقطة دون اتّفاق. أو طبقًا لاتّفاق مسبق ظللنا نؤجّله طيلة هذه السنوات. ثم سقطت يداه جنبه. هل كنت رأيت هذا أيضًا؟ أو تصوّرته؟ هل تصوّرت موته على هذا الشكل الاعتباطي؟ جالس على حجر يسند الإصطبل كأنّما يتشمّس دون شمس؟ وأنا أطلّ عليه، على فمه الفاغر، على صدره المجوّف. على ما تبقّى من عمّي.

IV الأب جواكيم

فتح أمامي باب الخيريّة، قبل سبع سنوات، وقلت أنا جدّ محظوظ. من ضيعة عمّي إلى الخيريّة. لم أقض يومًا واحدًا في العراء. قال لي هنا تستطيع أن تأكل وتنام وتتعلّم. الأب جواكيم في السبعين من العمر، نحيف كقصبة بلحية بيضاء خفيفة ورأس أصلع وعينين لا تستقرّان. وجهه محفور من أثر نثار رصاص تلقّاه في الحرب. ولا تعرف هل تزيد الحفر من هيبته ووقاره أم من نفوره. أنا ظللت قريبًا منه منذ أيّامي الأولى في الخيريّة. وفي التاسعة عشرة من عمري لا أزال في حاجة لمن يهتمّ بي ويسألني عن همومي وينصحني. (ربّما تقرّب منّي عندما رآني أقضي الوقت بعيدًا عن الآخرين. لا أتدخّل في أمورهم. لا أفصح عن مشاعري لأحد. همومي ساكنة معي وسأحملها معي. ظللت دائمًا أخاف من الدنوّ من عالم زملائي في الخيريّة لدرجة أنّني لا أتجرّد من ثيابي إذا كان واحد منهم حاضرًا، هكذا، بشكل غريزي. كأنّما عريي سيفضح نقصًا كامنًا فيّ. كأنّما أبحث عن أقرب الطرق للوصول إلى نهاية الدراسة واجتياز الامتحان والالتحاق بالمدرسة العسكريّة لأنّني قرّرت أن أصبح طيّارًا. منذ الآن أرى نفسي محلّقًا بعيدًا، مديرًا ظهري لكلّ ما حولي). نحطب خشب الشتاء معًا أنا والأب جواكيم ونذهب

إلى السوق معًا ونغسل ثيابنا وننشرها على ضفّة النهر معًا. أرافقه في خرجاته الراعدة عندما يسكر في إيموزار أو الحاجب. يطلب منّي أن أراقبه حتى لا يتجاوز حدوده. ويتجاوزها دون أن أكون انتبهت. وأقضي الليل أبحث عنه لأعثر عليه عاريًا وسط الغابة يصيح مرّة مبتهلاً ومرّة محتجًّا ومرّات غاضبًا. في أيّامه الأخرى، أيّام صحوه وهدوء باله، غالبًا ما كان يقضي الوقت في الصلاة. وأحيانًا، عندما لا يصلّي، يجلس جنبي مساء وأنا أراجع. ثم فجأة ينزع الكتاب من يدي ويطلب منّي أن أستظهر ما حفظت حتى لو كان الأمر يتعلّق بدروس العربيّة. (الأب جواكيم يحفظ القرآن ولكن بالفرنسيّة وتعلّم مفردات كثيرة من الشلحة ولكنّه لا يعرف العربيّة) ومع ذلك كانت عيناه تتابع سطور الحروف العربيّة ثم يلتفت ليقول لي هنا أخطأت عندما أكون أخطأت.

شهران تفصلانني عن آخر امتحان. أقف أمام المرآة المشروخة في الممرّ وأرى وجهي فيها وأقول إنّني كبرت فعلاً منذ غادرت ضيعة التفّاح. نبتت لحيتي وظهر زغب أصهب فوق شفتي. وأصبحت لي جبهة عريضة. تركت التلاميذ في المطعم يشاهدون التلفزة ويتناقشون في السياسة بدل مراجعة الدروس لأنّنا على أبواب الامتحانات. ثلاثون تلميذًا نصفهم ينتمي إلى ن. و. ت. هم يسمّونها هكذا. ن. و. ت. حتى لا نفهم، نحن الذين لا ننتمي، عن أيّ تنظيم يتحدّثون. وأنا أعرف أنّهم يقصدون النقابة الوطنيّة للتلاميذ. ولكنّني لا أقولها وأنا أنصت إلى نقاشهم المتحمّس. وفي سرّي أحسدهم لأنّهم ينتمون إلى جماعة ما وإن كان لا أحد يعرف من تكون هذه الن. و. ت. ولا ماذا تفعل. أدرك فقط أنّها ضدّ النظام. أحسّ بنفسي بئيسًا أمام نظراتهم المتعالية، الواثقة. عندما أقترب منهم يصمتون. أو يدسّون أوراقًا كانوا يتداولونها بينهم. وتبقى نظراتهم ترشقني كالحجارة. أتساءل هل أعود إلى

المطعم. أبقى في الممرّ أمشي وأجيء ثم أدخل المطعم. غادره كثيرون وبقي أصحاب التنظيم. ألاحظ امتعاضهم وهم يشاهدون على التلفزيون الأنشطة الملكيّة. تدشينات، واستقبال سفراء ثم تدشينات أخرى واجتماعات حكوميّة وغير حكوميّة. أسمع أحدهم يقول المال العامّ يهدر في الخواء. ثم يلتفت جهتي. أشعر بالضيق وتصعد الحرارة إلى وجهي كما لو أكون واحدًا من الذين يظهرون على الشاشة. أتمنّى أن أرى الشرطة تقتحم الخيريّة وتضع الأصفاد في أيديهم. هكذا ننتهي منهم قبل أن تنتشر عدواهم في الخيريّة. أغادر المطعم لأتسكّع قليلاً في الحديقة. دون نيّة في التسكّع، دون رغبة، كواحد منبوذ، وببعض الندم على شيء لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه. رغبتي هي أن أشقّ لي طريقًا دون ضجّة، دون طبول وأن أجد لي مكانًا تحت الشمس. لم يكن عليّ أن أسمع ما سمعت. كأنّما أشاركهم في تطرّفهم. ليس لي رأي حتى أشاركه مع أحد، متطرّفًا كان أم غير متطرّف. لا أنتمي لا إلى اليسار ولا إلى اليمين. لو أدليت بهذا الرأي لأحدهم لطردني. ولو كان هذا الأحد لطيفًا ومتفهّمًا سيردّ عليّ إنّك تنتمي إلى اليسار دون أن تدري. لأنّك فقير وتريد تغيير وضعك ووضع عائلتك، مثلنا جميعًا. وماذا سيكون ردّي آنذاك؟ هل أقول له إنّني لا عائلة لي؟

الأب جواكيم هو الذي حدّثني عن الطيران أوّل مرّة. وتنبّأ لي أنّني سأكون طيّارًا. كأنّما وجّه دفّتي بطريقة ما. زرع دودة الطيران في دمي. هو نفسه كان طيّارًا أثناء الحرب العالميّة الثانية. شابّ في الثانية والعشرين ولا يحلم آنذاك بأن يرتدي البدلة الكهنوتيّة. يحلم فقط بالطيران. قال إنّه عندما حلّق لأوّل مرّة سمع أصواتًا تأتيه من بعيد. قال إنّها لحظة تتّسع فيها عينا ابن آدم بشكل غير آدمي. ليس بسبب الخوف أو الضغط وإنّما بسبب أنّك اجتزت تاريخك البشري إلى تاريخ آخر. ثم

يقول إنّه رأى في السماء أمواجًا كما في البحر. وطرقًا وغابات وأنهارًا ترعى فيها قطعان الكركدن. قال تستطيع أن تتجوّل فيها كراعٍ أو كمسافر بلا هدف. تتنقّل بين الطبقات كما لو كنت تتنقل بين المدن. شيء واحد لا يوجد في ذلك المكان، الريح. الأب جواكيم تطلّع إلى السماء لحظتها وقال لي هل تعلم أنّ الإنسان يكبر في الأعالي؟ انظر إلى هذه السنونوات الواقفة فوق رؤوسنا. أرفع بدوري إلى السماء رأسي. انظر الآن كيف تلعب كما لو كانت تسبح في حوض ماء. ها هي ترتفع الآن وتبتعد وتصغر كلّما ابتعدت. هل هي التي تصغر أم نحن؟ قضى فترة من الحرب في جنوب الجزائر وهناك رمى البدلة العسكريّة وارتدى كسوة الكهنوت. كأنّما عوض رحابة السماء برحابة الصحراء. سمعه ضعيف الآن، حتى لتقول أحيانًا إنّه لا يسمع. أو كما لو يكون عوّض الأصوات الخارجيّة بأصوات تخصّه: سمعي مرهف عكس ما تعتقد. أسمع كلام الأرض والسماء، أسمع حتى ما يُقال في جهنّم. هاهاها.

الليل كثيف حول بناية الخيريّة. الليل يكون أكثر كثافة في بدايته. مع أنّ القمر يكون قريبًا من الأرض في هذا الوقت من السنة. والضوء القليل يأتي إمّا من المطعم حيث تركت التلاميذ النقابيّون يناقشون. أو من الطابق العلوي حيث يسكن الآباء الثلاثة الذين يشرفون على الخيريّة. تراب الحديقة مبلّل ولكن عاصفة النهار مرّت بسلام ولم تترك أثرًا كبيرًا على الشجر والأزهار التي بدأت تتفتّح منذ أيّام. طُرق الباب الخارجي. وصل الأب جيروم قبلي وفتحه. الذي طرق الباب لم أره. ولم أسمع الخبر الذي جاء به. لم يسمعه أحد ما عدا الأب جيروم الذي عبر الحديقة جريًا كأنّما ظلّ طوال النهار يتوقّع مصيبة. إنّه يقضي النهار والليل يصلّي. قال دون أن يلتفت جهتي الأب جواكيم عاد. ولكنّه لا يستطيع الصعود حتى هنا. ثم التحق به الأب رفائيل. ووقف الأبوان في

الحديقة، كما لو ظلّا دائمًا يتوقّعان خبرًا كهذا وينتظرانه، يتطلّعان إلى السماء ويستعدّان للخروج حتى لا يباغتهما مطر أو عاصفة في الطريق. سيأخذان معهما البغلة إذا كانا مضطرّين للعودة به فوقها. طلبا منّي أن أجرّ البغلة لأنّني أعرف الطريق أحسن منهما. ثم إنّ البغلة ستنفع في كلّ الأحوال. الفجر لا يزال بعيدًا. والسماء قد تمطر من جديد لأنّنا في الأعالي. أراهما يمشيان ويجيئان في الحديقة ويتحدّثان عن الأب جواكيم كما لو يكون فقد عقله. ومرّة أخرى كما لو يكون مرميًّا في الخلاء ويحتضر. مضرّجًا بدمائه بعد طعنة تلقّاها في الغابة. أو سيل جرفه في الليل. أنا أيضًا مهتمّ بالأب جواكيم إنّما بدون طعنة أو غرق. وبدون الكوارث الأخرى التي تظهر في عيون القسّين المدّثرين في عباءتيهما السوداوين.

الأرض التي نسير فيها عبارة عن نجد مرتفع. أنا في المقدّمة ثم البغلة يتبعها الراهبان. مدّثران في لباسهما الأسود الثقيل. لم نكن في الشتاء ولم ندخل منطقة الحرّ بعد. الرهبان يرتدون الأسود في كلّ المواسم. ثم إنّ المطر ينزل كثيرًا في هذه المنطقة. نمرّ فوق المطار القديم. لا تبدو على ملامح الأرض علامات أيّ مطار. الأب جواكيم هو الذي قال لي هذا هو المطار. وحدهم الأثرياء الفرنسيّون ينزلون به على متن طائراتهم الخاصّة للاستشفاء في مصحّ بَنْصْميمْ. الأب جواكيم عندما تأتيه إحدى نوباته يصعد إلى المطار وهناك يقضي النهار. جالسًا يراقب السماء. مرّة وأنا جالس جنبه على عشب المطار الذي تفوح من كلّ شبر فيه رائحة الصعتر والنعناع البرّي سمعته يقول تزعزع إيماني. كلام الأب جواكيم يقوله لي، وحدي، بعيدين عن الخيريّة وعن الأبوين: لم أعد أومن بالله. ولا أحد يريد أن يفهمني. ماذا تريد من رجال وهبوا حياتهم للصلاة والتقرّب من الله أن يفهموا، ماذا تريد منهم

أن يفهموا أيّها الأب جواكيم؟ يبدو يائسًا، ليس كواحد فقد إيمانه ولكن كواحد فقد ثقته في بني البشر. هكذا هو الأب جواكيم من يوم عرفته. لا شيء سيواسيه. يهب نفسه للصلاة والقراءة شهورًا طويلة بالليل والنهار. ثم كواحد فقد رشده، يستمرّ يهذي لأيّام، قبل أن يختفي لعدّة شهور. يعود بعدها مشرق الوجه. هادئًا. ولا يعود إلى ذكر ما حدث.

أين كنت يا أبي؟

كنت أبحث عن المكان الذي عثرت فيه على الإيمان أوّل مرّة، في الصحراء، في الجنوب القصي من الصحراء. هناك السماء قريبة. والله يتجلّى. لا يتجلّى الله في غير الصحارى. وهناك أناس يمكن أن يسمعوا ما تقول كما تسمع أنت ما يقولون دون حاجة إلى كلام. كيف يمكن هذا أيّها الأب؟ أذكر يوم قام الرهبان بحبسه في زنزانته عندما أعلن رغبته في تحويل الدير إلى زاوية تُؤوي الجميع، مسلمين ونصارى ومجوسًا، مؤمنين وغير مؤمنين.

لا أذكر عدد المرّات التي اختفى فيها خلال سنواتي السبع. عمّ يبحث الأب جواكيم؟ إنّه لا يبحث عن الله. يقول إنّه يبحث عن الإنسان. الأب جواكيم ظلّ يقول لي كأنّما ليحفر كلامه في عقلي إنّ الإنسان بطبعه ينشد الخير ويصبو نحو الكمال. لأنّ المهمّ هو أن تعتقد في كمال ما. في كائن لانهائي الكمال وأن تصبو نحو هذا الكمال ولتسمّه ما تشاء. أنا لا أفهمه ولا أفهم طريقته. أراه تارة مسلمًا وتارة مسيحيًا وتارة ملحدًا وفي صلواته أسمعه يخلط القرآن بالإنجيل. وأحيانًا بلهجة لا أفهمها. خصوصًا عندما يكون سكرانَ. وعندما أسأله عن اللغة التي يصلّي بها يقول كلّ اللغات صالحة للتقرّب إلى الخالق. أحيانًا، عندما لا يكون في الخيريّة، يكون قد عبر الجبل وتوغّل في الصحاري بحثًا عن الرحّل. غالبًا لا يجدهم. وربّما لا يوجد رحّل في المناطق

التي يهيم فيها. يقضي شهورًا يعيش على خبز الشعير والماء وفواكه الشجر إن وجدت. يعود كالسكران. يقول إنّ ما عثر عليه في جولته الأخيرة لا يقدّر بثمن مع أنّني لا أعرف ما هو هذا الشيء الذي عثر عليه. هو نفسه لا يستطيع أن يشرحه. يصيح فقط إنّه في كلّ مكان. إنّه في كلّ مكان. وأنا أحاول أن أفهمه ولا أفلح. وأحيانًا أقول إنّ الرجل فقد عقله.

قبل اختفائه الأخير قبل أربعة أشهر سألته باقي ما لْقيتيش داكْ الشي اللي بْغيتي؟

هذه المرّة لم تكن علامات الكآبة تطفح على وجهه. ولم يقل لي إنّه فدق الإيمان. أو أنّ عقيدته تزعزعت. كان سعيدًا. قال إنّه قرّر الرحيل نهائيًّا. سينتقل إلى الجنوب وهناك سيبني زاويته. زاوية من طين وتبن يبنيها بيديه قرب عين ماء وجنبها سيزرع الشعير ويحصده بيديه. ويستقبل العابرين من كلّ جنس ولون وديانة. وها هو الأب جواكيم قد عاد.

وجدناه منبطحًا قرب معصرة الزيتون، مغمًى عليه، على وجهه جروح وثيابه موحلة. عند رأسه قنديل وبعض القرويّين يسهرون حوله. قالوا إنّ عصابة من قطّاع الطرق هاجمت خيمته وأخذت القليل من المال الذي كان معه. أحد المسافرين كان يمرّ قريبًا من خيمته وحمله على ناقته حتى هنا.

بدأ المطر ينزل. نعود مع الفجر. أجرّ البغلة. نعبر الطريق نفسها التي جئنا منها. الأرض تبلّل حذائي. أراه يتمايل فوق البغلة، الأب جواكيم، مدمّى الوجه، ممزّق الثياب، والوحل يكسوه، رأسه مائل قليلاً إلى الأمام، ينظر إليّ وطيف ابتسامة بلهاء على طرفي شفتيه. وكما لو كان يقول إنّه أخيرًا عثر على ما كان يبحث عنه.

١٦

رواية هنــدة

(صباح اليوم التالي)

I الظلام منعني من مغادرة القصبة

قلت أنتظر طلوع الصباح وربّما أكون فكّرت جيّدًا في المكان الذي سأذهب إليه. ها هو قد طلع هذا الصباح الذي كنت أنتظر ولا أدري بعد إلى أيّ وجهة أصوّب رأسي. أتذكّر حياة الكلاب التي تنتظرني وأتساءل أيّها أفضل، حياة الخلاء الرحب أم حياة القصبة. لقد رأيت قبل أيّام كلبة تدور في الجوار واستهوتني الحياة الحرّة التي تحيا. تذهب حيث تشاء وتنام أنّى تشاء. جالسة تحت نخلة وتراقب القصبة وأنا أتساءل ماذا تفعل هذه الكلبة أمام قصبة لا مكان فيها للبشر فكيف بالأحرى الكلاب. عندما وقفتُ بدوري قرب النخلة متظاهرة أنّني قصدتها للتبوّل ضحكت الكلبة، كأنّما اكتشفت نيّتي، فقالت إنّ ما دفعها إلى هنا هو أن ترى القصبة لأنّها بالأمس سمعتْ حديثًا عجيبًا حولها. قالت سمعتُ أنّ معمارها نموذج استثنائي في كلّ الجنوب. ولكنّني لا أرى أمامي غير الخرائب. من يسكن هذه القصبة؟ قلت لها بعض المخازنيّة. لم أشأ أن أنغّص عليها صباحها بقصص عن دفن الناس أحياء. ثُم إنّها لن تصدّقني لو حكيت لها ما شاهدت. ستقول إنّني أكره البشر أو شيئًا من هذا القبيل. تجوّلنا مدّة بين النخيل ثم طلبت منّي مرافقتها حيث تقيم مع عائلة صحراويّة. عبرنا قطعة صحراء ذهبيّة الرمال وأثناء الطريق سألتها

عن اسمها. قالت رستم. وبدا لي الاسم غريبًا وهذا ما قلت لها. قالت إنّها فعلاً وجدته في البداية غريبًا... ولكن مع الوقت... وقفنا فوق كثيب رمل وتدحرجنا حتى أسفله ونحن نضحك ثم استأنفنا السير. قالت إنّ القصبة بناها رجل اسمه الكلاوي دون أن ينفق عليها فرنكًا واحدًا من جيبه. توقّفت رستم والتفتت إليّ وسألتني لمَ تصلح الأغطية المهترئة وصحون القصدير الصدئة التي تملأ الساحة. لم أعرف بما أردّ. قلت إنّها أغطية من أيّام الباشا لا يرغب في أخذها أحد حتى لا تدخل النحس إلى بيته.

ورائحة الموت؟

أيّ موت يا عزيزتي رستم؟ لا أعرف عمّا تتحدّثين.

صمتت ونظرت إليّ كأنّما تشكّك في كلامي ثم قالت ومع ذلك هناك رائحة لا أخطئها تأتي حتى النخلة التي كنت أجلس تحتها. واستأنفنا سيرنا. وصلنا إلى واحة كثيرة النخل حولها خيام سوداء من الوبر مشدودة إلى الأرض بالحبال وزرائب لقطعان الماعز. وأخرى للغنم. ودخان الأفران ونساء جالسات عند أبواب الخيام يعدّون العصيدة وعلى ظهورهنّ أطفالهنّ. وبناتهنّ يلعبن أمامهنّ وأطفال آخرون من أعمار مختلفة يجرون في كلّ اتّجاه ويتصايحون وسبعة أو ثمانية جراء تجري وراءهم. التفتتْ إليّ رستم وقالت مفتخرة إنّهم جميعهم أبنائي.

أفكّر في رستم الآن وفي الحياة السعيدة التي تحيا بين أطفالها وعشيرة الصحراويّين. أيّ حياة بسيطة، بسيطة وكاملة. رستم كلبة لطيفة وقد دخلت إلى قلبي من أوّل لحظة. أفكّر في كلّ هذا وأنا مختبئة في الممرّ حتى لا يراني الكوموندار بعد أن كسرت أمس متعمّدة زجاجة الويسكي التي منها كان يشرب هو والمرأة التي كانت معه. باب حجرة

عزيز مغلق. أطللت عليه من الشقّ التحتاني ورأيته على دكّته جالسًا، عاريًا كما ولد في اليوم الأوّل. يسبح في دائرة من ضوء الشمس تنزل عليه من السقف بقوّة. ولا أثر للجروح المتقيّحة التي رأيت على جلده في الليل. يجلس كرجل يأخذ حمّام شمس وبعد قليل سيرتدي ملابسه ويغادر الشاطئ. نعم، لم يعد لي ما أقوم به هنا. لا أحد بحاجة إليّ. قبل بضعة شهور كان الكوموندار سيهديني لواحد من أصدقائه. قال له فكّني من هذه الكلبة، إنّها لا تصلح لا للصيد ولا للحراسة. ولكنّ الصديق اعتذر وقال له إنّني كلبة مسنّة وأحسن لي أن أموت هنا. معه حقّ. تعب السنين يثقل على كتفي. لم أعد قويّة كما كنت في صباي عند الخيّاط محجوب وامرأته الشرّيرة. ولكنّني لا أرغب في الموت هنا ودفني مع الآخرين في حفرة موبوءة ورشّي بالجير كالمئات من الجثث التي رأيت. رغم سنّي المتقدّمة ما زلت طامعة في حياة أكثر بهجة، وفي أولاد، ولمَ لا إذا وجدت كلبًا متفهّمًا .وهذا أمر غريب؟

تقدّمت على أطراف أصابعي وأطللت على الساحة. لا أسمع صوت الحارسين. لا حركة في الساحة والحفرة كما تركتها مقلوبة. بيت الحارسين فارغ. وكذلك مكتب الكوموندار. في كلّ القصبة لا يوجد مخلوق. وهذه أمر غريب ولا وقت لي للتفكير فيه. سأفكّر فيه بعد أن أغادر هذه الجحيم. أينما حللت سيكون أفضل. تعلّمت خلال عيشتي في هذه القفار أن أقتات على صيد الحشرات والفئران. تعمّدت أن أسعى لكي تتقلّص معدتي لدرجة أنّ فأرًا صغيرًا يكفيني لنهار كامل. فئران الصحاري وجبة من ألذّ الوجبات التي تناولت في حياتي بالإضافة إلى أنّها صحّيّة. لست على العموم بحاجة إلى أكل كثير. لم أعوّل يومًا على كرم الحارسين لأنّهما بخيلان. والكوموندار يتغدّى ويتعشّى بالويسكي. منذ حللت بهذه القفار عوّلت على نفسي دائمًا. لهذا أستطيع

أن أقول إنّني تعلّمت أن أحيا في كلّ الظروف وأنّ حياة الصحراء تلائمني تمامًا.

هذا ما أقول وأنا أتقدّم نحو باب القصبة الكبير. الساحة أمام الباب نظيفة مرشوشة بالماء والأزبال التي كانت متناثرة أمام القصبة اختفت. ورايات ترفرف كأنّنا سنستقبل ضيفًا مهمًّا. ولم تمض دقائق حتى رأيته يعبر الساحة، يلبس بلغة بيضاء وجلّابيّة صفراء فاتحة اللون، يرافقه رجل يرتدي البياض من فوق إلى تحت ويحمل حقيبة معدنيّة صغيرة وكرسيًّا صغيرًا. توغّلا في الممرّ ووصلا عند باب عزيز. وضع الرجل الكرسي جنب الباب وتراجع.

II جلالته وصلتْ

وهي تسلّم عليك وتسألك هل فكّرت في أمرنا. ربّما إنّها المرّة الأخيرة التي أزورك فيها وأطلب منك أن تقول الجملة الوحيدة التي أنتظر منك. «أنت الملك وأنا واحد من رعاياك المخلصين». هل هذا كثير؟ لا أفهم لماذا لا تحبّني. فكّرت في الأمر طويلاً ولم أجد جوابًا مقنعًا. لا يوجد واحد في مملكتي لا يحبّني. لماذا تنغّص عليّ حياتي وتجعلني أقضي الوقت في التفكير في أمرك بدل الاهتمام بأمور الشعب؟ لماذا تكرهني؟ الجميع يحبّني. وزرائي وشعرائي ومهرّجو قصري وعبيدي. لماذا لا تحبّني كما يحبّني الشعب بكامله. تحبّني، هكذا ببساطة دون أسئلة؟

ماذا تريد؟ أسألك فقط ماذا تريد؟ أن أكون مثل ملك السويد؟ لا يراه أحد لأنّه يقضي يومه في التجوال على درّاجته؟ هل أنت سويدي؟ أو أبوك أو جدّك؟ أو تريد أن أعطي الحكم لأحزاب يساريّة تبيعنا للاتّحاد السوفياتي؟ لو كانوا على الأقلّ يستطيعون تسيير البلاد. سيجلسون على الكراسي يوزّعون الثروة بينهم ويتفرّجون على البلاد تسير إلى الهاوية. بينما المال الذي آخذ أنفقه على المحتاجين منكم، والمرضى. ألا تذكر كم من مغنّ وملحّن ورسّام أرسلته للعلاج في

الخارج على حسابي؟ للأسف، ماتوا جميعًا ولكن هذا لم يمنع الأطبّاء في باريس من أخذ أجورهم كاملة. هل تعتقد أنّ موت مغنٍّ أو رسّام سيجعل قلوبهم رؤوفة مثل قلبي؟ أهاه، والله العظيم لم يعذروني. أدّيت الفواتير إلى آخر فرنك. وفوق الفواتير أدّيت ثمن الطائرات التي أقلّت جثامينهم العزيزة، هذا دون الحديث عن مراسم الدفن والعزاء. كلّ هذا أدّيته من المال الذي أجمع وأدّخر من أجلكم يوم تكونون في حاجة إليه. هل تذكر التابوت الذي احتوى جثّة صديقنا الركّاب؟ يا لجماله. من كان يحلم بتابوت كهذا؟ بخشب من الأبنوس وكوّة زجاجيّة يطلّ منها محمّد علينا نحن الذين كنّا نحبه ونعامله كولدنا. هل كان الاشتراكيّون أو الشيوعيّون سيفكّرون في مثل هذا التابوت؟ أبدًا. وهل تعرف لماذا؟ لأنّني أفكّر في كلّ شيء. أنتم أبنائي وطرف من كبدي وما أطلبه منك أيّها الصديق ليس بعزيز على مواطن يحبّ ملكه. ولكنّك لا تحبّني أيّها التعس. عسكري لا يحبّ ملكه. لا يوجد هذا لا في الصين ولا في النرويج. لا يوجد إلّا في هذه البلاد التي لا تذكر النعمة التي أنعم الله عليها. ماذا تريد؟ تريد أن ينتهي ملكي لتبدأ ملكك؟ لماذا؟ أراك من هنا تتصوّر ذلك اليوم الذي سأهرب فيه. خارجًا من باب خلفي ضيّق. والهتافات تلاحقني. امسكوا بالديكتاتور. امسكوا به قبل أن يفلت. ارجموه وارجموا أولاده. هذا إذا لم يمسك بي الرعاع ويقودونني إلى حبل المشنقة وهم يتصايحون ولعابهم يسيل اقتلوه واقتلوا عائلته. هل هذا ما تريد؟ لماذا؟ ألست أباكم جميعًا؟ أباكم الذي يحبّكم ويسهر على راحتكم؟ وأتعامل معكم كما يتعامل الأب مع أولاده. إذا ضربتكم أو سجنتكم فلمصلحتكم. ألا تضرب أولادك بين لحظة وأخرى إذا زاغوا؟ وتسجنهم في الغرفة أو المطبخ أو البئر؟ وبالمناسبة هل تعرف أنّ الأميركيين بدأوا يسألون عنك أو عن غيرك. هل هذا معقول؟ عجبك

الحال؟ الأميركان يتدخّلون في شؤوننا الآن؟ أرسلوا لجنة وتقارير والقيامة السوداء بسببك أيّها المنحوس. ما خُشوماش؟ هل هذا ما تريد؟

ثم هدأ للحظة وبدا صوته خفيضًا وهو يقول إنّه لم ينم ليلة أمس. وطيلة النهار لم يشرب غير كأس من الحليب بالعسل. منذ ليال طويلة لم ير النوم. أسند الضيف ظهره إلى الحائط. أطللت عليه من مخبئي. رأيت أنّه قد أغمي عليه. وكان الرجل الذي يصاحبه منحنيًا عليه يحقنه في ذراعه. بعد نحو ربع ساعة أفاق وطلب من الرجل أن يساعده على تغيير وضعه. ولم يعرف الرجل عن أيّ وضع يتحدّث. طلب منه الرجل الذي قد يكون طبيبه الخاصّ أن يأخذ قسطًا من الراحة. وضع الضيف نظّارة شمس سوداء فوق عينيه وقلت ربّما إنّه يفعل ذلك حتى لا يرى الطبيب دموعه. ثم التفت الضيف جهة الممرّض متأهّبًا وسأله كيف حال الشارع؟ فقال الرجل إنّ الوضع في الشارع هادئ. ثم قال إنّه تمّ الدفع بمائة دبّابة عند مداخل المدن. وابتسم الضيف.

أمّا أنا فقد أحسست بعيني تنغلقان وارتخاء في كلّ جسدي. ما زلت متعبة من المجهود الذي قمت به في الليل. هرمتُ. سأكون محظوظة إذا استطعت أن أندمج في تلك العائلة الصحراويّة البسيطة.

١٧

روايـة بنـغازي

(العاشرة صباحًا)

I ثم هناك هذه المرأة

التي جاءت تبحث عن رجلها كما يسمّونه. وأنا كما لو تقول لم أرها منذ الوهلة الأولى عندما خرجت. كنت ممدّدًا في الغرفة وأقول هذا هو اليوم الذي أذهب فيه إلى المدينة لأجرّب حظّي... وعيناي لا يظهر فيهما غير الخيل التي ستجري ظهرًا... وعندما شربت كأس شاي وخرجت من غرفتي... والأرقام التي سألعب... وذهبت عند الباب كما يسمّونه... وجدت حافلة السيّاح. وإذا كان عقلي لا يزال في مكانه كما يقولون فقد قال لهم خالي لا حاجة بنا إلى سيّاح أغلبهم جواسيس... وهو في مكتبه... خالي... سواء كانوا فرنسيّين أو إيطاليّين أو من الهند. ولكنّهم جاؤوا. ماذا نفعل بهم. جاؤوا ليتعجّبوا على هواهم من الجدران المنيعة وما تبقّى من زليج الباشا كما يسمّونه وزخرفاته المصوّرة في الكاتالوغات التي يحملون... وعرقهم كثير... ونحن في شهر مايو... والسيّاح لا يفهمون ما أقول والدليل يردّ على استفهاماتهم... وأنا أقول كما يقول خالي إنّهم جواسيس ونحن لا مساجين عندنا والحمد لله... والدليل لا يعرف كيف يشرح... وأنا: كلّ هذا تركه الاستعمار الغاشم. أمّا الآن فالحمد لله. البلد ينعم في الحرّيّة والسعادة. والدليل: القصبة مغلقة لأنّ اليوم يوم جمعة. والسيّاح

محتجّين: اليوم يوم أحد. وأنا صائحًا: ومع ذلك فاليوم في هذه المنطقة يوم جمعة. والسيّاح صارخين: نحن نحتجّ بقوّة. وأنا: الله يرحم والديكم سيرو في حالكم. وانتهت الرحلة. وخالي في المكتب... وهم يحاولون الهجوم على الباب وأنا أنصح الدليل أن يمنعهم من الدخول إذا أراد أن يخرج نهاره سالمًا. غدًا سأفتح لهم الباب لأنّه سيكون يوم جمعتهم. لا سباق فيه ولا خيل ولا أرقام... ولا يعود هناك ما يؤاخذنا من أجله الفرنسيّون والأميركان... إن شاء الله... أمّا الآن فالدخول ممنوع والسلام... وخالي يعرف أنّ نصفهم جواسيس وقد جاؤوا بنيّات سيّئة وأفكار مسبقة وخالي يقول وسينشرون في الصحف كلامًا سيّئًا سواء فتحنا لهم الباب أم لم نفتحه.

ودّعت الدليل وسيّاحه عند الباب ولمّا تحركت الحافلة تركتِ المرأة وراءها... واقفة في الجهة الأخرى من الحافلة حيث كانت تقف... والأرقام تدور في رأسي كما كانت وأنا في الغرفة... كلاب تجري وخيل تتبعها وأحيانًا تجري جميعًا في السباق نفسه... والمرأة واقفة تحت الشمس... كلاب وخيل وحمير ودجاج... وهي تتطلّع إلى أسوار القصبة... كما هي في ضوء الصباح... وهي لا تشبه السيّاح الذين يطلّون علينا بين الوقت والوقت لنفرّجهم على مآثرنا التاريخيّة كما يسمّونها... وتنّورتها طويلة ذات أزرار بيضاء تشدّها من فوق إلى تحت... ومحفظتها المتواضعة وابتسامتها التي تترجّى... من الجلد محفظتها وسوداء... وشعرها المشدود في خرقة مزوّقة... ربّما تكون شلْحة من إيموزار أو تيمحْضيتْ... وعندما قالت إنّها تبحث عن رجلها عزيز عرفت أنّها ليست شلحة كما يقولون... وهو في الحين عرفته... وهي تقول إنّه رجلها... وأنا تظاهرت أنّني لا أعرفه... ولماذا سأكون مسؤولاً عن معرفته... أنا لا أعرف أحدًا، اسألوا

خالي. أو الذي فوقه. أو الذي فوقنا جميعًا. وتظاهرتُ أنّني متعجّب من كلامها لأنّ القصبة مكان يأتي إليه السيّاح من كلّ العالم. حتى من اليابان. وسألتها هل عزيز سائح ياباني أم دليل مثلي تابع لوزارة السياحة... لأنّني دليل في هذه القصبة منذ عشرين عامًا ولم أر زميلاً كما يسمّونه يحمل هذا الاسم... عزيز تقولين؟ وكانت تنظر إليّ مبهورة ومتسائلة ومترجّية وغير مصدّقة... ثم إنّ الشفقة ملأت قلبي من أجلها... ونحن دفّناه بالأمس فقط... لو جاءت قبل يوم أو يومين... قصّة أخرى كما يقولون... وقالت إنّها قضت الليلة في الحافلة لأنّها آتية من آزرو... ليست جائعة ولا تعبانة وتريد أن ترى رجلها فقط... امرأة ناضجة كما بدا لي وصدرها ناضج وممتلئ... وأنا أتذكّره في حفرته وسط الساحة حيث تركته ليلة أمس تحت التراب يتعفّن على خاطره... وسألتها عن عمله ولماذا اختفى ولماذا ظلّت تبحث عنه كلّ هذا الوقت؟ لأنّ الرجل لا يختفي إلّا إذا كان عنده غرض. وحكيت لها عن رجال أعرفهم اختفوا لأنّ عندهم غرضًا... أرادوا أن يغيّروا عتبتهم كما يقولون... وقالت إنّ اسمها زينة... ثم إنّ قلبي لم يعد في محلّه حتى أستمرّ في الكلام نفسه... وهي تنظر إليّ بعينها الباكية... وأنا في خيالي أراها جالسة في البيت بدل امرأتي وبدورها تنتظر المولود السعيد كما يقولون... كما لو تقول أراها بعين أخرى... وهي تضغط بأصابعها على محفظتها الجلديّة السوداء وتقول إنّ المرأة التي دلّتها على المكان... وأنا لا أسمع ما تقول... حتى لا يقول أحد إنّني سمعت... لا أحد يدلّ أحدًا على أيّ مكان... ثم إنّ الوقوف هنا قرب القصبة أو بعيدًا عنها ممنوع. هل تعرفين أنّ الاقتراب غير مسموح به حتى للسيّاح... مع أنّهم كما يقول خالي مضبوطون في لائحة تأتي من وزارة الداخليّة حتى لا يتسلّل الجواسيس والأعداء...

ومرحبًا بك على كلّ حال إذا كنت ترغبين في الزيارة. . . وأقول لك من الآن لن تجدي من تبحثين عنه. . . حتى نصفه. . . كلّ أجنحة القصبة فارغة والحمد لله. . . وأنا قلت لها هذا الكلام عندما ظهر لي أنّ الابتعاد أحسن من الوقوف هنا قريبًا. . . قريبًا جدًّا منه. . . ومن الحفرة حيث رميناه. . . وقد ينهض في أيّ لحظة. . . ولِمَ لا؟ كما قال بابا علي. . . وقد يكون خالي يتلصّص علينا من نافذته ويخطفها لأنّه سيعتقد أنّها جاءت من أجله لتشرب معه الويسكي. . . ولا ينبغي أن نظلّ واقفين هنا. . . لا يوجد عندي حلّ حتى أسعفها به. . . وكما قلت لها لا يوجد عندنا مكان نبحث فيه عن الناس. . . ما عدا الموتى. والموتى يرحمهم الله برحمته. . . هل يمكن قول أكثر من هذا؟ وقلت لها هذا مكان سياحي. والسيّاح يأتون هنا من أجل النخل الجميل في الواحات المجاورة. . . من سطح القصبة يبدو منظره جميلاً في الغروب. . . هل تريدين أن تري منظر الغروب من سطح القصبة وأشياء أخرى كما يسمّونها؟ السيّاح يجلسون على السطح ليشربوا الشاي المغربي الذي نعدّ لهم وهم يراقبون انتشار حمرة الشمس الغاربة على واحاتنا الجميلة. . . وربّما هناك مكان آخر. . . يحمل الاسم نفسه والمواصفات نفسها وبه هذا الرجل الذي. . . ما اسمه؟ عزيز. . . ثم أقول لك إنّ الرجال لا يختفون هكذا لوجه الله. تقولين عشرين عامًا؟ واه؟ بزاف. لا أحد يبحث عن واحد وعشرين عامًا. . . قد يكون تزوّج وأولاده يلعبون في ملعب الجامعة الملكيّة لكرة القدم أو يدرسون الطبّ في بلجيكا أو يبيعون الحشيش في روتردام. . . هاهاها. . .

ابتعدنا إذن وكما لو تقول تركتُ التيّار يقودني. الله وحده قادر على أن يجد حلًّا معقولاً. مرفقي في التاكسي يلامس مرفقها. والخيل تجري في رأسي. . . والساعة تجري. . . وأنا أقول إذا وصلت إلى البيت. . .

وعندي ما يكفي من الوقت لأذهب حتى مكتب الرهان في المدينة. . . ساعتان ذهابًا وساعتان إيابًا. . . وأشياء أخرى. . . ولا شيء أصبح في مكانه كما يقولون. . . وذراعي متّكئة على ذراعها. كما تقول كصديقين مشغولين بهموم الدنيا. . . وأنا أتكلّم معها عن كلّ ما يحدث حولنا. . . امرأتي حامل. . . إيه نعم، ستّ بنات. . . والولد سأسمّيه إسماعيل. . . تصوّري ثلاثة توائم في ليلة واحدة. . . وإذا كان ولدًا. . . وسأشتري كبشًا من السوق هذا الصباح لنذبحه في حالة ما إذا. . . وهي تقول إنّها قطعت كلّ هذه المسافة لترى رجلها. . . ليلاً وبالحافلة. . . بلا أكل ولا نوم. . . وأنا أقول سيجعل الله خيرًا. . . إذا أراد لك الله أن تعرفي أين هو فستعرفين وإذا أراد لك أن تريه فسترينه لأنّ الله لا يضيع هذه الأشياء وغيرها كثير. . . وإن شاء الله. . . وامرأتي في شهرها التاسع. . . كما لو تقولين في نهارها الأخير أو ما قبل الأخير. . . وتميل عليّ عندما يدور التاكسي يمينًا وأميل عليها عندما يميل يسارًا. وأعطف عليها وأتعاطف معها وأقول لها وعسى أن تكرهوا شيئًا. . . ابتسامتها في هذه اللحظة أقرب إلى التسليم بأمر الله وقضائه. . . نهداها كرمّانتين ترتعشان تحت تنّورتها. . . لو كان حيًّا على الأقلّ كنت أخبرتها. . . أو لمّحت لها حتى تعرف. . . وتطمئن قليلاً. . . وتهدأ عن ليّ أصابعها. . . ولكنّه مات والله العظيم رأيته بعينيّ ودفنته بيديّ ولا فائدة من الرجوع إلى الوراء كما يقولون. . . بابا علي وحده رآه حيًّا لأنّه يخرّف. . . لو كان الأمر بيدي لرميته معه في الحفرة نفسها. ولرميت خالي الكومنْدارْ الفاسق والكلبة العجوز وننتهي من هذا الأمر برمّته. وكلّما ابتعد بنا التاكسي أقول سيأتي وقت تنسين فيه هذا المرض الذي اسمه عزيز. . . لا يوجد مرض لا يشفى منه ابن آدم كما يقولون. . . لو فقط تريد أن تسعفني. . . وتتركني أقترح عليها حياة أخرى بلا عزيز ولا امرأة تلد

البنات... الحياة جميلة بلا أولاد ولا بنات... لو فقط تتركني أنام على صدرها وأسمع نبض الحياة كما يسمّونها... وأنسى وأقول إنّ ما حصل لم يحصل... ونبدأ من الأوّل... حياة جديدة... من الأوّل... بلا حفر ولا جثث ولا خالي العربيد الفاسق... وإذا حدث أن تركتها عند بابا علي لبعض الوقت... ليومين أو ثلاثة أيّام... ريثما يدبر الله أمرًا... أو فقط ريثما أعود من المدينة... وأرى أنّ كلّ شيء ممكن هذه المرّة كما يقولون... وعندها سأبدأ من الأوّل...

II وكما قلت

وجدنا بابا علي مشلولاً كما يسمّونه... وهي واقفة كما أنا... وعينه الحمراء الواسعة تدمع ويهبط منها سائل أصفر. مالك أبابا علي؟ وهو كالمصدوم أمام ما يقع له. قال إنّه كان يتوقّع دائمًا أن ترسله الإدارة إلى الحجّ؟ أيّ إدارة؟ لا توجد عندنا ما نسمّيه الإدارة... لا أوراق ولا سجّل فيه أسماؤنا حتى تعترف بنا... وإذا كان بابا علي طبّاخًا فعليه أن يكتب إلى وزارة تهتمّ بالطبخ وإذا كنت دليلاً بصّحْ علي أن أذهب إلى وزارة السياحة... وبابا علي يقول إنّ من واجبهم أن يرسلونا معًا إلى الحجّ... لماذا؟ هل ارتكبتَ ذنوبًا يا بابا علي؟ وهي منذ رأيتها وراء الحافلة لم تجلس إلى الآن... وطلبت منها أن تجلس. وهل تعتقد أنّني سأقول له شيئًا عنها؟ وأنّها جاءت تبحث عن رجلها الذي دفنّا بالأمس؟ قلت له اسمها زينة... هذا اسمها وجرى على لساني بسهولة... والكلمة تقرّب المسافات كما يقولون... وبابا علي تحدث له هذه المصيبة لأنّه لا يذكر الله. كيف سيذكر الله وهو لا يصلّي؟ يعيش وحيدًا كالفأر بعد أن ترك أولاده في تازة. بيتي أحسن من بيته. بيته غرفة طولها خمسة أمتار كما لو تقول غرفتان في واحدة. بالإضافة إلى مطبخ ومرحاض يتقاسمه مع الجيران... والمرأة التي لم

يكن أحد ينتظرها وجاءت حتى هنا من تلقاء نفسها. . . وهذا ليس بقليل بالنسبة لي. . . لأنّه كما لو أنّ الله سبحانه وتعالى قال لي ها هي فرصتك إذا أردت أن تبدّل حياتك مع امرأة طيّبة. . . بخجلها وطريقتها في غضّ طرفها. . . وهو هنا ممدّد أمامنا وفاقد السيطرة على جزئه الأيمن. . . وأنا متأسّف له. . . وبصحّتي وعافيتي. . . بغضّ النظر عن ألم في المفاصل. . . لا أقولها لبابا علي حتى أتفادى شماتته كما يتصوّر. . . فقط عقلي هو الذي ليس معي. قبل الثالثة إذا أنا جريت ووصلت قبل الثالثة إلى الحاجب أو ميدلت. . . وعندي في جيبي الأرقام الرابحة والتي. . . كما يقولون. . . كلّ شيء بأجله. . . بغضّ النظر. . . هذا نهار جميل لا يشبهه نهار. . . عشرون عامًا وهي تنتظر حتى تنضج وتأتي حتى باب القصبة لتقول إنّها تبحث عن رجلها. . . وأنا أقول إنّها لا تبحث عن رجلها. . . امرأة ضائعة وتبحث عمّن ينقذها. . . وأنا كما لو كنت أسعى لإنقاذها. . . وضعني الله في طريقها حتى أمنحها الحياة التي تبحث عنها. . . ودون أن أسألها من أين جاءت ولا كيف قضت سنواتها العشرين. . . مستعدّ لأقبل بها كما هي. . . بذنوبها وأفعالها الطائشة. . . وهل أتركها عند بابا علي كواحدة تنتظر أن يعود رجلها من العمل؟ أذهب إلى الحاجب أو ميدلت أتخلّص من الأرقام التي تلعب في رأسي وأذهب إلى الحمّام ثم إلى الحلّاق. . . كما لو كانت تنتظر فقط عودتي لنبدأ شيئًا جديدًا. . . بلا مولود ولا إناث ولا ذكور. . . والمرأة كما أقول تبحث عن الاستقرار. أكل وبيت تأوي إليه. . . وإذا كان مكتوبًا لها أن تستقرّ معي في ميدلت أو الحاجب. . . أو مدينة بعيدة حتى لا نرى القصبة. . . والرجال المدفونين فيها. . . الله سيجد لنا حلًّا في الوقت المناسب. . . لا قبل ولا بعد. . . وقع النصف على نصفه المفقود. . . وبابا علي ينظر إلينا بنصفه غير المشلول. . . لو أنّه قال

باسم الله الرحمٰن الرحيم عندما اعتقد أنّه رأى بالأمس الميت يتحرّك لكان أمره انتهى بسلام... ولكنّ الله لم يجر هذه الجملة على لسانه لأنّه لا يحبّه... الرجل هو الذي يبقى ممسكًا بزمام الأمور في كلّ الظروف... بابا علي لن تقوم له قائمة بعد أن رأى الميت حيًّا كما يقولون... بابا علي ضيّع الاتّجاه... بعد أن دفنّا الرجل الذي تبحثين عنه... ثم عندما خرج يجري في الليل... وهل سبق لك يا زينة أن نسيت ميتًا دون دفن وفي الغد تجدينه بلا بطن والرأس موحل والعينان لا وجود لهما؟ نعم حدث لنا كما يقولون هذا العجب... ولكنّه الماضي... وبعون الله سأصبح واحدًا آخر... وبدل الفم حفرة مليئة بالتراب. وما تبقّى من الجثّة منهوش من الرأس حتى القدمين. والله العظيم... وأنا محظوظ جدًّا لأنّني لحظتها قلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... لولاها لأصبت كما أصيب بابا علي... والعظام بارزة كالأعواد وقد تدلّت منها بقايا قطع لحم التصقت عليها بقع من الدم اسودّت بفعل التراب والعياذ بالله... بابا علي لن ينطق أبدًا... لأنّ الإنسان عندما يكون مزيان مع ذاته وعائلته لا تقع له هذه الأشياء... ولن أتركها معه إذا كان سينطق... ولا أحد يجزم بأنّ الله أخرس لسانه نهائيًّا... لأنّ البشر إذا كان نصف عقله الأيسر مشلولاً لا تعرف ما يدور في نصف عقله الأيمن... كما حدث لبابا علي الذي هرب فمه جهة الأذن والعين حمراء وتدلّت واتّسعت وتنظر إلى جهة أخرى... يده هزلت ونامت جنبه جامدة لا تتحرّك... ونحن كما لو نكون جئنا لنواسيه نصف ساعة في زيارة ودّيّة... ريثما يعتقد أنّنا صديقان مخلصان وأنّنا لم نتخلّ عنه في الملمّات إلى آخره كما يقولون... بعدها سنعود إلى بيتنا في ميديلت أو الحاجب... وأخرجتُ من تحت سريره رقعة الضامة وقلت له العب يا بابا علي... هاهاها... بماذا

سيلعب وأصابعه متخشّبة... والجزء المختفي تحت اللحاف لا يعطي الانطباع بأنّ أعضاء آدميّة ترقد هناك... وقلت له يدك اليسرى يا بابا علي ما زالت سليمة وتستطيع أن تحرّك بها البيادق وتحمد الله لأنّها لم تتخشّب كاليد اليمنى... ووضعت الرقعة بيننا... حوّل بابا علي نظره جهة الباب المغلق. قلت له هل أغلق الباب أبابا علي؟

نهضت وأغلقت الباب. فأصدر صوتًا غريبًا. كالأنين. أعدت فتحه وجلست على السداري جنب زينة ورتّبت القطع. فوق المربّعات... بقي ينظر إلى الباب المشرّع كما لو كان يتوقّع أن يظهر أمامه الرجل الميت ليطالبه بالكفن كما يسمّونه... وأنا لم أر ميتًا ولم أر كفنًا والحمد لله الذي أخرس لسانه حتى لا ينطق أمامها... وهكذا كما يقولون ما الذي جاء بي عند بابا علي وأمامي أموري العاجلة... وهو مستمرّ بإشارته جهة الباب. لا أحد جهة الباب. لهب الشمس وصرير الحشرات ولا شيء آخر. وأنا لا أعرف بالضبط ماذا يريد بابا علي. ربّما لا رغبة له في اللعب. لا تريد أن تلعب يا بابا علي؟ هل أطلب من خالي أن يؤدّي لك ثمن العمرة؟ وهذه المرّة صاح بصوته المائل إلى أسفل كما يقولون. سمعته يقول هل تعتقد أنّ الله سيغفر لنا. إذا لم يذهب إلى الحجّ فكلّ ما قام به سيتبعه إلى الآخرة. هم السبب. هم سبب كلّ هذا الذي يقع لنا يا بنغازي. الرجل الذي... وأنا صرخت في وجهه حتى لا ينطق باسمه: ماذا يغفر لنا يا بابا علي؟ هل ارتكبنا شيئًا حرامًا يعاقب عليه ربّنا؟ هل قمنا بشيء غير مذكور في الكتاب يا بابا علي؟ وأشياء أخرى... حتى يعود إليه عقله... ونحن خرجنا في تلك اللحظة... والمرأة لم تسأل ما الذي أراد بابا علي قوله. نهضتْ وتبعتني... ولا أحد يحبّ بابا علي... هذا هو السبب... هل نحن من جاء بهم إلى القصبة؟

تركتها واقفة عند الباب وعدت إلى بابا علي. . . حتى أعرف أنّني أشفقت عليه. . . وأنّني تغيّرت بسبب هذا الشعور الجديد. . . والقلب الجديد الذي يدقّ في صدري. . . لم نجئ بأحد ولم نقتل أحدًا يا بابا علي. . . وأنت بعون الله ستنهض وتستأنف حياتك ولا داعي لأن تعود إلى القصبة لأنّه لم يعد يسكنها أحد إلى آخره. . . والله سيتكلّم مع الآخرين. كلّ شاة تعلّق من كراعها كما يسمّونها. هل أنت مرتاح يا بابا علي الآن لأنّني شرحت لك؟ صوته مجرّد صفير. لم أعرف أنّ لبابا علي صوتًا يصفّر. مالك يا بابا علي؟ ربّما إنّ بابا علي فقد صوابه. هل أدفع بالرقعة والبيادق تحت السرير أم أتركها أمامه لعلّها تساعده على استرداد صوابه؟

III البيت كما تركته

منذ خمسة عشر يومًا وأكثر... ولا شيء يقول لي وللناس أجمعين بأنّها وضعت ما في بطنها... لا زغردة ولا مبارك ومسعود... ولا رائحة المرق بالدجاج والزعفران كما يسمّونه... وزينة واقفة عند عتبة الباب... البيت بيتها... لا يوجد لحدّ الساعة بيت آخر... فيما بعد... عندما نستقرّ في بيتنا الجديد كما يقولون... في الحاجبْ أو ميدلْتْ أو أيّ بيت تختارين... ولأوّل مرّة أقول لها زينة ادخلي... إذا كان عقلي ينفعني أرى أنّني فوجئت وأنا أسمع الاسم على لساني مرّة أخرى... وكانت تنظر إليّ بعنيها المتوسّلتين وتنظر إلى امرأتي الحامل على الحصير تبلّل جبهتها بالخرقة كما يسمّونها. والتلفزيون في البهو يحكي قصصه لبنتيَ رقيّة وفتيحة... وغيرهما لا أحد... وقلت إنّ البيت فارغ هذا الصباح بدون ضجيج البنات... وبنتاي قبّلتا يدي وقالتا إنّ أخواتهنّ عند جدّتهنّ... ثم قالتا إنّ أمّهما تنتظر ولدًا... وامرأتي تتوجّع في قاع الغرفة الطويلة وترسل باتّجاهي نظرات مطمئنة... وأنا لا أثق في نظرات النساء... وتقول لي بعينيها إنّه سيكون ذكرًا... وأنا لا أثق في عيون النساء... وفي هذه الساعة بالذات لست مهتمًّا... لأنّني سمعت الاسم في أذني مرّة ثالثة ورابعة... زينة... زينة... وقلت

لامرأتي هذه زينة تبحث عن رجلها. قلتها لأنّ الاسم بقي في فمي. وكانت زينة ما زالت واقفة في مكانها تضحك مع البنات قرب باب الغرفة... والممثّلون في التلفزيون يضحكون... يفرحون بالوافدة الجديدة على طريقتهم ويهيّئون لها مكانًا خاصًّا بينهم... وعندما عدت إلى البهو عادت زينة معي وجلستْ... وبقينا نرى امرأتي من النافذة... كما لو كنّا نرى امرأة أخرى بعيدة... في مستشفى ما... في جناح ما... ولا علاقة لنا بها... هي وكلّ الأشياء التي في الغرفة كما يسمّونها... كأنّما نسيتْ السبب الذي من أجله جاءت... وهذا أمر حسن... وفأل خير كما يقولون...

ومددت لها كأس شاي وبعض الحلوى... لا رغبة لها ولا شهيّة... إنّها فقط جاءت تبحث عنه... وما دام ليس موجودًا... إنّها ليست المرّة الأولى التي تجد نفسها هكذا بعيدة... وربّما حان الوقت لتعود إلى آزرو كما يسمّونه... سيجعل الله خيرًا... أمّا الآن فالأفضل لك أن تستريحي بدل التفكير في الرجوع... هذا مكانك ريثما أعود... تأكلين لقمة وتنتظرين عودتي ريثما يدبّر الله أمرنا معًا... وبدل أن تتحرّك استمرّت عينا زينة تتابعان المسلسل. وهذا أيضًا أمر حسن... خرجتُ وأغلقت الباب خلفي... ومرّ أمامي محتفلون ومحتفلات بلباسهم الملوّن وعيونهم المكحّلة وكلّ الأشياء الأخرى التي تقع في موسم الزواج... ولماذا لا نتزوّج وسط الموسيقى والرقص ودقّ الدفوف... وكما يقولون هذه مناسبة لا تعوّض... وهي جالسة تتفرّج على المسلسل وتنتظر عودتي سالمًا غانمًا... وكما قلت إنّها في طريقها إلى أن تنسى... ما الذي سيقع للبطل في نهاية الحلقة... أو في نهاية المسلسل... كلّ الوقت أمامنا... وقلت الحمد لله إنّ امرأتي لم تضع لا بنتًا ولا ذكرًا... والبنات يعبرن الزنقة ضاحكات... وفرق

المغنّين والمغنّيات تقصد الساحة... وحول أعناقهنّ ورود حمراء وبيضاء... وزغردات طالعة من كلّ ناحية... بلا وجع ولا بنات ولا مولود سيأتي... لأنّني كما يقولون لم أعد أرغب فيه لا ذكرًا ولا بنتًا... وكما لو تقول إنّ الله وضع حدًّا... وضع في طريقنا موسم الزواج كالإشارة... خرجت وأنا مطمئن إلى أنّها هدأت... وربّما لم تعد تفكّر فيه. والخير كلّه أمام... وجودها في البيت فكرة حسنة... ريثما أعود... وكانت هذه المرّة واقفة ومستعدّة للذهاب إلى أيّ مكان... وبدا لي أنّه لم يعد يقف بيني وبينها شيء... وكما يقولون نزلتُ عليها من السماء لأصلح خطأً كان بسبب رجل تركها لمدّة عشرين عامًا بلا معيل... من سينفق عليها؟ من سيحميها من برد الليالي وحرّ الأصياف كما يقولون؟ كأنّما وضعني الله في الوقت المناسب وفي المكان المناسب. ما عليها سوى أن تنتظر عودتي كما يقولون... الأرقام في جيبي والخيل تستعدّ لتدخل الحلبة... والراقصون والراقصات في الساحة يعدّون العدّة لليلة كبيرة سيتزوّج فيها الجميع بالجميع كما يقولون... والله سيجعل خاتمتها خيرًا كما يسمّونه...

IV وهذا أمر لم يحدث لنا من قبل.

لم أجد البنت التي قضت الليلة مع خالي كي أعيدها إلى أهلها كما يقولون. . . هذا عمل آخر عليّ أن أقوم به على كلّ حال. . . وهو الذي أرسلها مع التاكسي. كأنّما أعطاني وقتًا إضافيًا لأتفرّغ لشؤوني. . . بدلاً منها وجدت أمام باب القصبة سيّارات كبيرة الحجم. . . كما لو تقول دبّابات. وهي ليست غير سيّارات من نوع غريب. . . وسيّارة إسعاف أيضًا. . . وقال خالي إنّ لجنة أميركيّة عالية المستوى جاءت لتتسلّم أحد رعاياها. وتقول اللجنة إنّه مع جماعة المسجونين. . . ولأنّ جدّه كان قد سافر إلى أميركا في رحلة بحث وعاشر أميركيّة فيبقى دائمًا محسوبًا عليهم. . . لا أنا ولا خالي نفهم الأميركان. . . وإذا سمعتَ اللجنة الأميركيّة تعتقد أنّها أميركيّة فعلاً. وهي ليست كذلك. الذين أرى أمامي مغاربة. كتيبة من الضبّاط والكتّاب السامين بقاماتهم الطويلة وشعرهم الأشقر. . . بالكسوة العسكريّة والأشياء الأخرى. . . أمّا اللجنة كما يسمّونها فهي رجل قصير القامة ونحيف كالعود ووجهه مبرقع بالنمش كالغربال وعلى عينيه نظّارات غليظة كجبّانيتين. . . ويلبس شورتَ كاكي وقميصًا كاكيًا كما لو كان ذاهبًا لصيد الفراشات. وهي لجنة أميركيّة عالية المستوى لأنّ الضبّاط السامين المغاربة كما يسمّونهم يحيطون

بالرجل القصير ويهزّون رؤوسهم عند كلّ كلمة ويضحكون عند كلّ إشارة. هل هذه هي اللجنة التي تطالب بالأميركي؟ وقال خالي هل تعرف من أين جاء الرجل القصير؟ من الكونغريس أو الكونوغريس. وهو يساوي البرلمان عندنا. إذن فهو لا يساوي شيئًا. ونحن ليس عندنا لا أميركي ولا حتى نصف أميركي مسجون... نحن لا نسجن الأميركيّين... والرجل اللجنة جالس خلف مكتب خالي ويمازح الضبّاط المغاربة بالأميركيّة وخالي الذي لا يفهم الأميركيّة قرب النافذة يحرّك رأسه كما لو كان يفهم ويضحك والأميركي يرى أنّه لا يفهم فيتكلّم معه بالدارجة وهذه المرّة يحرّك خالي رأسه كأنّما تذكّر أنّه يفهم. واقترح الضباط أن يقوموا بزيارة للقصبة حتى يرى الكونغورس الأميركي تراثنا المجيد. وأنا اعتقدت أنّ دوري كدليل قد جاء... ولكنّ الكونغرس اعتذر... لا وقت لديه يضيّعه... واقترب منّي خالي وخرجنا إلى السطح...

نحن وحدنا الآن... وقال لي أين يوجد الكناش؟

أيّ كناش يا خالي؟

منذ جاءت اللجنة وهو يبحث عنه.

أيّ كناش يا خالي؟

الكناش الذي نسجّل فيه أسماء معتقلينا. إذا كان عقلي ينفعني يا خالي فقد مزّقناه كما تقول حتى لا يبقى لهم أثر. كان بابا علي يسجّل أسماء الموتى في كنّاش خاصّ. ولكنّك يا خالي مزّقته. أنا عسكري. لا أعترف بالكتابة قلت لنا يا خالي... وأنا متّفق معك كما يقولون... ومنذ ذلك النهار ونحن ندفنهم ولا نسجّلهم. أنا لم أفكّر فيهم أبدًا لا ميتين ولا أحياء. لأنّنا في اليوم الأوّل قلت لنا يا خالي هؤلاء الملاعين

جاؤوا ليموتوا هنا... بلا كنّاش والسلام... وأنا لا أفهم غير هذا...

وأفهم أيضًا خالي الذي لا يشتري لهم أكلاً بمال الدولة... وأحيانًا لا أفهمه لأنّه يبني المنازل بهذا المال... أحياء كاملة يبنيها في مكناس ولا يعطينا من مال الدولة شيئًا... ما دمنا كما يقولون في السفينة نفسها... ولكنّها ليست السفينة نفسها عندما يتعلّق الأمر بالمال... أنا لا أحبّ أن أفكّر كثيرًا في هذه الأمور... أتسلّى فقط بالذكريات التي ستأتي. وهذه المرأة التي جاءت في هذا الوقت بالذات لتبدّل حياتي تبديلاً جذريًا. أتمنّى أن يكون ما أفكّر فيه جيّدًا. ستحتاج إلى بيت يُؤويها. والمال الذي سأربح سيكفي لنعثر على بيت لائق في ميدلت أو الحاجب... وأترك خالي مع الأميركان وأتمنّى أن يأكلوه حيًّا... إن شاء الله الرحمٰن الرحيم...

وقال خالي سيرْ جيبْ ليهم لْميركاني دْيالهم. ولم يخضرّ أو يحمرّ له وجه كما اعتقدت.

ومع ذلك فلم يعد خالي الذي كان... خالي الذي لم يفتح قصبته لوزير الداخليّة بطوله وعرضه لأنّه لا يأخذ الأوامر سوى من الملك ها هو يفتحها أمام رجل لا يتعدّى طوله شبرًا واحدًا؟ لأنّه أميركاني وجاء من الكونغرس ويلبس سروالاً قصيرًا. وأنا لا أقول له لا أثر لهم يا خالي. لا أقول له ماتوا جميعًا. بالكنّاش أو بدونه. أنزل إلى الساحة لأنبش التراب... وهكذا لأوّل مرّة منذ أمس يحدث لي أن أتذكّر الخاتم... وأعرف أنّ الله وضع في طريقي كلّ ما أنا بحاجة إليه. وأتذكّر أيضًا أنّني لم أستطع انتزاعه من إصبع الميت بسبب الليل والكلبة وبابا علي الذي هرب وكلّ الأشياء الأخرى... وإذا أنا بعته وأضفته إلى المبالغ الأخرى التي سأربح... وأرى أنّ الله ينظر إليّ بعين الرحمة

كما يقولون... وزينة التي تنتظر... وأرى أيضًا أنّني لن أخيّب ظنّها... وسترى أنّها فعلت خيرًا بمجيئها... ولا حول ولا قوّة إلّا بالله...

الحفرة والجير والتراب المقلوب... أمّا هو فلا أثر له في الساحة... هذا ما أقول دائمًا... لا يغلق الله بابًا حتى يفتح أبوابًا... الرجل كان بالأمس ميتًا وها هو لم يصبح لا ميتًا ولا حيًّا...الحفرة ترابها مقلوب هكذا وجدتُها في الساحة والكلبة لا وجود لها... باسم الله الرحمٰن الرحيم... هل سرطته الأرض؟... أم انتقل إلى حفرة أخرى؟

وفي الممرّ أشعلت القنديل حتى أراه كما يقولون وقد عاد من حفرته... بجيره وترابه... والباب مفتوح... وهو جالس وغير ميت... وامرأته التي تنتظره في بيتي... وهو بالأمس فقط كان ميتًا كما ينبغي... ويصبح الصباح وها هو حيّ لأنّ امرأته جاءت تسأل عنه... سبحان الله... وقلت ماذا أرى؟ لم يكن ممدّدًا على الدكّة... جالس يصوّب جهتي عينيه القبيحتين... لا أحبّ عينيه... أطفئ القنديل وتبقى عينه تشعّ كواحد لا يفكّر أنّه مات قبل ساعات... وعينه لا تساوي في السوق أكثر من أربعة آلاف درهم. اليمنى كاليسرى. أربعة آلاف درهم مقابل عين واحدة... هذا هو ثمنها في السوق دائمًا... وهي جالسة هناك تتفرّج على المسلسل وتنتظره. وازداد غضبي كما نقول. وليس هذا وقت الكلام عن العيون. وأنا لا خاتم عندي ولا مال ولا عين ولا هم يحزنون... الرجل يبدو في كامل عافيته بعد عشرين عامًا من العذاب... كما لو كان رمّم كلّ أطرافه في نصف ليلة وجلس يستريح. بدأ قلبي يخبط بعنف...

وكما يقولون تجمّعت في قلبي كلّ ضغينة الليل السابق بحرّه وعرقه

ولعنته... ولا حول ولا قوّة إلّا بالله... كيف أستولي على الخاتم الذي تركت عنده؟ وبابا علي الهارب في نصف الليل. وأعصابي شعرت بها توتّرت وأنا الذي كنت أقول لن يصبح الصباح حتى نكون قد ارتحنا منه. لو بعت عينيه لما تركت له الفرصة ليراني... أربعة آلاف درهم مقابل عين واحدة... ألف درهم لبابا علي حتى يشلّ نصفه الثاني. وألف درهم لخالي حتى يعرف أنّه لا يفكّر فيَّ كما أفكّر فيه. وألفان بمناسبة المرأة التي جاءت من آزرو في حافلة الليل... بالإضافة إلى ثمن الخاتم... والأشياء اللذيذة التي ستأتي معه... كلّ هذا يبعث على الفرح... هل أنتِ بخير يا زينة؟ وهل كان بابا علي هو الذي سيعطيني ألف درهم لو كان هو الذي باع العين؟ أنا الذي يعطيه دائمًا ألفًا وراء ألف ولم يشكرني ولو مرّة واحدة. ها هو في بيته يعاني من الشلل. فمه مال حتى لامس أذنه. ضربه الله بالشلل في فمه لأنّه جاحد. لن أزور بابا علي بعد اليوم. سيموت وحيدًا كالكلب. لماذا لا يموت كالكلب؟ هل هو أفضل من كلّ أولئك الذين رمينا في حفر الساحة أنا وإيّاه؟ أفهم نوايا البشر حتى قبل أن تكون... كلّ ونيّته... وعندما تكون نيّته سيّئة فإنّها تظهر على وجهه...ولكنّني بالأمس تركته في حفرته... وها هو عيناه المصرّتان على وقاحتهما... أعرف هذا النوع من البشر. قال لنا خالي لا تثقوا فيهم... وقلت له وأنا أطلّ من الباب... الأميركان في انتظارك. وفتحت الباب كاملاً. لا بأس أن يتنفّس هواء نقيًا بعد أن طالب به الأميركان: نوض أ السي عزيز... وهذه المرّة قلتها له بأدب حتى يفهم أن ليس بيننا عداوة. وأنّنا إخوة في الدين والملّة والنسب كما يقولون. أم تريد أن تموت هنا على خاطرك؟ ومن الأحسن له أن يموت. ومن الأحسن له أن يرحل إلى أميركا أو البرازيل أو أيّ جائحة أخرى.

ثم تذكّرت الخاتم... عندما رأيته يبرق في إصبعه الممدودة نحوي... الخاتم الذي تركت في جيبه ولم أعثر عليه وأنا أنبش تراب الحفرة... ثم أسمعه يقول خوذو. الخاتم ماشي ديالي... وجدته في الجدار... سبحان الله... ها هو الرجل بالأمس يعطيني الخاتم ولا آخذه... وها هو يعود إلى زنزانته ينتظر أن أعود لآخذ الخاتم الذي... وهذه واحدة من المعجزات... وصلّيت ركعتين لأشكر الله على هذا الشيء كما يطلقون عليه. نحن كباقي العباد. نأكل القوت وننتظر الموت. وأنا أتوقّع كلّ شيء من هذا الملعون. حتى أن ينهض من جديد ويعود إلى حفرته. هؤلاء الشياطين قادرون على كلّ شيء. وإلّا فما كانوا ليكونوا هنا... وأنا لا أدخل لآخذ الخاتم كما يقولون مع أنّه يلمع في إحدى أصابعه... حتى لا أقع في شركه... أو الأميركان... أو شرك غيرهم... وهذه نعمة أيضًا... حياتي مستقيمة من هذه الناحية... ليس هناك ما يؤخذ عليّ... أؤدّي صلواتي الخمس في أوقاتها... وأصوم رمضان... وجزءًا من شعبان... وأحافظ على التقاليد... وقريبًا سأصلّي كلّ خميس وكلّ جمعة... عندما نكون في الحاجب أنا وزينة... في بيتنا الجديد... إذا أراد الله أن يقول لشيء كن فيكون... وإذا كان الأميركان قد جاؤوا حتى هنا للبحث عنه فلماذا لا يذهب معهم؟ ولا بدّ أنّه خرج من حفرته ليذهب معهم. من سيقبل عليه من غير الأميركان؟ وهذا ما قلت لخالي... عندما أخذت الخاتم وخرجت أجري حتى لا يرجع في كلمته... ورأيت اللجنة الصغيرة القصيرة ذات النظّارات الغليظة تهزّ رأسها وتقول بالأميركيّة كود. فيري كود... قلت لها الأميركي عثرنا عليه... إنّه على ما يرام... ولا ينتظر سوى الأمر بالخروج الذي سيوقّع عليه خالي في الحين... وأشياء أخرى من هذا القبيل... كما يقولون...

V وهذه المرّة نسيت أيضًا

هل أغلقت الباب أم تركته مفتوحًا. عندي دائمًا مشكلة الباب... أذهب دائمًا حتى البيت وأعود لأرى ما إذا كنت أغلقت الباب أم تركته مفتوحًا. مشكلة والله العظيم. وأنا في التاكسي متوجّه نحو ميدلت... والأرقام في جيبي... والخيل كلّها في رأسي بأسمائها وأوزانها... وكما يقولون بعد أربع ساعات يكون كلّ شيء قد تغيّر... ولن أعود إلى القصبة... وليفعل خالي مع قصبته ومع معتقليه ما يحلو له... لأنّنا لن نتتهي أبدًا من هذه القصّة... ظلّوا يأتون لمدّة عشرين سنة وسيأتون لمائة سنة أخرى... وأنا لن أتحمّل ذنوبهم بعد اليوم... وكما يقولون جاء اليوم الذي يفتح فيه ابن آدم عينيه ويرى... وهذا يوم كبير... وقلبي كما يسمّونه يخفق لأوّل مرّة خفقانًا خاصًّا... ولا داعي لأن تذهب حتى مكّة ليغفر الله لك... تقولها بقلبك والسلام... وفي ليالي الشتاء الطويلة المقبلة ستكون زينة جالسة معي وتنصت إلى حكاياتي العجيبة غير مصدّقة... ولم يعد مهمًّا أن تضع امرأتي بنتًا أو ولدًا. كلّ هذا نسيناه... طلّقناه... سأقول لها قبل أن أطلّقها... الطيّبون للطيّبات والخبيثون للخبيثات... لتفهم ما معنى ألّا تُخرج من رحمها غير ما شاءت... وبعدها سأذهب إلى البادية لأنّ زينة تحبّ البادية كما

يبدو. . . وتحبّ ليالي الشتاء الطويلة في البادية. . . ولا حول ولا قوّة إلّا بالله. . . أو كما يقولون في التاكسي تذكّرت الباب مرّة أخرى. . . . لن أستطيع الرجوع على أيّة حال لأنّ الأميركان جاؤوا. . . وسيأخذون معتقلهم معهم. . . والسلام. . . وغدًا إن شاء الله كما يقولون أليس الصبح بقريب أو ما شابه ذلك. . . والجير الذي كنّا نرمي عليهم لم يعد له من دور. لأنّ الخشية الأخيرة نفذت مع مجيء اللجنة الأميركيّة الصغيرة. . . وهذه أيضًا علامة من علامات هذا النهار. ولكن مع ذلك أقول ليس أقبح من ألّا يعرف ابن آدم هل ترك بابه مفتوحًا أم أغلقه. مشكلة والله العظيم. . . وعندما نزلت من التاكسي. . .وعندما دخلت عند الحلّاق وجلست على الكرسي. . . هكذا بلا مقدّمات انتهى كلّ شيء. . .بضربة واحدة. . . طاف. . . وانطفأ الضوء. . .

١٨

رواية عزيز

(الثانية عشرة زوالاً)

I أراها تنزل مع شلّال الضوء

المتسلّل من الكوّة، ما بين جذوع النخل التي تشدّ طين السقف. كأنّما تنزل مع ماء. انتظرتْ ما يكفي من الوقت حتى انقشع الليل وتحوّلت الظلمة إلى نور. ثم على ما تبقّى من مساحة السقف الغارق في عتمة هادئة أراها تسير. أو تتنزّه كما في عرصة هوائيّة. ناشرة شعرها مفردة يديها، محلّقة. شعرها كما كان، قمحي اللون. تحيطه هالة من الضوء الذي جلبت معها من الخارج. وجسدها النحيف يتمايل مع تمايل الثوب الأبيض الشفّاف. أغمضت عيني. نهداها تحت الثوب تضحكان. مددت لها يدي ولم تنزل من عليائها كما توقّعت. جلستْ، تربّعت فوق، في الهواء. تطلّ عليّ. أو ربّما كانت تستريح من عناء سفر طويل ومضن. جلستُ على إسمنت الحوض أتأمّلها. وأراقب خطوتها التالية. لم تكن زينة تحبّ الطيران والتحليق في الأجواء العليا. ولكنّها كانت تحبّ الأرجوحة، العجلة الكبيرة في المعرض الذي استقرّ مرّة في الساحة. أخذتها إليه وأخذنا مقعدينا في العجلة الهائلة. لم أهتمّ بها وهي تدور. عندما تحضر زينة يغيب كلّ شيء. لا الأرجوحة ولا المحلّقون معنا ولا غيرهم يستطيعون أن يلهوني عنها دقيقة. كنت أنظر إلى شعرها المرفرف في الهواء. وإلى ابتسامتها وهي فرحانة بالدوخة

التي تحدثها العجلة وهي تدور. وتطلق صيحة ما بين الجذل والخوف كلّما هوت العجلة إلى الأسفل. أحبّ زينة. أحبّ كلّ شيء في زينة. فرحها فرح فتاة في الخامسة عشرة. وأجدني أبتسم دون أن أعرف وأنا أقول لنفسي إنّني محظوظ لأنّني التقيت زينة في وقت أنا في أمسّ الحاجة فيه إليها. كأنّما لم أعمر بار اللقلاق لشهور إلّا لأعثر عليها ذات صباح. حضورها بجانبي كاف. زينة أوّل بنت أتعرّف عليها. ولن تملأ عينيّ فتاة أخرى بعدها. عثرت على ما كنت أبحث عنه. وما أبحث عنه هو شيء يشبه دوخة هذه الأرجوحة. ثم أرى بعد أن دارت العجلة دورة أخرى إنّني لست أنا الذي يبتسم. ابتسامتها هي التي تطبع على وجهي وشفتي نسخة منها كلّما أشرقت جنبي. جسدي لا يفعل غير أن يعيد إنتاجها دون إرادة منه. أحمل في قلبي جنّة صغيرة اسمها زينة. وهذا أمر يحزنني أيضًا. قلت سأشتري لها هديّة عندما نغادر المعرض. لم تسمعني. جوربان من النيلون أو محفظة يد من القيساريّة. ولم تسمعني هذه المرّة أيضًا. ولم لا نذهب إلى السنيما لنتفرّج على عبد الحليم حافظ وهو يغنّي قل لي حاجة أيّ حاجة. وصحت بأعلى صوتي سأشتري لك زجاجة عطر من نوع ريف دور. وأخيرًا قلت مع نفسي مع الريح والدوخة والعجلة التي تدور لا تسمع ما أقول لها. واستمررت ألاحق فرحتها.

لماذا لا تنزل من عليائها؟

وأعود إلى السقف. إذا بها اختفت لتظهر هذه المرّة قرب الباب. وبضفيرتين مدلاتين على صدرها. رزينة، ضفيرتاها على صدرها تصعدان وتهبطان على إيقاع انتظارها المتلهّف. وأنا لا أطلب منها أن تدخل. وهي تنظر جهة المغسل ساهمة. كأنّما تفكّر. لا أرى تعابير وجهها لأنّها في العتمة. لا أتحرّك. أغمض عيني. أتظاهر بالنوم حتى

تطمئنّ وتأتي. لا ينبغي أن يزعجها المكان وروائحه. من الأحسن أن تبقى عند الباب لحظة ريثما تتعوّد. وأنا في هذه الغفوة اللذيذة التي أرى فيها لأوّل مرّة أشياء جميلة أسمع الصوت يقول نوض...قم... أفلتتَ منها يا... الأميركان فكّوكْ يا ولد الزانية...

II كلّ أولئك الذين يضحكون

في المقصف لأنّني لا أحبّ النزول من الطائرة كلّما صعدت إليها. أسمع ضحكهم في أذني يدوّي: كيفاش كتْدير أعزيز؟ تحسن الصعود ولا تحسن الهبوط؟ وأنا صامت لا أردّ. وأحسد القبطان حمّودة لأنّ له رأيًا في كلّ موضوع. كيف استطاع أن يتعلّم كلّ هذه الأشياء؟ ومن أين يأتي بكلّ هذه المعلومات؟ هل كبرتُ في بئر؟ أحيانًا عندما أجد موضوعًا هامًّا في جريدة من الجرائد أحفظه لأقرأه على زملائي عند الحاجة وعندما أكون بينهم أكتشف أنّ ما حفظت ضاع واندثر كغبار ذرته الريح. وحتى عندما يكون لي رأي لا أعبّر عنه خشية أن أثير سخرية واحتقار الذين من حولي. لأنّ هناك القبطان حمّودة الذي سيعترض. ويقول من أين تأتي بهذا التْخرْبيقْ؟ القبطان حمّودة صديقي ويقول ما يحلو له. يقول الرأي ونقيضه دون حرج. يستطيع أن يحوّل الأبيض أسود والأسود أبيض.

كلّ هذا اختفى ذات يوم عندما حطّ عليّ الكولونيل يده برفق، ولم يعد له أثر خلال الشهور الأخرى التي تلت. مرّات عديدة رآني الطيّارون صحبته في المقصف نشرب معًا قهوة وندردش. كلّ الطيّارين بما فيهم صديقي حمّودة. يسألني الكولونيل، وهم ينصتون، عن أهلي وهل أنا

متزوّج. وأقول له لا. ثم أقول له تعرّفت منذ أيّام على فتاة اسمها زينة. (عندما التقيتها بدا لي أنّ فكرة الزواج ستنقذني ممّا أشعر به طول الوقت من إحباط مستمرّ. بيتٌ آهل وشخص أتحدّث إليه وأبثّه همومي). وقال الكولونيل إنّه سعيد لسماعه هذا الخبر (وهم ينصتون) وطلب منّي أن أقدّمها له. ثم تغدّينا أنا وزينة في بيته. نعم، في بيت الكولونيل رئيس القاعدة الجوّيّة بكلّ من فيها.

مرّة ونحن نشرب القهوة قال لي إنّه يفهم تعاستي وتعاسة الشباب مثلي لأنّنا نعيش في عالم لا نملك فيه شيئًا. نشقى ليسعد غيرنا. أمن أجل هذا خلق الله الإنسان وشرّفه؟ وأنا لا أفهم كثيرًا ما يقول وما يرمي إليه. ولكنّني سعيد به. في فراشي بكيت من السعادة وتمنّيت أن أكون في مستوى ثقته. واستدعاني إلى منزله مرّات أخرى وتعشّيت معه وهو بين أفراد عائلته. قلت للطيّارين في المقصف إنّ الكولونيل هو الإنسان الوحيد الذي فتح لي بيته وقلبه وأسرّ لي بأشياء. وهم فاغرو الأفواه يبتلعون كلّ كلمة تخرج من فمي. نعم، أسرّ إليّ بأشياء لا تُقال، منها مثلاً أنّه كان وهو شابّ يرغب في الانضمام إلى الحزب الشيوعي. وأنّه وصل حتى الڤيتنام بعد الحرب الثانية والتقى هوشي منه شخصيًّا. وأشياء أخرى ربّما ما كان لي أن أقولها لأنّها أسرار بيني وبينه.

وقد لاحظت ونحن في الشارع نسير جنبًا إلى جنب أنّ لنا أنا والكولونيل القامة الطويلة نفسها، الفخورة. أنا والكولونيل ننتمي للمنطقة نفسها، تقريبًا. الكولونيل فاسي، بدين ولا يضحك أبدًا. ويحدث له أن يقوم بمقالب تبقى حديث القاعدة الجوّيّة على مدار السنة. ولست أدري هل كان يفعل هذا دائمًا أم فقط عندما أكون معه. وأنا أقول إنّه يفعل ذلك لتزداد علاقتنا قوّة. مرّة جاءت امرأة تسأل عن رجلها، زميل لنا في القاعدة. استدعاه الكولونيل وقبل أن يتركه مع

زوجته قال له وقتْما بْغيتي المليون فرنك ديالك ها هو عندي. وترك المرأة تسأل عن المليون فرنك وتقول لرجلها كيف يسمح لنفسه بأن يخفي المال عند رئيسه وهما غارقان في الديون حتى الرأس. وكلّما حاول أن يفسّر لها نتفتْ شعر رأسها وندبت خدّيها. ولم تُجد تفسيرات ولا شروح رغم تدخّل الكولونيل. ومرّة قال لامرأة جاءت تطلب رجلها الطيّار ولم تجده في القاعدة: رجلك؟ شكون؟ الطيّار فلان؟ إنّه متزوّج من واحدة أخرى. يقولها بالصرامة واللكنة الفاسيّة نفسها. والتفتنا وإذا بزوجها قادم فارتمت عليه وأنشبت أظافرها في وجهه وأنا والكولونيل واقفان نتفرّج. ثم غمزني وغادرنا وتركناهما. لكنّ الغريب في هذه القصّة أنّ الطيّار اعتذر لزوجته لأنّه فعلاً كان متزوّجًا في السرّ. والكولونيل أقسم لي أنّه لم يكن على علم بزواجه وأنّه قالها ليمزح.

بين صبح وليلة تغيّر موقف الطيّارين. لم تعد نظرتهم متعالية. أو شامتة أو ساخرة. وبالنسبة لي لم يعودوا يمثّلون شيئًا. ما إن أطلّ على المقصف حتى يهرعوا إليّ ليسألوني عن الكولونيل ماذا يأكل وماذا يشرب في بيته. وهل بيته كسائر البيوت. وكم عنده من الخدم؟ وماذا نفعل عندما نجتمع معًا. فأردّ أحيانًا. وأحيانًا لا أردّ، حسب هواي. وأنا أرى أنّهم أصبحوا يحترمونني ويظهرون استمتاعهم بكلّ ما أتفوّه به. ولهذا بدأت أحتقرهم. وأكرههم كما كرهت أبي وعمّي في السابق. فجأة خرجت من قوقعتي. خرجت من عالمي الخاصّ إلى عالم الآخرين. أشياء كنت أجهلها ووضعها الكولونيل تحت بصري في جلساتنا الخاصّة. كثيرًا ما يضع يده حول كتفي وأحسّ بقوّتها تسري بداخلي. يده قويّة، رجوليّة وحنون كيد أب لم يكن عندي. كنت بستها لو تركني أفعل. بحبّ. بشغف. معه لا أعود كما كنت، خجولاً،

متكتّمًا، محبًّا للخلوة والانفراد. وأنا شربت كلماته عن آخرها، كلمة كلمة:

«ضبّاطنا السامون ينعتونني بالرجل الصارم. معهم حقّ. العدل صارم. والفضيلة صارمة. وكلّ الأشياء الأساسيّة في حياة الإنسان عليها أن تكتسي الصرامة نفسها حتى نستطيع أن نغيّر شيئًا في هذه البلاد. هل من العدل أن تستغلّ حفنة من الضبّاط ورجال الأعمال خيرات البلاد وتعيش على مداخيل خياليّة من صيد السمك دون أن ترى بحرًا ومن المقالع دون أن ترى حجرًا ويبنون قصورًا على الشواطئ يزورونها عشرة أيّام في السنة، ويحمل أغلبهم جنسيّات أجنبيّة ويشترون بالمال غير المشروع منازل فخمة تطلّ على الهايد بارك أو في الشانزيليزي أو في الشارع الخامس بنيويورك؟ أنا من القلائل الذين يقولون إنّ علينا تنظيف البلاد من هذه الطفيليّات. ذهبت مرّة عند عائلة فقيرة أستطلع أخبارها. تحدّثت مع ربّ الأسرة مطوّلاً وهل تعرف ما قال لي في النهاية، ذلك الرجل البسيط؟ قال لو كان بوسعه لقتلهم بيديه ورمى جثثهم للكلاب. ولكن لا حيلة له ولا سلاح ولا سلطة. لست مثلكم، ضابطًا في الجيش وأملك ما شئت من السلاح، رشّاشات ودبّابات وطائرات. نعم، هذا الفلّاح البسيط قال هذا وعروق عنقه نافرة تكاد تنفجر».

في لحظات مثل هذه وأنا أسمع كلامه الجديد عليّ تتملّكني نشوة تشبه عاصفة قبل أن تهبّ. أصير قويًّا، مرعبًا. أنقل جبلاً لو طلب منّي ذلك. وأراه أحيانًا في مكتبه محبطًا، منكسرًا وأسأله ما به. يبقى لحظات مكبًّا على وجهه يتفحّص الفراغ أكثر ممّا يتفحّص الأوراق التي أمامه ويقول لماذا لا يسمح للعسكريّين مثله أن يصبحوا برلمانيّين ليوصلوا صوتهم إلى الشعب الذي لا يعرف ما يجري حوله.

III هذا يومك يا عزيز

وغدًا يومنا جميعًا قال الكولونيل ونحن نسير نحو آزرو. قبل أسبوع، فجأة وعلى غير توقّع، بعد كلّ المودّة والعطف اللذين نشرهما أمامي استدعاني إلى مكتبه. عرقت جبهتي وأنا أرى وجهه المكفهرّ. قال إنّه غاضب من سلوكي. واسودّت الدنيا أمامي. الوشاة والحاسدون دسّوا بيني وبينه، هذا ما فكّرت فيه لحظتها. ثم قال أنت شابّ مستقيم. وأنا أقدّر الاستقامة عند الجندي قبل أيّ شخص آخر. ولكنّني غاضب لأنّك لم تستدعني لزفافك. خجلت واحمرّ وجهي وقلت له أنت أوّل المدعوّين مون كولونيل. لا أفهم هذا التبدّل المفاجئ في سلوكه. كما لم أفهم تبدّله قبل سبعة أو ثمانية أشهر عندما قال لي انسَ الطائرة. انسَ السماء يا عزيز. أنت أحسن لك الأرض. وقضيت بعدها أسبوعًا أسود قبل أن يستدعيني من جديد ويسألني كيف أشعر بعد حرماني من الطيران أسبوعًا كاملاً...

ماء المودّة جرى بيننا من جديد.

هل عليّ أن أفهم تقلّباته على أنّها سلسلة امتحانات من رئيسنا. وربّما فعل هذا مع ضبّاط آخرين. ثم قال ونحن متّجهان إلى آزرو: اليوم يومك وغدًا يومنا جميعًا. غدًا سيكون نهارًا عظيمًا ستتذكره طول

حياتك. السائق ممسك بمقوده ونحن على الكرسيّين الخلفيّين نتناقش. في المرسيدس السوداء، كصديقين حميمين. نعم، يأخذني بجانبه في سيّارة الدولة حتى ترانا زينة وأختها ختيمة. حتى يرانا الجميع. نزلنا معًا أنا في كسوة الطيّار. بأصدافها النحاسيّة التي تبرق تحت شمس الصباح. والكولونيل في كسوة أكثر أبّهة بنياشينها ومجدها. الكولونيل بلحمه ودمه جاء حتى آزرو وسلّم على الجميع. كلّ هذا ويده على كتفي، كما لو يكون أبي. إنّه فعلاً أبي وأكثر من أبي. وشرّف بيت لالة زهرة مع أنّها كما تعرفون. وشرب معنا كأس شاي. وقبل أن ينصرف قال لي لا تنسَ الغد. الغد هو يومنا جميعًا.

وهذا كاف ليجعل النوم يهرب من عيني. بداخلي تيّار يأكلني من الخوف واللهفة على الغد. لم تعد لي مشكلة مع نفسي. كلّنا في السفينة نفسها. هَمٌّ واحد يجمعنا قال لي الكولونيل. وهذا ضاعف من قلقي ولهفتي. لم أكن أقدر على القيام بأيّة خطوة لأنّني كنت دائمًا متردّدًا. هل هي الخطوة التي عليّ أن أتّخذ؟ أن أنقذ البلاد كما قال الكولونيل. البلاد معوّلة علينا. هو وأنا. أنا وهو. كأنّما غشاوة كانت تحجب الأشياء وانقشعت فجأة. أنا هو الكولونيل والكولونيل هو أنا. بتّ لابسًا كسوتي. وما منيت به النفس بقضاء ليلة لا تنسى مع زينة، حتى هذا لم أقدر عليه. ما إن أضع رأسي على الوسادة حتى أرى الطائرة. لم أخلع كسوتي مخافة أن يأخذني النوم إذا أنا لم أشعر بها فوق جلدي. قلت لزينة إنّ عليّ أن أعود للقاعدة. دون أن نخبرها بالعمل الذي سنقوم به. استطعت مع ذلك أن أتمدّد لبعض الوقت ومع علامات الفجر الأولى قفزت من السرير. أنا وزينة بحثنا طويلاً عن قفّازاتي دون جدوى. أخذت وجه زينة بين راحتي وقلت لها ما عليها سوى أن ترفع عينيها إلى السماء بعد الظهر لتراني طائرًا.

وصلت إلى القاعدة في حوالى الثانية بعد الزوال وهرع إليّ الكولونيل بوجه ممتقع من الغضب وقال وهو يصرخ ماذا تفعل هنا؟ اجرِ نحو طائرتك؟ تبدّله الجديد أرعبني. جريت دون أن أحسّ أنّني أجري نحو الطائرة الجاثمة قرب المخزن تنتظرني. منذ يومين وهي تنتظر، قلقة، غاضبة عليّ. وكان طيّارون آخرون محلّقين فوقنا. لحقت بهم. وحلّقت. وابتعدت. وعلوت. ومحرّك الطائرة يعزف في دمي كموسيقى. وعندما سمعت الطلقات والكولونيل في الراديو يأمرنا أن نقصف تملّكتني لذّة تشبه نشوة الأعالي. اسحقوهم يقول الصوت في الراديو. صوّبوا نحو الطائرة تحتكم. الكولونيل هو أبي ومرشدي ودليلي، وصوته في أذني: «أنا من القلائل الذين يقولون إنّ علينا تنظيف البلاد من هذه الطفيليّات». وإذا متّ سأموت شهيدًا لأنّني قمت بما عليّ أن أقوم به. وصوت الفلّاح البسيط: «لو كان بوسعي لقتلتهم بيدي ورميت جثثهم للكلاب». في الوقت الذي بدأت فيه أطلق النار شعرت كما لو أنّه تملّكتني أرواح المقهورين وأرواح المنتصرين. لا أحسن من رحابة الفضاء لسماع لعلعة الرصاص وهي تدوّي في أرجائه محدثة فرقعات مضاعفة. تملّكتني روح السماء. أو الداء الأزرق كما كان يسمّيها الأب جواكيم عندما كان طيّارًا في الحرب. عندما يستولي عليك الداء الأزرق فما عليك سوى أن تخضع له وتطيعه. وأنا أضغط على الرشّاش، بلا هموم غير تلك التي يمليها عليّ الداء الذي سيطر عليّ. تحرّرت من خوفي. تحرّرت من شكوكي. الكولونيل اختار تحرّري على هذا الشكل. مرحبًا به. وبالرصاص الذي يدوّي تحتي وفي جنباتي. وبالغضب الخلّاق الذي يقود يدي. الجاذبيّة اختفت ولم تعد هناك أرض أو سماء. وهي اللحظة التي يختارها المرء ليقول فيها إنّه لم يعد بحاجة إلى أكل أو شراب أو نوم. لم يعد بحاجة إلى أيّ شيء. إنّه مستعدّ

للموت من أجل ألّا يستغلّ خيراتنا شخص وحفنة من ضبّاطه ورجال أعماله ويبنون بها قصورًا لا يعمّرونها. وسأموت شهيدًا لأنّني قمت بما عليّ أن أقوم به كما ينوي الكولونيل أن يفعل لو لم يكن قائدنا والمشعل الذي سينير طريقنا نحو المجد. شراسة لم أعهدها فيَّ استيقظت في كلّ عنفوانها أسكرتني وصبّت في دمائي نارًا مقدّسة وملأتني بسعادة لا توصف. وأنا أطلق النار على أرضيّة المطار وبناياته وأسمع زجاجه يتطاير في رأسي وأعرج على أسوار القصر الملكي وأقصفه بكلّ العنف الذي أملك، أخطّ عليها اسمي رصاصة رصاصة وأقنبل أجنحته وقرميده وعشبه ومسبحه وأعواده وماءه وهواءه. وأسمع في الراديو صوتًا يأمرني بالنزول ولا أنزل. أنا في عالمي. في سمائي. ولا أعرف كيف ينزل الطيّار بعد أن يكون قد طار.

١٩

رواية زيــنة

(الرابعة ظهرًا وتزيد دقائق)

I ها أنا وصلت

هل وصلت حقًّا؟ وأين؟ جسدي يقول وصلتِ إلى المكان الذي كان عليك أن تصلي إليه. وأنا إلى الساعة لا أعرف لماذا تبعت الدليل بنغازي إلى بيته. وهل كان أمامي خيار آخر؟ نظراته قبل أن يغادر البيت تقول أيضًا إنّني وصلتُ إلى محطّتي الأخيرة. وأتساءل هل وصلتُ حقًّا. وإلى أين؟ إلى قصبة مهجورة ما زالت تثير فضول بعض السيّاح. الرجل الذي دخل بالأمس إلى البار تحدّث عن موسم زهور وقصبة. هل هي القصبة نفسها التي كان يقصد؟ ومدّ لي ورقة لا تحمل أيّ تاريخ، ظهر علبة سجائر مكتوب عليها نحن في خطر، أنقذونا ولا تحمل أيّ توقيع. هل كانت كافية؟

نزلنا من الحافلة وقفنا أنا والمرأة العائدة إلى رجلها الأوّل فيما يشبه ساحة بها بشر كثير. رجال ونساء وعدّة تاكسيات. وعربة محمّلة بالليمون. وجزّار. ومقهى شعبي منصوبة أمامه عدّة طواجين. وخلفنا بعض المنازل الواطئة وأمامنا جبل أقرع كتب على طوله بالحجر المصبوغ بالجير الأبيض الله الوطن الملك. أغلب الرجال يركبون خيولاً ويلبسون جلابيب بيضاء وبلغات صفراء وفي أحزمتهم خناجر تلمع تحت الشمس. والنساء مكحّلات العيون. وعلى ذقونهنّ وشم وفي عيونهنّ

فرح الموسم الذي يقصدنه. لا يعرفن بعد الرجل الذي سيكون من نصيبهنّ. لهذا يسترقن النظر إلى الخيّالة ويضحكن وقد وضعن أكفّهنّ على قلوبهنّ. والزغاريد والأهازيج والرايات. وقال رجل كان معنا في الحافلة بعد قليل ستبدأ الرقصات والأحواش وهزّ كتفيه هزّات مضحكة كي نفهم. مشينا حتى مفترق طرق خارج القرية وأشارت المرأة بيدها نحو القصبة المنتصبة في فضاء عار سوى من بضع نخلات متفرّقة وعادت نحو القرية.

وها أنا، في بيت بنغازي، أقول متعجّبة، كأنّني واقفة في آخر الدنيا، ياه وصلتُ حتى هنا وفي ظرف وجيز. وجسدي يقول لا يوجد بعد هذه القرية قرية أخرى أو قصبة أخرى. لا يوجد بعد هذه الصحراء صحراء أخرى. لا يشعر جسدي بأيّ تعب. تحدث له أشياء جديدة عليه. في بيت يشبه الكوخ، واقفة بين بهو وغرفة. لا أسمع ضجيج التوأمين وهما يقفزان حول التلفزيون. وفي الغرفة قنديل مشتعل ومجمر ودخان بخور ورائحة الحرمل والفاسوخ. وفي الغرفة أيضًا امرأة الدليل ممدّدة على الحصير وشعرها مبلّل ومسدل في فوضى على جبهتها. وكأنّها نائمة. وأقول إنّ عليّ أن أغادر هذا البيت. ماذا أفعل هنا؟ ولا أغادره. هل هي الروائح التي تمنع جسدي من الحركة وتجعله ينقلب عليّ ولا أتعرّف عليه؟ بدل أن أغادر البيت دخلت الغرفة. مرّرت يدي على جبهة المرأة ومسحت عرقها. عندما فتحت عينيها ابتسمتُ لها كي أشجّعها وأتمنّى لها ولادة سعيدة كيفما كان الجنس الذي ستضع. بعد أن وجدتُني، هكذا، غريبة، في غرفة غريبة، وأمام نظراتها المتسائلة قلت إنّني جئت أبحث عن رجلي. اختفى منذ عشرين عامًا. ولكنّه لا يوجد في القصبة كما أخبرني رجلك. وبدا كأنّها لم تسمع. ثم قلت إنّني لا أعرف أحدًا في هذه القرية وقال لي رجلك... ولم تكن تسمع...

قد أقضي الليلة في بيتكم إذا بدا لك أنّ الأمر مقبول. . . ولكنّها لم تكن تسمع. . .

جذبني منظر نهديها الضامرين. وهذا جعلني غير مرتاحة في نفسي وفي جسدي. والعلامة الأولى للتغيّر الذي أحسّه ولا أعرف شكله هي أنّني شعرت بالجوع. جوع شديد كحفرة كبيرة في معدتي. حدث لي أن شعرت بجوع كهذا من قبل. ولكن لم يحدث لي أن فكّرت فيه كما لو أكون فقدت الأمل في العثور على عزيز. هذه فكرة لا تعجب. كما لو أنّ جرثومة اليأس تسلّلت إلى داخلي. مجسّدة في نهدين قاحلين. الفكرة نفسها لم تكن واضحة. وعبرتْ دون أن تتوقّف. ثم إنّني أجد نفسي أطلب أكلاً دون أن أشعر بالحرج أو الخجل. كما لو أكون في البيت مع أختي ختيمة. شيء ما يحدث لي وأنا لا أفهمه. مدّت المرأة يدها تحت السرير وقدّمت لي خبزًا وزيت زيتون. وعلى الزجاجة تهجّأت هذه الحروف المكتوبة بالأخضر: زيت مباركة. أليست هذه علامة أخرى على أنّ أشياء غريبة تقع حولي؟ وكلّ ما سيحدث بعد هذا يأخذني من مفاجأة إلى أخرى. أسألها عن القابلة وتقول إنّها عادة تذهب إلى المستشفى على بغلة جارتها. وهي لا تعرف هل وصل الوقت أم لا. وتقول إنّها لا تحسّ أنّ وقتها قد وصل.

وقلت، وأنا أرى عضلات وجهها تتقلّص من الألم، من الأحسن أن نذهب الآن، كأنّما أقاسمها همًّا ثقيلاً عليها. لم أعد غريبة في بيتها، أبتسم لها وأقول كلامًا لا أعرف لِمَ أقوله. المرأة رفعت غطاء السرير، كأنّما لتستأنف عملاً كانت قد بدأته قبل دخولنا. جرّت رزمة كبيرة وعامرة وسلّة من القصب ملأت جوانبها الفارغة ببعض الأقمشة. ثم خرجنا خلف البيت حيث تنتظرنا البغلة. ساعدتها حتى امتطت الدابّة. . . ووضعنا على جنبيها الرزم والسلال. . .

لم يحدث لي هذا من قبل. أكتشف أنّني لأوّل مرّة أسير بلا غاية، وبالأساس لا أبحث عن عزيز. ولا أعرف لماذا أتبع بغلة تحمل امرأة ستلد بعيدًا عن بيتها. التوأمان تسيران خلفي. أسمعهما تتساءلان هل ستلد أمّهما بنتًا أم ولدًا. وتقول الأولى إذا كان ولدًا فسيعود والدنا إلى البيت.

وتسأل الثانية: ويلا كان بنت؟

ما غاديشْ يرجعْ. وقالت الأولى إنّها لا تحبّ الأولاد. وقالت الأخرى إنّها لا تحبّ البنات أيضًا.

وأتعجّب كيف تستطيع البغلة أن تعثر على طريقها على حافّة الجرف ودون أن تنظر أين تضع قوائمها. نتوقّف قليلاً حتى تستريح المرأة. يغمرني هدوء غريب. أستطيع أن أشمّ رائحة الفليو والنعناع مختلطة بروائح أخرى. رائحة أشجار الصنوبر تذكّرني دائمًا بالصباح في قمّة جبل، تنشر على الجسد ما يشبه رذاذًا خفيفًا. أتأمّل الأعشاب النابتة حول قدمي وأقف عند كلّ واحدة منها لأتعرّف عليها وعلى الحياة البسيطة التي تغذّيها. طيور مهاجرة تعبر السماء وهي تشكّل مثلّثًا متناسقًا. اضطراب ما ينتشر في جسدي. هل هو الارتفاع؟ أم الروائح الطيّبة؟ نستأنف السير. كأنّما العالم كلّه تقلّص في هذه الحدود: أنا والمرأة والجنين الذي تحمل في بطنها. حتى لغط التوأمين خلفي تراجع شيئًا فشيئًا ثم اختفى. لا أسمع غير حركة جسدي الذي يسير على وقع حوافر البغلة واهتزاز المرأة فوقها. والجنين، ماذا يقول الآن؟ هل تعجبه هذه الخضخضة؟

II السلحفاة التي ظننْتُها أنثى

اكتشفت خديجة أنّها غيلم. عندما يئست منه تمامًا أخذته إلى السوق وجلبت أخرى قالوا لها إنّها أنثى. فعلاً بعد أربعة شهور وضعت ستّ بيضات مدوّرة صغيرة. وفي الغد تذكّرت خديجة الحدأة، ثم انتظرناها ولكنّها لم تظهر. ستّ بيضات كانت مرصوصة الواحدة وراء الأخرى ولم تعد بعد يومين سوى قشور مرميّة في السطح. بكت خديجة وهي تقول لم يخطر ببالها أن تخفيها عن عينيّ الحدأة تحت سقف من الخشب أو بين أصص النباتات أو تغيّر من وضعها لأنّها ظنّت أنّ رصّها بتلك الطريقة يدخل في عادات السلاحف. مرصوصة الواحدة تلو الأخرى، في تنظيم فريد، كالعقد: كان عليّ أن أحرسها بالنهار على الأقلّ. لأنّ الحدأة لم تكتفِ بالتهام البيض. إنّها ثقبت رأس السلحفاة وهي تدافع عن ذرِّيّتها التي لم تكن قد رأت النور بعد. عندما صعدتُ إلى السطح وجدت السلحفاة مقلوبة على ظهرها كسفينة جنحت، خاوية، والديدان تدخل وتخرج من ثقوبها وبجانبها بعض ما تبقّى من قشور البيضات التي وضعت قبل أيّام.

لم أيأس مثل اليأس الذي استولى على خديجة. في الرابعة والعشرين وما زلت ممسكة بأمل العثور على عزيز بكلتا يدي لأنّني كلّما

وضعت رأسي على الوسادة أسمعه يقول إنّه بحاجة إليّ. وإنّه لا أحد غيري قد ينقذه من ظلمته. والذي أتعجّب له هو أن لا أحد يعرف مكانه. وزراء ورؤساء دواوين ومحامون ورؤساء أحزاب مقرّبون وغير مقرّبين من القصر. لا أحد. ثم اتّصلت ببرلمانيّين من المعارضة كانا يسكران في كباريه الشارع الخامس بالرباط. هزّا رأسيهما وقالا: اشربي أوّلاً شي كاس أ الزين؟ لا، لم أيأس. وبعد سنوات أخرى من السؤال وقفت أمام ضيعة جنرال سمعت الكثير عن استقامته. لم أنتبه إلى أنّني كبرت خلال هذه السنوات التي ظللت أبحث فيها عن الجنرال وأجمع المعلومات عن سيرة حياته وأستقصي الأخبار عن عائلته وأقربائه وأتحسّس بينهم طريقي إليه. لم أنتبه إلى أنّني كبرت وأنا أنتظر بشوق اللحظة التي سأدنو من محيطه وأضع بين يديه شكواي وأحلم أنّ معاناتي ستعرف نهايتها على يديه، حتى سمعت أنّه يبني ضيعة في ضواحي مكناس.

هناك، بعيدًا عن آزرو، في ضواحي مكناس ضيعة في طور البناء. ليست بعيدة إن أنا قارنتها بالسنوات الستّ التي قضيت أبحث فيها عن هذا الضابط، الرجل الوحيد الذي قالوا إنّه يستطيع أن يجد حلًّا لمشكلتي لأنّه من عائلة الملك والمكلّف بكلّ ما يتعلّق بالقصور الملكيّة. كنت سأصل إليه على كلّ حال إذا كان الوصول إليه سيفضي بي إلى نتيجة ما. عدا فترات خمول كانت تستولي عليّ بين الفينة والأخرى، لم تغادرني يومًا حمّى البحث عن عزيز ويقين العثور عليه. تخفّ الحمّى وتزداد حسب الفصول. وحسب ما يحمله كلّ فصل من خيبات كبيرة وآمال ضعيفة. والعرق؟ لم أعد أعدّ الأيّام التي يتبلّل فيها فراشي عرقًا. خصوصًا في فصل الربيع عندما يطرأ على جسدي تبدّل جذري. أشعر بهذا في اختلال خلاياي وأنا على فراشي. وعندما رأت

أختي ختيمة التبدّلات التي تطرأ عليّ قالت صحيح، إنّك محتاجة إلى رجل. وقالت الشوّافة يحدث أن يرفض الرجل العودة إلى بيته من تلقاء نفسه لسبب أو لآخر. وفي هذه الحالة ما على المرأة سوى البحث عن رجل آخر. صحيح، رجلك لن يظلّ هناك في قاع الظلمة إلى ما لا نهاية. ولكن في حالة ما إذا لم يظهر؟ لا أقول إنّ عزيز سيمكث في ظلمته كلّ هذا العدد من السنين. ذات يوم سيخرج إلى النور. رجلك ليس استثناء. إنّه بشر ويعشق النور شأنه شأن كلّ البشر في الدنيا. ولكن إذا رفض الظهور؟ وأنا متّفقة مع أختي ومع الشوّافة. النور يجذب جميع الكائنات التي لا تحبّ الظلام.

وصلت باكرًا إلى الضيعة حتى لا أضيّع فرصة لقاء الجنرال. ضيعته لا تحدّها العين، ممتدّة على مدى مسافة لا تنتهي، ولا تعرف لماذا يسمّونها ضيعة. لا تعرف حتى إذا ما كان لها سياج. بشر يعملون هنا وهناك، وأنا أسير بينهم. منذ نصف ساعة أو أكثر. عمّال كثيرون. جيش كامل من الفلّاحين يغرس أشجارًا وورودًا. وقفت على ناصية طريقهم. لا أدري هل هم عمّال أم فلّاحون أم جنود. ربّما خليط من كلّ هذا. لماذا يبدون متشابهين إلى حدّ بعيد؟ ربّما بسبب سواد القفا والذراعين بفعل الشمس التي يظلّون منحنين تحتها. جلستُ أستريح. وأفكّر في الجنرال وامرأته على ضوء هذا الشوط الذي قطعت. وعلى ضوء المعلومات الأخيرة التي جمعت. وأشعر أنّ حماسي نقص. ولا أرى الطريقة الصحيحة التي أفكّر بها فيهما. العمّال حولي، قريبون منّي، منكبّون على نباتاتهم بكلّ حنان يقلّبونها بين أيديهم عدّة مرّات قبل أن ينقلوها إلى الأرض بكلّ رفق. حديقة كاملة تجري في خيالهم وهم مكبّون على الأرض. أقف من جديد. أسألهم حتى لا أضيّع الاتّجاه وأسير على ضوء ردودهم. وهم لا يذكرون الجنرال بالاسم. عندما

أسأل أحدهم هل وصل الجنرال يجيب مزهوًّا إنّه يعمل في ضيعة مولاي منذ الفجر ولا وقت يضيّعه لمعرفة ما إذا كان مولاي قد وصل. ثم يخوض جاره في الحديث عن الضيعة وعن عدد غرفها التي ستفوق المائة. وعن قاعة الأكل التي ستشيّد فوق حوض سمك نادر. ويضيف الآخر عندما سيأتي الضيوف سيتلذّذون بمأدبتهم وهم يتفرّجون على أنواع من السمك قادمة من كلّ القارّات تسبح تحت أقدامهم. لم نر بعد هذه الأشياء الغريبة ولكنّنا نعمل ليل نهار حتى يتسنّى لنا أن نرى حوض السمك والأسماك وهي توضع فيه قبل أن ننتقل إلى العمل على أرض أخرى لنشيّد ضيعة أخرى لجنرال آخر. يتكلّمون بحماس كي يبدوا المساهمين الأساسيّين في هذا الإبداع الفذّ.

منذ مدّة لا أقوم بأيّ عمل. أختي هي التي تشتغل. مدام جانو أصبحت لا تستغني عنها. بينما تكون أختي واقفة خلف الكونطوار، أجلس في البيت لأخطّط للمرحلة القادمة. وها أنا جالسة على مقربة من ورشة العمل المتواصل أهدهد أفكارًا متفائلة. كأن ينتهي كابوسنا قريبًا. أنا وعزيز. أتوقّع في كلّ لحظة أن يظهر الجنرال أمام بيته. والتي رأيت هي امرأته. كبر سنّها لا يظهر بسبب نعومة بشرتها أو ربّما بسبب مسحة من الحزن تشيع من عينيها. تأتي الحروف حتى شفتيها وتتكسّر لأنّها أجنبيّة. استمعتْ إلى شكواي ونحن في بهو فسيح كالملعب، كثير الحركة والضجيج بسبب الحدّادين والنجّارين وواضعي الجبس على السقوف. انسحبتْ إلى الداخل بعد أن أنهيت كلامي ولا أعرف هل أخذت معها شيئًا من شكواي بسبب الضجيج الكثير الذي استمرّ مالئًا الفراغ الذي تركت المرأة.

لم تغب طويلاً. لأنّ الجنرال ظهر خلفها وهو يصيح هائجًا. توقّف العمّال عن عملهم حتى لا أضيّع حرفًا واحدًا ممّا يقول الجنرال الذي

أمضيت سنوات طويلة في تقصّي أخباره. أسمعه الآن يصيح في وجه امرأته لماذا استقبلتني في بيتها. من خلال انحناء ظهر المرأة أرى أنّها تبكي. هل تريد أن تخرب بيته؟ هل اعتدنا استقبال مثل هؤلاء؟ ما الذي جرى لامرأته حتى تنسى نفسها ووضعها وتعرّض حياتهما وحياة أولادهما للخطر؟ ألا تعرف امرأته أنّ زوجي كان سيقتل الملك لولا أنّ الله لطف به وبنا؟ وهي تبكي. وأنا جمدت في مكاني. صرت قطعة ثلج. وهو يتوعّدني ويقول إنّه سيعرف كيف يتعامل مع أمثالي... ثم يلتفت جهة العمّال. لماذا توقّفوا عن العمل. ويعود الضجيج كما كان، صاخبًا، عنيفًا، يثقب طبلة أذني...

أعود مجرجرة قدمي بين جموع العمّال والفلّاحين غير المبالين بمصائبي. (لعدّة أيّام تساءلت ما الذي سيقع عندما سأكون أمام الجنرال. لا أنام في الليل وأقضي اليوم في تقليب الأمر من جميع أوجهه. وتصوّرت كلّ النهايات الممكنة سوى هذه، كما يحدث دائمًا). ثم أقول عليّ فقط أن أنسى أين كنت قبل قليل. أعرف أنّني سأتجاوز حالة الإحباط الموقّت لأنّني أفكّر في عزيز. متيقّنة أنّني سأنتهي بالعثور عليه كما قالت الشوّافة. عليّ أن أتشبّث بفكرتي عن الطرق التي قطعت حتى الآن وأنسى طريقًا يفضي إلى ضيعة هذا الرجل. هناك شمس حارقة فوق رأسي. أنا أكره الشمس. خصوصًا عندما تكون غير ضروريّة. هل أنا على شاطئ بحر؟ أو على حافّة مسبح ورجلاي تلعبان في الماء؟ إنّها ليست ضروريّة بتاتًا هذه الشمس. إنّها فوق تحرق رأسي والسلام. لماذا لا تذوب؟ كلّ هذا اللهب الذي يسكنها لم يستطع أن يذيبها. أو ينقص من حدّتها. من أيّة مادّة صنعت هذه الشمس حتى تبقى ملتهبة هكذا طوال الوقت تضرب رؤوسًا لا حاجة بها إليها وتحرق جلودًا هي في غنى عنها.

وأنا أبتعد عن الضيعة سمعت أطفالاً أسفل الوادي ينادون: عزيز. عزيز. ملأني الأمر استغرابًا ثم سرّني أنّ الاسم رنّ في أذني في وقت كنت فيه بحاجة إليه. الطفل الذي اسمه عزيز اختفى خلف جذع شجرة. طلب منّي أن أصمت وهو يضع سبّابته على فمه. وأضحكتني حركته. قد يكون في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره. استمرّ الأطفال الآخرون يصيحون أسفل الوادي عزيز... عزيز. عثروا عليه بسهولة ودفعوه أمامهم. إلى أين هم ذاهبون؟ هؤلاء العفاريت لا يقولون أين يختفون حتى يجرفهم السيل أو يفقأ عين أحدهم غصن شجرة. ربّما عندهم موعد مع فتيات في الغابة؟ من يدري مع هؤلاء العفاريت؟ ربّما إنّهم ذاهبون إلى النهر للاستحمام. وهل يوجد نهر في هذه الأنحاء؟ سأعثر عليه إن كان موجودًا. ولكن تعبي شديد الآن. ورأسي ثقيل كأنّما يريد أن يتخلّى عنّي كي يسهل التخلّص من حمله. رأسي يستغلّ حالة الفوضى التي تجتاحني. أختي ختيمة وهي تمدّ لي قطعة جبن صغيرة تقول الذي ينبغي التخلّص منه هو عزيز.

III ثم قالت أختي ختيمة

وهي تلقي نظرة عبر النافذة: شوفي. ولم أر. ثم قالت: هناك، تحت الكرمة. في الجهة الأخرى من الطريق. عند ذاك رأيته. يقف حيث قالت. في الجهة الأخرى من الطريق، غير بعيد عن منازل الجنود. وهي جدران صفراء تعلوها سقوف من القرميد وقد بنت اللقالق فوقها أعشاشها. بيوت قديمة متآكلة تعود إلى أيّام الفرنسيّين. والعائلات تقضي حياتها بين جدرانها في وداعة خفيّة. لا تكاد تعرف بوجودها سوى من خلال الغسيل المنشور على نوافذها أو أمام أبوابها. إنّه اليوم الرابع قالت. تراه تحت الكرمة عندما نخرج إلى العمل. ولماذا لا أراه أنا أيضًا؟ أختي تراه أيضًا حين نعود. في وقت متأخّر لأنّنا أصبحنا نشتغل معًا في بار اللقلاق. وقالت إنّه يتعقّبنا حتى البار. لا يغادر مكانه حتى نغادر البار. وما عدا هذا فإنّه لا يذهب إلى أيّ مكان. لا تعرف متى يأكل ومتى يشرب. لا تعرف هل له حاجات يقضيها كباقي البشر.

ثم أصبحتُ أراه بدوري كلّ صباح. استمرّ الأمر عدّة أيّام أخرى. انتبهت بعدها إلى أنّ أوقات حضوره غير مضبوطة كما قالت أختي. وكذلك أوقات غيابه. يغادر في أوقات متباينة لا يمكن من خلالها استنتاج برنامج مضبوط أو خطّة محكمة. قد يجلس حتى الظهر ثم يغيب

ما تبقّى من النهار. قد يحضر في وقت متأخّر، عند الغروب مثلاً. قد لا يأتي ليوم كامل أو يومين. وقد يقضي النهار واقفًا يراقب باب البار. وقلت لأختي قد تكون عنده أخبار من عزيز. وقالت أختي إنّ الرجل ينقل أخبار تنقّلاتك في تقارير يرفعها إلى رؤسائه. ماذا يكتب فيها؟ لا يوجد في حياتي شيء يمكن الكتابة عنه ما عدا البحث عن عزيز. ولِمَ تصلح هذه التقارير؟ الغرض هو زرع الخوف في نفسك. ليس هناك من غرض آخر. بدل الخوف شعرت بغضب شديد. (كان من الممكن أن أشعر بالخوف في الأيّام الأولى التي أعقبت اختفاء عزيز أو السنة الأولى. أمّا الآن بعد مضي أكثر من اثنتي عشرة سنة..). وهكذا نزلت من البيت وعبرت الطريق قاصدة الشجرة حيث يقف. عندما رآني أعبر الطريق خطا خطوة إلى الوراء متأهّبًا، ثم عندما أدرك أنّني أقصده ابتعد، مرتعبًا، كأنّما سألقي عليه القبض. توقّف عندما توقّفت. وعندما وصلت تحت الشجرة كان قد اختفى خلف المجمّع السكني لعائلات الجنود. وربّما دخل بيتًا من بيوتها. وقلت قد يكون قريبًا لإحدى عائلات الجنود. في مرّات عديدة رأيته يتحدّث إلى أحدهم. وقد يكون عمًّا لهذه الطفلة أو تلك. في مرّات أخرى رأيته يلعب مع أطفالهم. وهناك الطفلة الصغيرة التي تأتيه بالأكل. وهي الأخرى ليس لها وقت محدّد تأتي فيه. طفلة لم تتعدّ الثامنة من العمر، مهملة الثياب والهيئة، لم أرها تدخل بيتًا من بيوتهم أو تخرج منه ولكنّها لا تختلف كثيرًا عن طفلات المجمّع. مع فارق بسيط. لم أدر كيف خطر ببالي أنّها تشعر بالبرد، ليس الآن وأنا أراها، لا، تشعر بالبرد في كلّ وقت. البرد مكوّن من مكوّناتها.

لم يختلف الأمر كثيرًا في الأسابيع التالية. عندما لا أذهب إلى العمل أقوم بجولات قصيرة حول مجمّع مساكن الجنود أو في الأحياء المجاورة. وألتفت لأراه خلفي يمسح الجدران. ثم أعود بعدها إلى

البيت. وعندما أسترق النظر من النافذة غالبًا ما أراه وقد عاد إلى مكانه تحت الكرمة. هذه الكرمة لم أكن لأنتبه إليها لولا وجوده تحتها. لم أرها من قبل. كأنّما نبتت معه. وظهرت أوراقها واخضرّت بفعل مداومته، فروعها التي كانت بيضاء عارية من قبل اكتست باللون الأخضر الغامق وجللت الرجل بظلالها. وقد تختفي باختفائه. ثم اهتممت باللقالق. وانتبهت إلى دورتها. إنّها الآن هناك، فوق مداخن البيوت العسكريّة تربّي صغارها. لم يحن بعد وقت رحيلها. إلى أين تذهب عندما تغادر سطوح القرميد؟ الله أعلم. كما انتبهت إلى أنّه ظلّ يرتدي الرداء نفسه، لا يغيّره تبدّل الفصول عليه، السروال والمعطف الرماديين نفسهما.

جولاتي القصيرة هذه، تحت أشجار التوت المنتشرة على طول الشارع الرئيسي للمدينة، دامت سنوات. خطوات قليلة تفصل بيننا. الوضع سيبدو لكِ في البداية غريبًا وشاذًّا قبل أن تعتاديه. أقف فيقف. أسير فيسير خلفي. من جهته لم يعد يقوم بأيّ مجهود كي يخفي أنّه يتبعني. بيني وبينه عشرة أمتار، تتقلّص أحيانًا حتى لا تعود بيننا مسافة كأنّما يريد أن يسرّ إليّ بسرّ ما. ثم يتراجع، في لحظة تردّد، كأنّما غيّر رأيه. المثير في هذا الأمر هو الحالة التي تنتابك وأنت تدركين أنّ شخصًا خلفك. كأنّما تسيرين في الشارع عارية وكلّ العيون تراقبك. أو شيء من هذا القبيل. يختلف الأمر عندما يكون الرجل أمامك. لا اضطراب هناك. لا اضطراب ولا خوف. كأنّما واقفان على قدم المساواة. نعم، يختلف الأمر كثيرًا في الحالتين، عندما يكون خلفك تشعرين كأنّما أنت واقعة تحت رحمته، وهو الذي يقودك حيث يشاء. وتتمنّين أن يكون لك عينان في قفاك حتى تستوي الأمور. وتعودان كما كنتما، شخصين عاديين ومتساويين.

صباح الأحد، والجوّ مشمس، أفتح عينيّ وأتذكّر أنّ الرجل ينتظرني في الخارج، تحت الكرمة. كأنّما عوّضت انتظارًا بانتظار. كالعاشقين. عاشقين من نوع فريد. يعبران الطرق والشوارع، يسيران تحت أشجار التوت، ينتقلان من هذا الحيّ إلى ذاك الحيّ، يتوقّفان في هذا المكان أو ذاك، بعيدين أحدهما عن الآخر ومدركين للحضور الطاغي لكلّ منهما. يربط بينهما خيط رفيع لا يراه غيرهما. عكس الأيّام السابقة التي قليلاً ما كنت أجدني فيها خارج البيت أو البار، أصبحت كثيرة الخروج. جولات كبيرة بلا غاية. فقط بغرض أن أشعر به يمشي خلفي. بغرض أن أشعر أنّ شيئًا ما أصبح يربطني بعزيز. أشعر بوجوده كلّما كان الرجل يسير خلفي. كأنّما أصبحت قريبة من هدفي. أختي ختيمة تسألني هل أخذ عقلي رجل جديد؟ كانت تفضّل أن يكون الأمر كذلك. حتى تطمئنّ عليّ وتقول إنّني صرت امرأة عاديّة. أقول لها نعم بحركة من رأسي مشيرة في الوقت نفسه إلى الرجل الواقف تحت الكرمة.

IV ظهور الوالد شغلنا

وفاجأنا وشوّش فكرنا فنسينا الرجل ووجوده تحت الكرمة. قال الوالد إنّه تعب كثيرًا من أجل العثور علينا. لم نتعرّف عليه أوّل الأمر. وعندما تعرّفنا عليه سألته ختيمة لماذا يبحث عنّا. قال طرده الجوع وسنوات الجفاف المتتالية. أمّنا ماتت وزوجته الثانية وأولادها عادوا عند أهلهم بعد أن عجز عن توفير العيش لهم. هذا والدنا إذن؟ تقلّصت قامته وصغر رأسه وتعرّى وابيضّ شعر حاجبيه وازداد كثافة. ونحن لا يمسّنا شقاؤه لا من قريب ولا من بعيد. نتركه في البيت كما لو نكون تركنا أيّ عابر. ولا نردّ عليه عندما يسأل أين نذهب كلّ صباح. ويوم اكتشف مقرّ عملنا جاء يطلب من مدام جانو أن تسلّمه رواتبنا لأنّه أبونا وله الحقّ في مراقبتنا ومراقبة عملنا. وعندما طردته مدام جانو وعبد السلام من البار قال لنا إنّ من واجبه أن يمنع بناته من الاشتغال في البارات ولو استدعى الأمر استعمال القوّة وتدخّل السلطات.

منذ قلنا لخديجة هذا والدنا أصبحا لا يفترقان. يأكلان معًا ويصعدان إلى السطح معًا ويتكلّمان عن السلاحف معًا. وقد اشترى لها سلحفاة أخرى وبنى لها سقفًا من خشب حتى لا تراها الحدأة. وأصبحا معًا ينتظران البيضات التي ستبيض. واشترى تلفزيون يتفرّجان عليه مساء

عندما يظلم السطح ولا يعود بمقدورهما مراقبة الحدأة. دخلنا مساء أنا وأختي ختيمة ووجدناهما يتعشّيان ويتفرّجان في التلفزيون. وقد لبست خديجة ثوبًا أبيض جديدًا. وقال والدنا إنّه اشترى لها كسوة من السوق بمناسبة زواجهما.

وأصبحا بعد هذا اليوم يخطّطان لطردنا من البيت.

كنت في القيساريّة أقلب قطعة ثوب وإذا بي أراهما معًا. الوالد ومعه رجل الكرمة الذي يكتب عنّي التقارير يقلبان معًا قطع القماش في المحلّ المجاور. ويبدوان غير مهتمّين بوجودي. كأنّما الصدفة جمعتنا. ثم وجدتهما معًا في المساء جالسين يشربان الشاي في البيت. هذه المرّة رأيت الرجل عن قرب. قريب جدًّا منّي بحيث أرى تفاصيل وجهه كاملة. في الأربعين تقريبًا، ثيابه مهملة، سروال ومعطف رماديّان كما قلت، طويل القامة، نحيف البنية ويشبه العديد من السكّيرين الذين أراهم يوميًّا في بار اللقلاق. الوجه أزرق وسواد البؤبؤين كما لو كان يسبح في ماء عكر. واليدان ترتعشان. الشيخوخة هي الحالة الطاغية على هيئته وشكله رغم الأربعين التي لم يكن قد جاوزها. أصبحوا ثلاثة إذن، في غيابنا وفي حضورنا، يتحلّقون حول المائدة، يأكلون حلوى عجنتها خديجة، ويشربون شايًا أعدّته خديجة ويخطّطون لرفع دعوى ضدّنا لأنّ البيت بيت أخيها ولا حقّ لنا فيه. وهي الفترة التي اختارتها مدام جانو لتموت فيها وننتقل إلى بيتها. لحسن حظّنا.

V سمعنا أنّ الملك مرّ

على بيتنا. ظلّت طائرات الهليكوبتر تحلّق فوق رؤوسنا وباتت قوّات الجيش والتدخّل السريع تمشي وتجيء عبر الطريق العامّ تشطب الطريق وتصبغ الشجر ونحن، أنا وأختي ختيمة، من فوق الجبل، نطلّ على الطريق، ونتساءل ماذا يفعل الجيش في طريق قاحل تظلّ الدوابّ ترعى على جنباته ولا يمرّ منه غير شاحنات قليلة من حين لآخر؟ والقرويّون يتساءلون ماذا يحدث على الطريق العامّ؟ حدث هذا في زمن بعيد. كنت في العاشرة. في الغد سمعنا أنّ الملك مرّ، على الطريق العامّ، تحت بيتنا. وسمعنا أيضًا أنّ جارنا، وهو في العشرين ارتمى على سيّارته ومدّ له رسالة. ثم سمعنا أنّه، جارنا محمّد، عندما اطّلع الملك على رسالته، ذهب إلى الرباط وتسلّم وظيفة في إحدى الوزارات. وظللنا لمدّة، أنا وأختي ختيمة نتصوّره يجوب كلّ صباح شوارع مدينة ملوّنة بأضواء مختلفة قبل أن يلتحق بعمله. كلّ الناس في هذه المدينة يعملون في الوزارات. ويتجوّلون في الشوارع قبل أن يذهبوا إلى العمل في ثيابهم النظيفة. ويعودون ليشربوا قهوة المساء على شرفات منازلهم. أنا لم أر الملك في حياتي. فكّرت فيه عندما تذكّرت قصّة محمّد. وها أنا أنتظره، كما انتظره محمّد قبل عشرين عامًا، إنّما بدون

شوارع كثيرة الأضواء وبدون ناس يشربون القهوة على الشرفات.

في مدينة أخرى وخلف شجرة أخرى، في شارع فارغ أنتظر مرور الملك. وبدون رسالة. رسالتي في رأسي. حفظتها جيّدًا. قرأتها وأعدت قراءتها حتى أصبحت كالماء تسيل في عقلي دون عناء. مختفية ما بين الشجرة والحاجز النباتي. قلبي يدقّ، يخبط. كلّ بدني يرتعش. كأنّما استقلّ عنّي وعن فكري. مجرّد تصوّري واقفة أمام الملك يجعل دمي يتجمّد. ولكي أشجّعه على استعادة دورانه المتوازن أقول له ماذا حدث لمحمّد؟ من راعي ماعز إلى موظّف في الحكومة. وقد يكون أصبح مديرًا أو كاتبًا عامًّا. عندما تأتي إلى الرباط فلكي تصبح رجلاً مهمًّا. كلّ الناس مهمّون في هذه المدينة. أقول هذا لأهدّئ فكري، بانتظار ظهور الموكب الملكي. ثم إنّني لا أبحث عن وظيفة. أبحث عن عزيز. لم يعد لديك ما تخسرينه بعد كلّ هذه السنوات. وأقول لنفسي ما زلت آمل. ليس من أجلي ولكن من أجل عزيز. هل تذكره؟ كان طيّارًا عندكم. وحدث أن اختفى منذ خمس عشرة سنة. غداة الليلة التي تزوّجنا فيها. نعم، خمس عشرة سنة كاملة لم أره فيها. قد أكون تأخّرت في المجيء إليكم. ولكن لا بأس. توجد مثل هذه الكلمات التي تخرج من رأسي بين الفينة والأخرى مع أنّني لا أحبّ أن أسمعها لأنّها تجعل مزاجي عكرًا مضطربًا. رجلي مختفٍ منذ خمس عشرة سنة في مكان ما وأريد فقط أن أعرف أين هو. هذا ما سأقول. تدرّبت طويلاً على دوري. لم أطلب رأي أختي ختيمة وأنا أتساءل في البداية عن كيفيّة الوصول إليه. مشّطت شعري وجعلت ضفيرتيه تتدلّيان على صدري ولبست كسوة قصيرة حتى آخذ هيئة طفلة لطيفة بريئة تثير شفقة الرائي. ماذا سيفعل الحرس حين يرون طفلة في السادسة عشرة تعبر الطريق لتقبّل يد الملك؟ تدرّبت على بعض الحركات أيضًا.

في الحادية عشرة والنصف رأيته قادمًا في اتّجاه ملعب الغولف.

فكّرت لحظتها في الرجوع والتراجع. لم أستطع. عوّلت كثيرًا على هذا اللقاء. أليس هو الملك؟ ويستطيع حلّ كلّ معقّد؟ ألست واحدة من شعبه العزيز. نحن رعاياك الذين تتباهى بنا أمام ضيوفك. حوله جماعة من الدرك والشرطة بالزيّ المدني والحرّاس الخاصّين. وشخصيّات أجنبيّة. اختلف المكان عمّا كان عليه منذ قليل. الرجال المحيطون به يهرولون في كلّ اتّجاه. انتبه أحدهم إلى وجودي وطلب منّي أن أبتعد. قلت إنّني في حياتي لم أر الملك من قريب. هذا المشهد وهذه الجملة حفظتهما وتدرّبت عليهما. طلب منّي ألّا أغامر بالابتعاد عن مكاني. كنت أرتعد من تحت إلى فوق وأنا أراه يقرب. ووهن شديد اعتراني. ثم ظهر الملك محاطًا بحاشيته. قريب جدًّا منّي. جريت نحوه كالسهم. لم ينتبه أحد من حرّاسه حتى كنت وقعت على قدميه وقبّلت حذاءه. وسط الموكب المذهول. الضابط الذي كان بجانبه أخرج مسدّسه وصوّبه نحوي ثم أعاده إلى غمده عندما رأى علامات الغضب على محيّا الملك. كما لو كان يقول له كان عليك أن تفعل هذا من قبل. سردت ما كنت أحفظ عن ظهر قلب: منذ اليوم الأوّل الذي تزوّجنا فيه ثم في الغد حين اختفى عزيز ثم كلّ محاولاتي في البحث عنه التي دامت أكثر من خمس عشرة سنة. . . وبكيت. لم أدخل هذا في حسابي. لم أتصوّر أنّني سأبكي. بكيت وأنا أرى الملك يتأثّر لحالي وهو يردّد لا حول ولا قوّة إلّا بالله. سألني عن اسمه. عزيز. كان في الطيّارة.

كانْ في الطيّارة؟

إيه. في الطائرة. لم يكن يعرف حتى إنّه سيطير ذلك النهار. كان في إجازة. طلب إجازة لنتزوّج. وتزوّجنا ولم يكن يعرف أنّه سيطير. لهذا ذهب بدون قفّازاته. كان فقط يتجوّل في القاعدة الجوّيّة. ولكنّه طار.

لا حول ولا قوّة إلّا بالله. وفين هو دابا؟

فين هو؟ ما عرفتش... في الحبس... في مكان ما... في الصحراء... في البحر... في السما... تحت الأرض... ما عرفتش...

لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

أمسكني أحد الضبّاط من كتفي برفق وأخذني إلى سيّارته المرسيدس وهو يواسيني ويقول إنّ مشكلتي ستعرف حلّها هذا النهار.

وقال هو أيضًا: لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

ثم قال إنّ الملك سيستقبلني في القصر بمجرّد الانتهاء من ضيوفه. وتصوّرت نفسي في القصر، جالسة صحبة الملك والملكة والأميرات حول كأس شاي نتبادل القصص كمعارف قدامى. ثم بدأ الضابط يسألني ويسجّل إجاباتي في كنّاش كبير. الاسم الشخصي والعائلي؟ تاريخ ومكان الازدياد؟ اسم الأب؟ حرفته؟ اسم الأمّ؟ حرفتها؟ عدد الأولاد؟ مكان الدراسة؟ لم أذهب إلى المدرسة. العنوان؟

بدل القصر وحفلة الشاي وجدت نفسي في حجرة ضيّقة تشبه الزنزانة. بها مائدة وكرسيّان. وبدل الملك جاء شخص آخر. يلبس الكسوة نفسها التي كان يلبسها الضابط. بعد أربع ساعات. وبدأ سلسلة أسئلته. الأسئلة نفسها. ويسجّل أجوبتي في دفتر أخرجه من جيبه. الدفتر نفسه: الاسم الشخصي والعائلي. تاريخ ومكان الازدياد. اسم الأب وحرفته. اسم الأمّ وحرفتها إن كانت لها حرفة... وسألني إن كان معي عقد زواج يثبت أنّني متزوّجة من هذا الشخص الذي أدّعي أنّه اختفى. ليس معي عقد الزواج لأنّه ضاع. مزّقه رجل هجم عليّ في الفندق. وبدا لي الأمر في غاية الغرابة وأنا أحكي. اختفى الرجل بدوره

هو أيضًا. ولم يظهر الشخص الثالث إلّا في وقت متقدّم من الليل. ظللت متشبّثة بهذا الأمل. لقد وصلت حتى الملك. بعد خمسة عشر عامًا. ولن أخرج خاوية الوفاض من هذه المغامرة. هذا الشخص سألني الأسئلة نفسها ودوّنها في دفتر أخرجه من جيبه.

من أخبرني بمرور الملك؟ وهذا سؤال لم أهيّئ له جوابًا.

قلت إنّني منذ شهور عديدة وأنا أنتظر مروره. وبدا أنّ الجواب أقنعه.

أخذني في سيّارة أخرى واتّجه وجهة لا أعرفها. ظلام يحيط بنا وشجر وطريق مظلم. أعدت شريط النهار من أوّله. ثم تساءلت لماذا تبدّل وجه الملك عندما حدّثته عن عزيز. هل كان يتوقّع شيئًا آخر؟ لم أهتمّ بالأمر؟ ربّما في اللحظة. ولكنّ الآن، والسيّارة تشقّ الظلام بدا لي مجرى الأمور غريبًا ومنذرًا بالخطر. كأنّما وقعت في شرك ما. لأوّل مرّة ظهر الخوف. خوف ربّما ظللت أخفيه طيلة السنوات التي انتظرت فيها عزيز ثم وجد الشقّ ليتسرّب منه إلى كياني. توقّفت السيّارة وخرج العسكري وطلب منّي أن أنزل. ظلّ المحرّك مشتغلاً وأنا أغادر السيّارة. كنت أنتظر أن يخرج مسدّسه. وتصوّرت دويّ الطلقة في ليل الغابة الهادئ. ظللت واقفة أنتظر اللحظة التي سيهوي فيها جسدي وتحسّست العشب تحت قدميّ. لحظات خلتها طويلة مرّت قبل أن أنتبه إلى أنّ السيّارة تتحرّك. وأنّها تضيء جنبات طريق وسط الغابة. وأنّها تختفي وسط ليل الغابة.

VI وعندما خرجت المولودة

كنت مستعدّة دون أن أعرف قبل تلك اللحظة. ربّما جسدي كان يعرف. كنّا اجتزنا منعطفًا في أعلى الجبل ومعنا امرأة كانت تحطب في الجوار عندما بدأت أولى علامات الطلق. أنزلنا معًا المرأة عن البغلة. ومدّدناها تحت شجرة. وأشعلت الحطّابة نارًا بينما أنا أنزل السلال. ثم أرسلتُ البنتين تلعبان بعيدًا في الغابة. مدّت المرأة يدها إلى إحدى سللها وأخرجت بخّورًا ورمته فوق النار ولمّا أدنت وجهها أراحها منظر الدخان المعطّر وهو يتصاعد كثيفًا حول وجهها العرقان.

المرأة تتوجّع الآن فوق اللحاف الذي نشرتُه تحتها. ممسكة بكلتا يديها بحبل يتدلّى من الشجرة. والحطّابة خلفها. وهي التي علّقت الحبل على أحد أغصانها. تسند ظهرها وتقول لها أن تزحم. وطرف الحبل الآخر في فم المرأة حتى لا تصرخ. التوأمان بين الشجر تجمعان الزهور. وأنا أمام المرأة أجفّف عرقها بخرقة مبلّلة. وظلال الأغصان تتمايل فوق وجهها. ثم أمسك بساقيها وأكرّر ما تقول الحطّابة. ادفعي. ادفعي. والمرأة تنظر إليّ وفي نظرتها الرهبة نفسها التي كانت تسكنها ونحن في البيت. وكما لو أنّ الجنين خمّن ما يدور في رأس أمّه وعدل عن مغادرة رحم أمّه. وأنا أتساءل لماذا يتأخّر في الخروج. والمرأة

تقول إنّ رجلها لن يعود إلى البيت إذا كان المولود بنتًا. والحطّابة تقول من الأحسن لها أن تصمت وتزحم. والبنت لا تطلّ بعد ساعة من العذاب. كما لو أنّها أدركت ما يحيك لها بنغازي فأقسمت ألّا تغادر بطن أمّها.

ازدادت حالتي توتّرًا. وانتابت جسدي حمّى مباغتة امتدّت إلى كلّ جزء فيه وبدأ يتفصّد عرقًا. كأنّما أسبح في حمّام شديد الحرارة. ألم غريب يعصر جسدي وكأنّما الجسد يسيل من الداخل. وقفتُ مذعورة. أحسست بالحليب يخرج من نبع بداخلي ويصعد. وأحسست بنهديّ ينتفخان وبألم موجع يستولي عليهما كلّما زاد انتفاخهما. أصبحا بعد مدّة وجيزة كقربتين ممتلئتين. ومع انتفاخهما تزداد حدّة الألم. كأنّما ألمي امتداد لوجع المرأة التي تعضّ الحبل. ثم بعد ساعة أخرى من الوجع والصراخ وألم الوضع والحمّى والعرق والانتفاخ بدأ ماء الطلق يسيل منها وقالت الحطّابة إنّه الفرج. وعندما صرخت المولودة تفجّر الحليب من نهديّ متدفّقًا.

جاءت التوأمان تتسابقان وتلوّحان بباقتي زهور بريّة. سألتا بنت أم ولد بنت أم ولدٍ ولم تتلقّيا جوابًا.

مزّقت قميصي فسال الحليب غزيرًا كالماء وبلّل ثيابي وفاض على الأرض. وفي الحال أخذت الحطّابة شفرة وقطعت الحبل الذي يربط المولودة بأمّها. وقالت الأمّ إنّ نهديها جافّان ولم يعد فيهما حليب منذ سنوات. جلست وأخذت البنت ووضعتها بين يدي وألقمتُها نهدي. والمرأتان تراقبان الحليب وهو يغمر وجه الوليدة ويتدفّق على صدري وعلى صدرها العريان. هواء منعش يداعب وجهي. جسدي مرتاح الآن. يلتهم كلّ الروائح. أصبحت كلّي جسدًا فقط. داخله وخارجه واحد. اقتربت التوأمان تريدان أن تشربا من حليبي. وقلت لهما أن

تنتظرا حتى ترتوي أختهما.

وسألتني الأمّ عن الاسم الذي سأعطيها.

وقلت لها باقي ما عرفتش.

أعود الآن إلى المحطّة. بدل أن يتعبني المشي أنعش قواي. تنفّسي منتظم. أحاول أن أضبط مشيتي على إيقاع تنفّسها البطيء. ملفوفة في ثوب أبيض لا يظهر منها غير الوجه الصغير، الأحمر وخصلات من شعرها الكثيف. إنّها نائمة.

٢٠

رواية عزيـز

(السابعة مساء)

حاسّة العد التي كنت شحذت

خلال العديد من السنين تعود. السيّارة تسير بسرعة وأنا أعدّ. لا أهتمّ بالمناظر التي تمرّ على جانبيَ لأنّني لا أراها. كواحد لا يجلس في سيّارة تسير بسرعة. كواحد لا يوجد في هذا المكان. أتسلّى بالعدّ. كما في السابق. بأرقام حقيقيّة بدل الماء أو دقّات عضو متقيّح. إذا كان العدّاء يقطع في المتوسّط عشرين كيلومترًا في الساعة. وإذا أنا ضربت هذا العدد في عدد ساعات اليوم ثم في عدد الشهور ثم السنين التي قضيت بالقصبة... لا أحتاج إلى مهارة كبيرة لأستخلص النتيجة لكثرة ما تمرّست على هذا النوع من التمارين. على عينيّ عصابة وفوقهما نظّارات ثم قب الجلّابيّة. ثلاث ظلمات. وهذا يسهّل عمليّة التركيز. وما أشعر به الآن هو ما يشعر به عدّاء المسافات الطويلة في نهاية السباق. والرجلان الجالسان في مقدّمة السيّارة لا يتكلّمان. وأنا أتصوّرهما كمكمّلين لهذا النشاط الذي أمارس.

خفضت السيّارة من سرعتها، مالت جهة اليمين وتوقّفت. صمت المحرّك. فُتح باب السيّارة ونزل الرجلان. ربّما ابتعدا عن السيّارة وربّما لم يبتعدا. أسمع خشخشة العشب تحت أقدامهما. ربّما كانا يقومان بحركات ليجري الدم في عروقهما. ثم أحسست بيد واحد منهما تزيل

القبّ ثم النظّارات ثم العصابة. أغمضت عينيّ ولم أفتحهما إلّا بعد مدّة. شيئًا فشيئًا تسرّب ضوء المساء إليهما. كوخز الإبر. ثم بدأت أرى كأنّما من خلال ضباب. السيّارة مركونة في الخلاء، تحت شجرة يتيمة. والرجلان على بعد متر من عينيّ. ويرسلان إليّ نظرات كلّها فضول. كأنّما ينتظران أن ألقي خطبة. تقدّم أحدهما وسلّم عليّ بحرارة وكذلك فعل الآخر. وقالا معًا وفي الآن نفسه عْلى سلامتك. لقد عفا عنك الملك ونحن فرحنا كثيرًا. الله يجعل البركة في سيدنا. ثم تراجعا خطوة. الرجلان يلبسان وزرتين بيضاوين. كان عليّ أن أعتقد أنّهما ممرّضان. ولكن شكّي دفعني إلى التريّث قليلاً. فرأيت تحت الوزرة الحذاء العسكري والسروال الكاكي. وقلت هذان الرجلان ليسا ممرّضين. وكانا يبتسمان وكلّهما انتباه لما قد أقول أو أفعل. وأنا لا أفكّر في هذا مطلقًا. كنت لا أزال مشغولاً بالعدّ وهذه المرّة بطريقة أخرى. في جعبتي طرق شتّى. وبدا لي في هذه الظروف أن أجرّبها كلّها.

ظهر بدويّ لا أعلم من أين خرج. لا وجود لأيّ منزل في الجوار. كأنّما نبت من تحت الشجرة. يحمل صينيّة وعليها كأس قهوة بالحليب وكرْواصّة وعصير الليمون والفرماج والبيض المسلوق. وضع أحد الرجلين المتظاهرين أنّهما ممرّضين الصينيّة فوق كرسي السيّارة وتراجع جنب صاحبه. قبل أن أضع يدي على قطعة الخبز حطّ فرج على حافّة النافذة. لم يباغتني ظهوره. قلت له متعذرًا، ممازحًا، محرجًا نوعًا ما، لسنا في وضعيّة تسمح لنا بأن نأكل ما نريد. وضعيّتنا خاصّة جدًّا. أدرك الطائر حرجي وحرّك منقاره. هممت بالأكل ثم تراجعت. انتبهت إلى أنّ الرجلين يراقبان حركاتي. وقلت عليّ أن أبدو عاديًّا وأنا آكل، وليس شخصًا يتحدّث إلى طائر ويسرّ له بأفكار قد يظنّان أنّها موجّهة ضدّهما.

بقدر ما يبديان اهتمامًا وتفهّمًا وتعاطفًا معي، بقدر ما يزداد هجومي على الأكل. عندما انتهيت شكر الفلّاح الرجلين على تفضّلهما بقبول هديّته المتواضعة، ورفع صينيّته وابتعد. وهذه المرّة رأيت أنّه كان يسير بين حقول القمح الناضج ويختفي شيئًا فشيئًا، انطلقت السيّارة مجدّدًا تفترس الطريق وتسابق الإسفلت. عبر الزجاج لا أتبيّن غير ظلال الأشياء التي يمرّ عليها الليل. وهذه المرّة لم يتوجّها إليّ بالكلام أيضًا إلّا بعد مدّة. التفت إليّ أحدهما، الرجل الذي لم يكن يقود، وقال ما تعرّضت له يجب أن يبقى سرًّا. البلاد محاطة بالأعداء من كلّ جانب. كنت مشغولاً بالأعداد. وأحاول ألّا أتسرّع وأن أؤجّل النتيجة. وكلّما تقدّمت في العمليّة أتيقّن أنّني فعلاً رجل آخر. كأنّما تخطّيت حاجزًا منيعًا. تجاوزت حدودًا. وأنا في الجهة الأخرى من هذه الحدود. ثم توقّفت السيّارة من جديد وقال أحدهما لا بدّ أنّك تعرف هذه المنطقة. التفتُّ حولي محاولاً أن أتذكّر. هناك نهر وأضواء قرية في الضفّة الأخرى وقنطرة. هل هي الطريق التي كان خالي يحفرها باتّجاه العاصمة؟ كانت أختي خديجة قد قالت لي إنّ رجلاً طرق بابهم ذات يوم وقال لامرأة خالي: السي امبارك الله يرحمو... ماتْ

كيفاش ماتْ؟

مات وهو يحفر.

والطريق؟ سألتْه.

قال لها الطريق وصلت حتى العاصمة. وابتسمتْ.

الآن قبل أن ترى أهلك سترى المسؤول الأمني عن المنطقة، قال أحد الرجلين المتخفّيين تحت وزرة التمريض. ووقفت السيّارة أمام بناية قديمة منتصبة جنب الطريق وتبدو كأيّ منزل للسكن. بواجهة عاديّة وباب عادي ونوافذ عاديّة. وحتى امرأة تنشر الثياب وأطفال يلعبون على الدرج

المؤدّي للباب. خرج المسؤول في كامل زيّه العسكري، رافعًا يديه إلى أعلى وعلى وجهه ضحكة عريضة، كما لو أنّ بيننا قرابة عائليّة، وباسني على خدّي الأيسر ثم الأيمن. وقال عْلى سْلامتك. وتمنّى لي أيّامًا طيّبة بلا مشاكل. لقد عفا عنك الملك ونحن فرحنا كثيرًا. الله يجعل البركة في سيدنا. وهو الذي قرّر إرسالك إلينا لتتعافى. ثم بدأ يسألني هل عرفت أين كنت. وأنا حرّكت رأسي بشكل آلي دون أن أكون قصدت بحركتي معنى معيّنًا. لا، لم تتعرّف عليه؟ هذا أحسن لنا جميعًا. نحن أيضًا لا علم لنا. لا أحد كان يعرف. وكلّنا تساءلنا كيف يحدث هذا الأمر في بلد كبلدنا؟ ولكن بلدنا كريم وملكنا رحيم والحمد لله على كلّ حال. وعسى أن تكرهوا... وكنت وصلت مرحلة متقدّمة من العدّ: وبدون أن أفاجأ عرفت أنّني عدوت أكثر من ثلاثة ملايين كيلومتر.

وهذه المرّة لم أعرف هل سارت السيّارة كثيرًا وما هي المسافة التي قطعت لتصل إلى القيادة.

في المرحلة النهائيّة من العدو تشعر أنّك أصبحت خفيفًا، انسلخت نهائيًّا عن كلّ ما يحيط بك. تتأمّل الكائنات من فوق شرفة متنقّلة. وكأنّما كلّ ماضيك نزل مع العرق الذي سال منك وأنت تعدو. موظّفون كثيرون في القيادة. ولا أعرف أحدًا منهم. وكلّهم سلّموا عليّ. يضغطون على يدي بحرارة: عْلى سلامتك. كلّنا فْرحنا لك. الله يجعلها مغفرة للذنوب. طلب القايد الصمت وهو يقف تحت الرايات. وشكر السلطات العليا وعلى رأسها جلالة الملك الذي أبى إلّا أن يشملني بعفوه الكريم. الموظّفون يهزّون رؤوسهم وهم يصفّقون. ثم مال القايد جهتي وقال ليسمعه جميع الحاضرين: إيّاك أن تكلّم الصحافة. هؤلاء لا ينتظرون سوى الفرصة لتأليب الأجانب علينا. إنّهم يحسدوننا على نظامنا. وعلى ما ننعم به من استقرار. يستغلّون كلّ صغيرة للإساءة إلى

شعبنا البطل. وقال في النهاية إنّ عليّ أن أنسى وأعتبر ما جرى حادثة عابرة. هذا أحسن له ولي وللجميع. أنسى وأتصرّف كأنّني. . . وقال إنّ عيونهم مفتوحة لا تنام. تراقب كلّ شيء. وأنا مع نفسي أقول إنّ العدد الذي وصلت إليه قد يكون خاطئًا. حتى أستمرّ في التعرّف على إمكاناتي الجسديّة وكم تحتمل. . . بدل العدّ بلغة الكيلومترات عدت إلى طرقي القديمة. عندما خرجت من المكتب خرج الموظّفون خلفي وعلى رأسهم القايد. هناك في الجهة الأخرى ضوء مصباح وقف تحته أشخاص كثيرون. طارت حمامة من فوق عمود الضوء. وصفقت بجناحيها الأبيضين وهي ثابتة في مكانها. وعرفت من طريقة اصطفاق جناحيها أنّها فرج الذي تبعني حتى هنا. صفق بجناحيه وهذه المرّة ارتفع قليلاً ثم نزل وحطّ على كتفي. وسألته هل يراه الآخرون وهزّ كتفيه في سخرية. وقال لماذا تهتمّ بهم؟ هل تريد أن تعود إلى وضعيّتك الكارثيّة؟ ارفع بصرك قليلاً. رفعت رأسي: وبعد؟

ماذا ترى؟

السماء وقد أظلمت.

ومن غير هذا؟

لا أرى شيئًا.

انظر جيّدًا.

القمر.

ربّما لم يصل إلى علمك أنّ الإنسان وصل إلى القمر؟ استمررت أنظر إلى فرج وأنا مبهور وفرحان، ولا أعرف إِلى مَ ستفضي إليه سخريّته.

وهل تعرف لماذا وصل الإنسان إلى القمر؟ لأنّ الحياة هناك

أفضل. ثم إنّ القمر هو المكان الأخير لمن يريد أن يهرب بجلده. هل تدرك هذا؟ وأنت طيّار محترف. ثم إنّ تعلّم الطيران لا يُنسى، كتعلّم الدرّاجة أو الآلة الكاتبة. صحيح؟ كتعلّم اللغة الدارجة. لم أفكّر في الأمر من قبل من هذه الزاوية. لم أكن في المكان المناسب لأفكّر فيه. وضحكنا أنا وفرج. ولكي أمازحه حكيت له حلمًا كنت رأيته وأنا في القصبة. قلت له حلمت أنّني أتجوّل في القمر. بين غابات وشلّالات. وحولي حيوانات وبشر. وموسيقى. الفرق الوحيد هو أنّ البشر والحيوان تتشابه. لا فرق. جميعنا نسير على أربع. ومعلّقون في القمر. أرجلنا فوق ورؤوسنا تحت. كالذباب المعلّق في السقف. وانفجر فرج في قهقهة عالية حبسها على الفور حتى لا ينتبه الآخرون. وكان عددهم قد تزايد. منهم من تسلّق سطوح البيوت الطينيّة ومنهم من تسلّق الشجر.

قلت له لست يائسًا إلى الحدّ الذي أقوم به بمثل هذا السفر الشاقّ.

قال ولم تصلح المعلومات الكثيرة التي جمعت حول الطيران سواء في المدارس أو بوسائلك الخاصّة؟ ولا تنسَ المجهودات التي قام بها الأميركان حتى تجد نفسك هنا. وهم محتاجون لمن ينقّب لهم في الجهة الأخرى من القمر. وربّما استطعت أن تنفّس عن بعض قلقك. امنح نفسك شجاعة أخيرة. لن تذهب أبعد من شجاعتك على أيّة حال. ولن تندم على العناء. اصعد. ها محيط الحياة اللامحدود يجري فوقك. عمّا قريب ستحملك الموجة العظيمة إلى مكان آخر حيث تنتظرك أفكار أخرى، كنسيم الشمال، تدفعك لمعانقة اللانهاية. وعندما بدوت له مقتنعًا، مستعدًّا للمغامرة قال عندما ستغادر الأرض فإنّ عوامل كثيرة ستعمل على تغيير وزنك، ستزيد أو تقلّل من سرعة صعودك. مثلاً كمّيّة الظلّ التي قد تتراكم على جلّابيّتك أثناء العبور نحو الفضاء قد تجعلك تنزل بدل أن تصعد. إذن عليك بانتظار اللحظة المؤاتية. إذا أنت عجّلت

بالرحيل الآن فستجد نفسك غدًا، في الوقت المناسب، والمستوى المناسب عندما تكون الشمس في كامل حرارتها حتى تجعل الظلّ يتبخّر بالسرعة المرغوبة. قلت لفرج كلّ هذا أعرفه. ودخلت في دوّامة الحسابات العمليّة: يلزمني خمسة أيّام من الإبحار عبر الفضاء للوصول إلى القمر. وقال فرج مستهزئًا ماذا تساوي خمسة أيّام أمام السنوات التي قضيت محبوسًا مذلولاً مريضًا معذّبًا؟

في الجهة الأخرى تضاعف عدد المتفرّجين. وهذه المرّة رأيت بينهم والدي وعمّي. وغير بعيد الممرّضين وقائد المنطقة ثم الملك وحوله حاشيته وكلّ زبانيّته. هذا المنظر الأخير هو الذي عجّل بهروبي. ضربت الهواء بيدي، كما رأيت فرج يفعل، انتفخ الجلباب كالبالون وبدأت أصعد. وبدأوا يهرولون ويصيحون أن أنزل: عزيز انزل. عزيز فين غادي؟ وأنا أصعد وكلّما علوت أحسّ بصدري يضيق. ولكنّني أعرف أنّ حالة كهذه تنتاب كلّ واحد يحاول مغادرة الأرض.

طبعًا لا يوجد هناك محيطات أو بحار أو بحيرات كما يدّعي البعض. إنّنا بعيدون تمام البعد عمّا يمكن أن يتصوّره أيّ مخلوق. والناس الذين سأجد في استقبالي قصار القامة ولا يتكلّمون كثيرًا ولهم نظام سياسي في غاية البساطة ولا يطلقون عليه أيّ اسم... نظرت إلى الأرض. وبدا الآخرون تحتي صغارًا جدًّا. وما زالوا يتصايحون. عمّي يهدّد ويتوعّد: انزل انزل يا ولد الحرام. وأنا صاعد. وأبي يتوعّد: انزل يا ولد الحرام. والقايد يتوعّد والباشا والعامل والملك، كلّهم يأمرونني بالنزول. وأنا محلّق في السماء. والسماء قريبة منّي. لقد نزلت مرّة ولن أعود للنزول ثانية... وبقدر ما أرتفع يتضاءل حجمهم وينقص صياحهم وهياجهم ويتضاءل حظّهم في الإمساك بي ثانية. حتى اختفوا نهائيًّا.

ثم بدأت أتبيّن بجلاء محيّر نتوءات سطح الكوكب المضيء...

٢١

رواية بنغازي

(الثامنة مساء)

من مستودع الأموات

كما يسمّونه أتحدّث... وأنا لم أقل هذا هو الموت حتى رأيته بعينيّ في المرآة كما يسمّونها... تأتي مع الشاحنة وتدخل حتى دكّان الحلّاق... القميص جديد والسروال جديد والخاتم عندما بعته اشتريت هذه الأشياء ولم يبق غير الحلّاق الذي فرح وهو يرى الأوراق الماليّة... وقال اجلس في هذا الكرسي... والكرسي من الجلد ووثير كما يقولون ولا يجلس عليه إلّا الزبائن المحترمون... وهو كما ترى في مواجهة الباب حتى يدخل النسيم إلى الحانوت... هاهاها... الشاحنة هي التي دخلت بدل النسيم والأشياء الأخرى التي تأتي معه. أنا رأيت الموت في المرآة قادمًا من خارج الحانوت... ثم رأيته يقترب... وقلت هذه الشاحنة آتية فيما يسمّونه المرآة وإذا استمرّت تجري هكذا فستدخل حتى قاع دكّان الحلّاق...

في فمي رغوة ما يسمّونه الصابون وماء الصابون وطعم الصابون... أتكلّم الآن من مرآب تحت الأرض كما يسمّونه... حيث وضعوني منذ وقت ريثما... ما حولي لا أراه ولكنّني أسمع كلّ حركة فيه. الحائط وهو يشتكي من طول الوقوف ويقول إنّه قرّر أن ينهار بعد يومين. وجاره يشدّ من عضده لأنّه تشاجر منذ يومين مع صاحب

العمارة. . . ياه، صفّ من النمل يمرّ قريبًا من ساقي ويتحدّث عن النهار الممتع الذي قضوه. . . فأر يقول لجاره إنّ أولاده لم يأكلوا شيئًا هذا النهار ويقتربان منّي ويتشمّمان قفاي. . . والماء في قاع المرآب يغنّي أغنية رتيبة لأنّه لا يحسن غير هذا. . . ثم يطلّ السائق علي ويقول للحلّاق إنّه كان يعرف أنّ فرامل الشاحنة كما يسمّونها ستتكسّر في يوم من الأيّام. . .

في رأسي زجاج المرآة أيضًا. . . وقطعة من شفرة الحلاقة. . . ولا شيء آخر حتى يتعرّفوا عليّ. . . لا أوراق ولا عقود ولا الرسوم التي تجعل الناس يتعرّفون بعضهم على بعض. . . وإلى الساعة لا أحد تعرّف عليّ. . . لو كان خالي هنا لتعرّف عليّ. . . يرفعون الغطاء، يطلّون ثم يعيدون الغطاء فوق وجهي وينصرفون. . . (بالمناسبة أقول لكم إنّ رائحة الغطاء لا تحتمل). رأسي مبعوج وفيه أطراف المرايا والصابون ورغوة الصابون وقطعة شفرة الحلاقة والعمود الفقري مطحون كاللحم المهروش. . .

بعد أن اختفى السائق تكلّف الحلّاق إدخال يده في جيب سترتي ليخرج الورقة التي فيها أرقام الخيول. . . وهل سيتعرّفون على اسمي وعنواني من أرقام الخيول؟ الاسم والعنوان والمهنة كلّ هذا عند خالي كما أسمّيه. . . مع حرّ هذا العام الاستثنائي، سيتعفّن الجسد سريعًا إذا لم يأت شخص للتعرّف عليّ. أو تأتي امرأتي لدفني. أو الأخرى كما يسمّونها. زينة. هل هي في الساحة الآن تتفرّج على الأحواش وتسمع الأهازيج؟ ومن تزوّج بمن في هذه الليلة السعيدة؟ وهل وصل دورنا؟ وهل تركوا لنا مكانًا بينهم وعزفوا موسيقى على شرفنا؟ الساحة ساخنة الآن والنيران مشتعلة. . . وكلّ واحد أخذ زوجته الجديدة إلى الخيمة وكلّ الأشياء التي تأتي بعد الخيمة. . .

من أجلها اشتريت القميص والسروال... ومن أجلها دخلت حانوت الحلّاق. وهل ستأتي هي أيضًا وترفع الغطاء للتعرّف عليّ؟ وبانتظار أن تأتي هذه المرأة أو تلك فإنّني أنتظر وأتوقّع كلّ شيء... حتى أن تتعفّن جثتي كما يسمّونها... لا أحد من الذين أطلّوا تعرّف عليّ. الحلّاق والنجّار والعابر، كلّهم قالوا أمّا هذا الرجل فنحن لم نره من قبل. وعندما انصرفوا أدخل الحلّاق يده في جيبي وأخرج الأوراق الماليّة وسمعتها وهي تدخل إلى جيب سرواله... وعائلتي لا خبر عندها. ستّ بنات وربّما سبع وأمّهنّ وديون كبيرة... لم أترك لهنّ غيرها. الخيل والكلاب والبنات... وبقيت الديون والدائنون. هؤلاء لا يموتون... ربحنا هذا على الأقلّ... أجمل شيء في هذه الدنيا هي أن تموت دون أن تردّ الديون التي عليك... هاهاها... سأرى وجوههم المنكوبة عندما يطلّون عليّ بدورهم. هؤلاء سيتعرّفون عليّ من أوّل إطلالة ولكن بعد فوات الأوان كما يقولون... سيبصقون على وجهي... هذا كلّ ما يستطيعون... مبعوج الرأس كما أنا وميت فوق هذا لن أبالي حتى لو بالوا عليّ... هاها... والمال أخذه الحلّاق... لا أشعر بصداع... ليس هناك ألم... الألم في الخارج... مرتاح لأنّني لن أؤدّي لأولئك الذئاب شيئًا... وحتى الساعة لم يظهر هذا الشخص، امرأتي على الأرجح، لينتشل جثّتي من هذا المكان البارد... هناك في الركن جرذان يتشاوران وأنا لا أعير مشاورتهما أيّ اهتمام...

٢٢

رواية عزيـز

(فيما بعد)

خالتي ختيمة

لا تريد أن تشرب الدواء. وأنا من باب الغرفة أرى أمّي تقرّب الملعقة من فمها وخالتي تردّها وهي تقول الدواء حارّ. أسأل أمّي هل خالتي مريضة وتقول برأسها لا. وتدفعني جهة الباب. وأعود لأقول لها بْغيتْ نْقولْ لْخالتي شي حاجة. تغلق أمّي الباب هذه المرّة وتختفي خالتي. ننزل أنا وأمّي إلى البار وأسألها هل ستموت خالتي فتنهرني. أذهب إلى الرجل الجالس حول المائدة وأقول له إنّ خالتي ختيمة ستموت. فتتبعني أمّي وأهرب وأختبئ خلف الباب. وأسمع أمّي تتكلّم مع الرجل ثم تعود إلى الكونطوار. أخرج من خلف الباب وأختبئ تحت المائدة حتى لا تراني. أسمعها تقول اخرجي. وأنا تحت المائدة وأقول إنّها لا تراني كثيرًا. في المساء عندما يأتي الرجال الذين يشربون وتكون الأرجل كثيرة فإنّ أمّي لا تراني بالمرّة. وكذلك خالتي. ولكن خالتي مريضة. وستموت لأنّها لا تريد أن تشرب الدواء. أنتقل على ركبتي إلى مائدة أخرى ولا أعود أرى أمّي. أرى رجليْ الرجل وهما تتحرّكان. وكذلك أصابع يديه. هل وجهه يتحرّك كذلك؟

أنتقل تحت مائدة أخرى. وجه الرجل ملتفت جهة الكونطوار. أمّي تجلس دائمًا خلف الكونطوار وتنتظر أن تدخل الشمس من النافذة وتحطّ على وجهها. أمّي تعجبها الشمس وهي تنزل على وجهها. تنظر بدورها إلى الرجل الجالس إلى المائدة. من تحت المائدة أنظر إلى رجليه. حذاؤه قديم. أقترب من حذائه وألمسه. يحرّك رجليه وتصيح أمّي خلّي الرجل طْرانكيل. أطلّ عليه وأضحك. يضحك الرجل بوجهه القديم. وجهه كحذائه. أجرّ بنطاله وأقول له عن خالتي ختيمة. فتنهرني أمّي وأجرّ بنطاله مرّة ثانية وأهرب. وأنتظر أن يتبعني. ولا يتبعني. وأنتظر أن تتبعني أمّي لأختبئ خلف الباب. وأمّي تطلب منّي ألّا أزعج الرجل. وخالتي بدل الدواء تحبّ أن تشرب والْماسْ لأنه يزيل الأوجاع. وأمّي تستمرّ في تفحّص الرجل. وأنا قلت لها بْغيتْ نقولْ ليهْ شي حاجة. وأنتظر ما ستفعله أمّي.

تغادر الكونطوار وتقترب منه. وتسأله هل يريد مشروبًا. وأخرج من تحت المائدة وأقول للرجل أريد موناضا. وتضربني على كتفي وهي تقول حْشومة. وأنا أضحك وأهرب منها لأنّها تريد أن تمسك بي. ويقول الرجل إنّه لا يريد شيئًا الآن. ربّما فيما بعد. وتنظر إليه أمّي طويلاً. وتقول له إنّ وجهه ليس غريبًا. ويقول لها إنّ وجهها ليس غريبًا. وأنا أضحك من كلامهما. ثم تتراجع أمّي خطوة وتحكّ أنفها وتعضّ على شفتها وتقترب منه. ثم تذهب خلف الكونطوار وتبحث طويلاً في القمطر وتعود ومعها قطعة ورق قديمة وتضعها أمامه على المائدة. جزء من علبة تبغ كتلك التي أرى على موائد الرجال الذين يأتون إلى البار. ينظر الرجل إلى

الورقة مبهورًا. ثم يضحك. وعندما تجلس على كرسي جنبه يقول إنّه أمضى السنين الأخيرة سائرًا. تنقّل كثيرًا بين المقاهي والوجوه والغابات والمدن والقناطر والأزقّة والقرى. والمستشفيات والجزر والسماوات. المستشفيات بالأخصّ. وتذكّر بار اللقلاق دون أن يتذكّر العنوان ولكنّ اللقالق هدته أخيرًا. وقالت أمّي إنّ اللقالق تعود إلى أعشاش تعرفها.

وقال الرجل نعم، تعرف أعشاشها. قبل أن تسافر تغرس رائحتها في عشّها حتى تتعرّف عليه حين تعود.

وتبعتَها؟

نعم، وها أنا وصلتُ.

كلامهما مضحك من أوّله إلى آخره. واللقالق جميلة ولكن مناقيرها كبيرة. وعندما تضرب فردتي مناقيرها الواحدة مع الأخرى تصبح مزعجة. تركتهما ووقفت عند الباب. ولم يعد مضاءً كما كان لأنّ الشمس بدأت تختفي خلف الجبل. ورأيت الشارع فارغًا. ثم رأيته ممتلئًا بالناس. وسألتني أمّي ماذا يحدث. وقلت لها إنّ الناس يجرون في الشارع. جاءت بدورها ووقفت بجانبي. والناس في الشارع يهرولون ولا ينظرون إلينا كما ننظر إليهم. عدت إلى الداخل ولم أختبئ تحت المائدة. ذهبت إلى الكونطوار وفتحت الثلّاجة وأخرجت زجاجة موناضا. أمّي لم تنهرني لأنّها تقف عند الباب. وأغلقتُ الثلّاجة. وخرجت من خلف الكونطوار وشربت جرعة طويلة. سألني الرجل لماذا يجرون؟ وشربت جرعة أخرى وأنا أهزّ كتفي. جاءت أمّي من

الخارج ووقفت بجانبي. وسألتُها: غْلاش كيجْريوْ أماما؟

الملك مات.

بحال خالتي ختيمة؟

خالتك ما غاديش تموت.

وشكون الملك؟

حتى تكبري وتعرفي شكون هو.

وقلت أنا كبيرة. التفت إليّ الرجل وقال لماما صحيح إنّها كبيرة. ولمس وجنتي وضربتُ يده. وقالت ماما حْشومة. واختفيت تحت المائدة. وبدأت أرى أرجل الذين يجرون في الشارع. ذهبت أمّي وأنزلت الريدو وأغلقت الباب الحديدي على مصراعيه ولم أعد أرى الأرجل. استمرّ في الشارع الضجيج والصياح والهرولة. وهذه المرّة أرى من تحت المائدة أربع أرجل بدل رجلين. وأرى أنّ رجليْ الرجل هدأتا. وسمعته يسألها عن خالتي ختيمة فتردّ عليه إنّه الوجع العادي. وأنتظر أن يستمرّ كلامهما حتى أعرف لماذا يجلسان جنب بعضهما. وهذه المرّة سمعته يقول لماما كنتْسالك شي حاجة. ولم يكن ينظر إليها أيضًا.

وقالت أمّي آش كتْسالني؟ وأمسكتْ بيدي وأخرجتني من تحت المائدة وعادت تجلس جنب الرجل. وهو ينظر إليها وهي بدل أن تنظر إليه تلعب بشعري. وضعتني في حجرها واستمرّت تلعب بشعري.

التفت الرجل جهتي وقال لها شكون هادي.

وقالت أمّي وهي تلعب بشعري طفلتنا.

ما اسمها؟

عزيز. انحنى عليّ الرجل يريد أن يبوس خدّي. وجهه لا يشبه وجهي. ولا يشبه وجه أمّي. مسحتُ خدّي. ثم وضعتني أرضًا. وبقيتْ تنظر إلى الأرض. وتلعب بأصابعها. الرجل هو أيضًا ينظر إلى الأرض.

ثم قال لها: وشحال في عمرها؟

وقالت ثماني سنوات.

وأنا أقول إنّهما يعرفنا بعضهما وأتساءل لماذا لا يتكلّمان.

ثم قال الرجل كنتْسالك شي حاجة. وكان ينظر إليها هذه المرّة.

وقالت أمّي ما عقلْتش آشْ كتْسالني؟ وضحكتْ بصوت مرتفع. ووضعت يدها على فمها.

وقال مرّة أخرى كنتْسالك شي حاجة. أمّي هي التي أحنت رأسها هذه المرّة. وقالت لي سيري تلعبي لهيه.

وقلت لها نمشي نشوف خالتي.

وقالت لا.

وقلت بغيت نقول ليها شي حاجة.

ورجعت تحت المائدة ولم تعد ماما تراني. ولم تعد خالتي ختيمة تراني. وسمعت الرجل يقول كنتْسالك شي حاجة. أطللت

عليها. ووجهها أصبح أحمر. ثم اختفيت من جديد. ولم أعد أسمع ما يقولان. ولم أعد أرى وجهيهما. أرى يد الرجل تتحرّك وتمسك بيد أمّي. ثم ألقيت عليهما نظرة من بين أرجل المائدة. وكان وجه الرجل منحنيًا على وجهها. وفمه على فمها وقلت هذا الرجل كان يعرف أمّي. وكان كيتْسالْها بوسة. وضحكتُ لأنّه جاء من بعيد ليأخذ بوسته. وضحكتُ لأنّها أعطته بوسته. وضحكت لأنّني فرحتُ.

في أجواء من الحاجة والهوان والقمع، تتفتّح علاقةُ عشق بين زينة وعزيز: زينة التي تعاني وضعًا عائليًا مفكّكًا وتنتهي متشرّدةً في البارات؛ وعزيز الطيّار الصامت، المرميّ في زنزانة، الذي يعشق التحليق، وينتهي مجهول المصير...

يوسف فاضل روائي ومسرحي وسيناريست مغربي. حازت روايته «حشيش» جائزة الأطلس الكبير. وصدرت له عن دار الآداب رواية «قطّ أبيض جميل يسير معي».

تصميم الغلاف ريم الجندي

دار الآداب

هاتف: ٨٦١٦٣٣ /٠١
٧٩٥١٣٥ /٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت


ISBN: 978-9953-89-249-8